بسم الله الرحمن الرحيم

الجزء الأول من كتاب (النبأ العظيم) مولود جديد ... قديم ... جديد في مقطعه ونهايته ، قديم في مطلعه وبدايته ...

كان مسقط رأسه في الحرم الجامعي ، منذ نَيِّف وعشرين عاماً ، ولكنه لم يبرز منه يومئذ إلا عنقه وصدره ... أما أطرافه فلم تنشأ ، وأما خَلقه فلم يكتمل ، إلا اليوم .

لقد شهد طلاب الأمس بداية أمره ، حين كان يُملى عليهم نجوماً متفرقة ، في فترات متلاحقة أو غير متلاحقة ، وكانوا كلما اجتمعت منه صفحات معدودة لا تزيد عن عِقد وبعضِ عقد ، استعجلوا طبعها ، وجعلوا يستحثون همة المؤلف لوضع لاحقتها ...

ثم أتت بعد ذلك شئون[1] حالت دون إتمام وضعه ، بله إكمال طبعه ... فبقي القدر الذي طبع منه حبيساً في دار الطبع ، أو مقصوراً على الرعيل الأول من طلاب هذا البحث ... حتى أذن العلي القدير - وكل شيء عنده بمقدار - أن يضيف المؤلف إليه اليوم خليَّات أخر ، اكتمل بها قوامه ، وأخذ بها أهبته للخروج من نطاق الثقافة الجامعية ، إلى فضاء الثقافة العالمية ، لكي يتحدث إلى كل عقل واع ناقد ، لا يأخذ ما يأخذ إلا على بصيرة وبينة ، ولا يذر ما يذر إلا على بصيرة وبينة ؛ وإلى كل وجدان تجريبي ذائق ، لا يكتفي بالخبر عن المعاينة ؛ ولا يستغنى بالوزن عن الموازنة .

---

(١) أمضى المؤلف في خارج القطر اثني عشر عاماً : من غرة ربيع الأول ١٣٥٥ إلى سلخ ربيع الثاني ١٣٦٧ (مايو ١٩٣٦ - مارس ١٩٤٨) مبعوثاً من الجامعة الأزهرية إلى الجامعات الأوربية . فدرس هناك بضعة ألسن من لغة أهل الغرب ، وأَلَمَّ بمناهج =

إنه حديث يبدأ من نقطة البدء ...

فلا يتطلب من قارئه انضواء تحت راية معينة ؛ ولا اعتناقاً لمذهب معين ، ولا يفترض فيه تخصصاً في ثقافة معينة ؛ ولا حصولاً على مؤهل معين ، بل إنه يناشده أن يعود بنفسه صحيفة بيضاء ؛ إلا من فطرة سليمة ؛ وحاسة مرهفة ؛ ورغبة صادقة في الوصول إلى الحق في شأن هذا القرآن ...

وإنه إذاً لواصل إن شاء الله .

في شعبان سنة ١٣٧٦ (مارس ١٩٥٧) .

محمد عبد الله دراز

= علمائهم في البحث ، ووضع هناك باللغة الفرنسية رسالتين جامعيتين : عن القرآن ، وعن دستور الأخلاق في القرآن ... ثم أمضى تسعة أعوام أخر بعد عودته إلى مصر مشغولاً بشئون علمية نيطت به على عجل . من أهمها :

١ – محاضرات في علم تاريخ الأديان بكلية الآداب بجامعة القاهرة .

٢ – محاضرات في فلسفة الأخلاق بقسم التخصص بالجامعة الأزهرية .

٣ – تدوين محاضراته هذه وتلك وإخراجها في رسالتين باللغة العربية .. على أن المؤلف مازال في أثناء هذه المشاغل كلها يعاوده الحنين إلى إكمال هذا الجزء ، وما برح في تلك الأثناء يتلقى من أبنائه وزملائه الرسائل تلو الرسائل لمتابعة هذا البحث ، ولكنه لم ييسر له تحقيق بعض هذه الأمنية إلا الآن . وسبحان من لا يشغله شأن عن شأن [**دراز**] .

بسم الله الرحمن الرحيم

(الحمد لله) الذي فضلنا بالقرآن على الأمم أجمعين ، وآتانا به ما لم يؤت أحداً من العالمين : أنزله هداية عالمية دائمة ، وجعله للشرائع السماوية خاتمة ، ثم جعل له من نفسه حجة على الدهر قائمة . والصلاة والسلام على مَنْ كان خُلُقُه القرآن[1] ، ووصيته القرآن[2] ، وميراثه القرآن[3] ، القائل : « **خيركم من تعلم القرآن وعَلَّمَه** »[4] .

اللهم كما أعطيتنا حظاً من وراثة هذا الذكر الحكيم ، فيسرت علينا حفظه وتذكره ، وحببت إلينا تلاوته وتدبره ، نسألك أن تجعلنا من خيار وارثيه ، الذين هم بهدايته مستمسكون ، والذين هم على حراسته قائمون ، والذين هم تحت رايته يوم القيامة يبعثون ، في جند إمامنا الأعظم ، ورسولنا الأكرم ، محمد ابن عبد الله ﷺ ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه .

* * *

---

(١) إشارةً لحديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها حين سألها سعد بن هشام فقال : « **يا أم المؤمنين . أنبئيني عن خُلُق رسول الله ﷺ . فقالت : ألست تقرأ القرآن ؟ فقال لها : بلى . قالت : فإن خُلُق نبي الله ﷺ كان القرآن . قال : فهممت أن أقوم ولا أسأل أحداً عن شيء حتى أموت ..** » رواه مسلم في صلاة المسافرين ١٣٩ . ورواه أحمد ٦ / ٩١ ، ١٦٣ بلفظ : « **كان خُلُقه القرآن** » .

(٢) إشارةً لحديث عبد الله بن أبي أوفي : « **أن رسول الله ﷺ أوصى بكتاب الله** » . متفق عليه : رواه البخاري في المغازي ٤٤٦٠ ، ومسلم في الوصية ١٦ .

(٣) سُئِلَ ابن عباس رضي الله عنهما : « **أترك النبي ﷺ مِن شيء ؟ قال : ما ترك إلا ما بين الدفتين [أي القرآن]** » . رواه البخاري في فضائل القرآن ٥٠١٩ .

(٤) رواه البخاري من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه في فضائل القرآن ٥٠٢٧ .

(أما بعد) فهذه بحوث في القرآن الكريم ، قدمتها بين يدي دروس التفسير لطلبة كلية أصول الدين بالجامع الأزهر المعمور ، ***أردت بها أن أنعت كتاب الله بحليته وخصائصه ، وأن أرفع النقاب عن جانب من الحقائق المتصلة به ، وأن أرسم الخطة التي ينبغي سلوكها في دراسته .***

وقد راعيت في أكثر هذه البحوث شيئاً من التفصيل والتحليل ، وشيئاً من التطبيق والتمثيل ، فلم أكتف بالإشارة حيث تمكن العبارة ، ولا بالبرهان إذا أمكن العيان ، راجياً بذلك أن تنفتح لها عيون الغافلين فيجدوا نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ، وأن تنشرح بها صدور المؤمنين ، فيزدادوا إيماناً إلى إيمانهم .

ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير وبالإجابة جدير .

١٣٥٢ هـ - ١٩٣٣ م

محمد عبد الله دراز

* * *

البحث الأول
في تحديد معنى القرآن
والفرق بينه وبين الحديث القدسي والنبوي

[المعنى اللغوي والاشتقاقي لكلمتي (قرآن) و (كتاب)]

القرآن في الأصل مصدر على وزن فُعْلان بالضم ، كالغفران والشكران والتكلان . تقول : قرأته قَرءاً وقِراءةً وقرآناً بمعنى واحد ، أي تلوته تلاوة . وقد جاء استعمال القرآن بهذا المعنى المصدري في قوله تعالى : ﴿ **إنَّ علينا جمعَهُ وقرآنه * فإذا قرأناه فاتبع قرآنه** ﴾ [سورة القيامة الآيتان : ١٧ ، ١٨] أي قراءته .

ثم صار عَلَماً شخصياً[1] لذلك الكتاب الكريم . وهذا هو الاستعمال الأغلب ومنه قوله تعالى : ﴿ **إنَّ هذا القرآنَ يهدِي للتي هي أَقْوَم** ﴾ [سورة الإسراء الآية : ٩] .

رُوعِيَ في تسميته قرآناً كونه متلوّاً[2] بالألسن ، كما روعي في تسميته كتاباً كونه مدوناً[3] بالأقلام ، فكلتا التسميتين من تسمية شيء بالمعنى الواقع عليه .

---

(١) يطلق بالاشتراك اللفظي على مجموع الكتاب ، وعلى كل قطعة منه ، فإذا سمعت من يتلو آية من القرآن صح أن تقول إنه يقرأ القرآن : ﴿ **وإذا قُرِيءِ القرآن فاستمعوا له وأنصِتوا** ﴾ [سورة الأعراف الآية : ٢٠٤] [**دراز**] .

(٢)،(٣) هذا بيان لوجه الصلة فيهما بين المعنى المنقول عنه والمعنى المنقول إليه ، وهو مبني على ما اشتهر من استعمال القراءة في خصوص التلاوة ، وهي ضم الألفاظ بعضها إلى بعض في النطق ، واستعمال الكتابة في خصوص الرسم ، وهو ضم بعضها إلى بعض في الخط . فإذا رجعنا إلى أصلهما الأصيل في اللغة وجدنا مادتي (ك ت ب) و (ق ر أ) تدوران على معنى الجمع والضم مطلقاً ، وبلمح هذا الأصل الأول يكون كل واحد من اللقبين =

[سر التسمية بالإسمين جمعياً]

وفي تسميته بهذين الإسمين إشارة إلى أن من حقه العناية بحفظه في موضعين لا في موضع واحد ، أعني أنه يجب حفظه في الصدور والسطور جميعاً ، أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى . فلا ثقة لنا بحفظ حافظ حتى يوافق الرسم المجمع عليه من الأصحاب ، المنقول إلينا جيلاً بعد جيل على هيئته التي وضع عليها أول مرة . ولا ثقة لنا بكتابة كاتب حتى يوافق ما هو عند الحفاظ بالإسناد الصحيح المتواتر(١) .

= ملاحظاً فيه وصف الجمع ، إما على معنى اسم الفاعل أو اسم المفعول ، فيكون معناه (الجامع) أو (المجموع) وهذا اللقب لا يعني فقط أن هذا المسمى جامع للسور والآيات ، أو أنه مجموع تلك السور والآيات ، من حيث هي نصوص مؤلفة على صفحات القلوب ، أو من حيث هي نقوش مصفوفة في الصحف والألواح ، أو من حيث هي أصوات مرتلة منظومة على الألسنة ، بل يعني شيئاً أدق من ذلك كله ، وهو أن هذا الكلام قد جمع فنون المعاني والحقائق ، وأنه قد حشدت فيه كتائب الحكم والأحكام ، فإذا قلت الكتاب أو القرآن ، كنت كأنما قلت (الكلام الجامع للعلوم) أو (العلوم المجموعة في كتاب) . وهكذا وصفه الله تعالى إذ أخبر بأنه نزله ﴿ **تِبْياناً لِكُلِ شيء** ﴾ [سورة النحل الآية : ٨٩] وكذلك وصفه النبي ﷺ حيث قال : « **فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم** » رواه الترمذي [**دراز**] .

– **قلت** : هو عند الترمذي في فضائل القرآن ٢٩٠٦ ، وبنحوه عند أحمد ١ /٩١ جميعاً من رواية الحارث عن علي بن أبي طالب . وقال عنه الترمذي : هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه وإسناده مجهول ، وفي الحارث مقال أ هـ . وقال عنه الحافظ ابن كثير في فضائل القرآن ص ١١ : وقصارى هذا الحديث أن يكون من كلام أمير المؤمنين علي رضي الله عنه وقد وهم بعضهم في رفعه ، وهو كلام حسن صحيح أ هـ . ثم ساق شاهداً له من حديث ابن مسعود في فضائل القرآن لأبي عبيد . وقد حكم عليه بالضعف الشديد كل من الشيخ أحمد شاكر في المسند ٧٠٤ ، والشيخ الألباني في الضعيفة ١٧٧٦ .

(١) **المتواتر** : هو ما رواه في كل طبقة من طبقات سنده رواة كثيرون يستحيل اتفاقهم على الاختلاق والكذب .

[سر اختصاص القرآن بالخلود
وعدم التحريف ، دون الكتب السابقة]

وبهذه العناية المزدوجة التي بعثها الله في نفوس الأمة المحمدية اقتداء بنبيها بقي القرآن محفوظاً في حرز حريز ، إنجازاً لوعد الله الذي تكفل بحفظه حيث يقول : ﴿ **إِنَّا نحن نزَّلنا الذِكرَ وإِنَّا لَهُ لحافظون** ﴾ [سورة الحجر الآية : ٩] ولم يصبه ما أصاب الكتب الماضية من التحريف[١] والتبديل[٢] وانقطاع السند[٣] ، حيث لم يتكفل الله بحفظها ، بل وكلها إلى حفظ الناس فقال تعالى : ﴿ **والرَّبَّانيون والأَحْبَارُ بما اسْتُحْفِظُوا مِن كتابِ الله** ﴾ [سورة المائدة الآية : ٤٤] أي بما طلب إليهم حفظه[٤] - والسر في هذه التفرقة أن سائر الكتب السماوية

---

(١) **التحريف** : التغيير ، وإمالة الشيء عن موضعه بتقديم أو تأخير أو حذف أو زيادة أو نقصان .

(٢) **التبديل** : إحلال الشيء مكان آخر

(٣) **انقطاع السند** : سقوط أو عدم معرفة الرواة الذين نقلوا الخبر في فترة زمنية .

(٤) قال الله عز وجل في شأن اليهود وعلمائهم ﴿ **والرَّبَّانيون والأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كتابِ الله** ﴾ [سورة المائدة الآية : ٤٤] فطلب منهم حفظه وإقامة حدوده ، فأضاعوه وأهملوه ونقضوا ميثاقهم مع ربهم كما أخبر عنهم سبحانه وتعالى حيث قال ﴿ **وَلَقَدْ أَخذَ اللهُ ميثاق بني إِسْرَائيل وبعثنا مِنهُمُ اثني عَشَرَ نقيباً وقال اللهُ إني معكم لَئِن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم بِرُسُلِي وعَزَّرْتُمُوهم وأقرضتم اللهَ قرضاً حسناً لأُكِفرنَّ عَنكُم سيئاتِكم ولأُدْخِلَنَّكم جناتٍ تجري من تحتها الأنهارُ فَمَن كفرَ بعدَ ذلكَ مِنكم فَقدْ ضَلَّ سَوَاءَ السبيل * فَبِمَا نقضِهِم ميثاقهم لعنَّاهُم وجعلنا قلوبهَم قاسية يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ عَن مَواضِعِه ونسُوا حظاً مما ذُكِّرُوا بِه ..** ﴾ [سور المائدة الآيتان : ١٢ ، ١٣] والنسيان هو ترك الإنسان ضبط ما استُودِعَ إما لضعف قلبه ، وإما عن غفلة ، وإما عن قصد حتى ينحذف عن القلب ذكره (أفاده الراغب في مفردات القرآن ص ٨٠٣) . وقال صاحب التحرير والتنوير (٦ /١٤٤) : والنسيان المراد به الإهمال المفضي إلى النسيان غالباً . وقد جمعت الآية من الدلائل على قلة اكتراثهم بالدين ورِقَّة اتباعهم ثلاثة أصول من ذلك وهي : التعمد إلى نقض ما عاهدوا عليه من الامتثال ، والغرور بسوء التأويل ، والنسيان الناشيء عن قلة تَعَهُد الدين وقلة الاهتمام به أ هـ . ... =

= * ثم ذكر الله عز وجل النصارى وحالهم مع كتابهم فقال عز وجل ﴿ **ومِنَ الذين قالوا إنَّا نصَارىٰ أخذنا ميثاقَهُم فَنَسُوا حظاً مما ذُكِّرُوا بِهِ فأغْرَيْنَا بينهم العداوةَ والبَغْضاءَ إلى يوم القيامةِ وسوف يُنبِّئُهُم اللهُ بِمَا كانوا يَصْنَعُونَ** ﴾ [سورة المائدة الآية : ١٤] قال الشيخ رشيد رضا في المنار ٦ / ٢٨٧ : ولما بَيَّن الله تعالى العبرة بنقض اليهود لميثاقهم وما كان من أمرهم أعقبه ببيان حال النصارى في ذلك فقال ﴿ **ومِنَ الذين قالوا إنَّا نصَارىٰ أخذنا ميثاقَهُم فَنَسُوا حظاً مما ذُكِّرُوا به** ﴾ أي وكذلك أخذنا ميثاق الذين سموا أنفسهم نصارى من أهل الكتاب الأول ، وهم الذين قالوا إنهم اتبعوا المسيح عيسى ونصروه ... فنقضوا ميثاقهم ونسوا حظاً ونصيباً مما ذكروا به على لسان المسيح عيسى بن مريم كما فعل الذين من قبلهم ﴿ **فَأَغْرَيْنَا بَينهم العداوةَ والبَغضاءَ إلى يوم القيامة** ﴾ فكان نسيان حظ عظيم من كتابهم سبباً لوقوعهم في الأهواء والتفرق في الدين أ هـ [باختصار يسير] .

ومن لطائف ما يتعلق بهذه الآيات ما رواه القرطبي في تفسيره ١٠ / ٥ بإسناده إلى يحيى بن أكثم قال : كان للمأمون مجلس نظر ، فدخل في جملة الناس رجل يهودي حسن الثوب حسن الوجه طيب الرائحة ، فتكلم فأحسن الكلام والعبارة ، فلما أن تقوَّض المجلس دعاه المأمون فقال له : إسرائيلي ؟ قال : نعم . قال : أَسْلِمْ حتى أفعل بك وأصنع ، ووعده . فقال : ديني ودين آبائي ! وانصرف . فلما كان بعد سنة جاءنا مسلماً فتكلم على الفقه فأحسن الكلام ، فلما تقوَّض المجلس دعاه المأمون وقال : ألست صاحبنا بالأمس ؟ قال : بلى . قال : فما كان سبب إسلامك ؟ قال : انصرفت من حضرتك فأحببت أن أمتحن هذه الأديان ، وأنا مع ما تراني حسن الخط ، فعمدت إلى التوراة فكتبت ثلاث نسخ فزدت فيها ونقصت ، وأدخلتها الكنيسة فاشتُرِيَت مني ، وعمدت إلى الإنجيل فكتبت ثلاث نسخ فزدت فيها ونقصت وأدخلتها البِيعَة [بيت عبادة النصارى] فاشتُرِيَت مني ، وعمدت إلى القرآن فعملت ثلاث نسخ وزدت فيها ونقصت ، وأدخلتها الوَرَّاقين [مكان بيع وشراء الكتب] فتصفحوها ، فلما أن وجدوا فيها الزيادة والنقصان رَمَوْا بها فلم يشتروها . فعلمت أن هذا كتاب محفوظ فكان هذا سبب إسلامي .

ولما رويت هذه القصة لسفيان بن عيينة رحمه الله قال : مصداق هذا في كتاب الله عز وجل في قول الله تبارك وتعالى في التوراة والإنجيل ﴿ **بما استُحْفِظُوا مِن كِتابِ الله** ﴾ فجعل حفظه إليهم فضاع ، [ويلاحظ أن الله وصفهم بأنهم استحفظوا ولم يقل إنهم حفظوا] وقال عز وجل ﴿ **إنَّا نحن نزَلْنا الذِكرَ وإنَّا لَهُ لحافظُون** ﴾

[سورة الحجر الآية : ٩] =

جيء بها على التوقيت(١) لا التأبيد(٢) ، وأن هذا القرآن جيء به مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليها ، فكان جامعاً لما فيها من الحقائق الثابتة ، زائداً عليها بما شاء الله زيادته ، وكان ساداً مَسَدَّها و لم يكن شيء منها ليسُدَّ مَسَدَّه ، فقضى الله أن يبقى حجة إلى قيام الساعة وإذا قضى الله أمراً يسر له أسبابه ، وهو الحكيم العليم .

[هل يمكن تحديد القرآن تحديداً منطقياً]

ولما كان القرآن بهذا المعنى الأسمى جزئياً حقيقياً كان من المتعذر تحديده بالتعاريف المنطقية ذات الأجناس والفصول والخواص . وذلك شأن كل الجزئيات الحقيقية ، لا يطابق الجزئي مفهوماً ، لأنّه يقبل الانطباق على كل ما يفرض مماثلاً له في ذلك الوصف ذهناً وإن لم يوجد في الواقع ، فلا يكون مميزاً له عن جميع ما عداه ، فلا يكون حداً صحيحاً .

وإنما يحدد الجزئي بالإشارة إليه حاضراً في الحسِّ ، أو معهوداً في الذهن . فإذا أردت تعريف القرآن تعريفاً تحديدياً فلا سبيل لذلك إلا بأن تشير إليه مكتوباً في المصحف أو مقروءاً باللسان فتقول : هو ما بين هاتين الدفتين ؛

= فحفظه الله عز وجل علينا فلم يضع أ هـ [باختصار يسير] .

هذا ومن تأمل هذه الآية من سور الحجر ثم تأمل قوله تعالى في سورة القيامة ﴿ **إِنَّ عَلَينا جَمْعَهُ وَقُرْآنه** ﴾ ثم تأمل أيضاً قوله عز وجل في سورة الأعلى ﴿ **سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنْسَىٰ** ﴾ لوجد أن مهمة الحفظ والجمع والإقراء قد تكفل بها الله عز وجل . وما تكفل به الله فحسبك به . وهكذا تلقت الأمة كلها هذا القرآن جيلاً بعد جيل ، مئات ثم آلاف ثم ملايين كلهم يحفظه عن ظهر قلب . بل حفظ الله لهذه الأمة بعض المصاحف التي كتبت في عهد صحابة رسول الله ﷺ . فأي حفظ أتم وأفضل من هذا الحفظ الرباني لخير الكتب وخاتمها !!

(١) التوقيت : الوقت المُحَدَّد يُجعل للشيء. (٢) التأبيد : التخليد .

أو تقول : هو ﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين** ... إلى : **من الجِنَّةِ والنَّاس** ﴾ .

أما ما ذكره العلماء من تعريفه بالأجناس والفصول كما تعرف الحقائق الكلية فإنما أرادوا به تقريب معناه وتمييزه عن بعض ما عداه مما قد يشاركه في الاسم ولو توهماً . ذلك أن سائر كتب الله تعالى والأحاديث القدسية وبعض الأحاديث النبوية تشارك القرآن في كونها وحياً إلٰهياً فربما ظن ظانٌّ أنها تشاركه في اسم القرآن أيضاً ، فأرادوا بيان اختصاص الاسم به ببيان صفاته التي امتاز بها عن تلك الأنواع . فقالوا :

(القرآن هو كلام الله تعالى ، المُنَزَّل على محمد ﷺ ، المُتعَبَّد بتلاوته) .

[عناصر التعريف المشهور للقرآن]

(فالكلام) جنس شامل لكل كلام ، وإضافته إلى ***(الله)*** تميزه عن كلام من سواه من الإنس والجن والملائكة .

و ***(المُنَزَّل)*** مخرج للكلام الإلٰهي الذي استأثر الله به في نفسه ، أو ألقاه إلى ملائكته ليعملوا به لا لينزلوه على أحد من البشر ، إذ ليس كل كلامه تعالى منزلاً ، بل الذي أنزل منه قليل من كثير ﴿ **قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً** ﴾ [سورة الكهف الآية : ١٠٩] ﴿ **وَلَو أن ما في الأرضِ مِن شَجَرَةٍ أقلامٌ والبحرُ يَمُدُّهُ مِن بَعدِه سبعةُ أَبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كلماتُ الله** ﴾ [سورة لقمان الآية : ٢٧] .

وتقيد المنزل بكونه ***(على محمد)*** لإخراج ما أنزل على الأنبياء من قبله ، كالتوراة المنزلة على موسى ، والإنجيل المنزل على عيسى ، والزبور المنزل على داود ، والصحف المنزلة على إبراهيم ، عليهم السلام .

وقيد ***(المُتَعَبَّد بتلاوته)*** – أي المأمور بقراءته في الصلاة وغيرها على وجه

العبادة – لإخراج ما لم نؤمر بتلاوته من ذلك ، كالقراءات المنقولة إلينا بطريق الآحاد ، وكالأحاديث القدسية وهي المسندة إلى الله عز وجل إن قلنا إنها منزلة من عند الله بألفاظها .

[التفرقة بين القرآن وبين الأحاديث النبوية والأحاديث القدسية]

أما الأحاديث النبوية فإنها بحسب ما حوته من المعاني تنقسم إلى قسمين :

* (قسم توفيقي) استنبطه النبي بفهمه في كلام الله أو بتأمله في حقائق الكون وهذا القسم ليس كلام الله قطعاً .

* و (قسم توقيفي) تلقى الرسول مضمونه من الوحي فبيَّنه للناس بكلامه . وهذا القسم وإن كان ما فيه من العلوم منسوباً إلى معلمه وملهمه سبحانه ، لكنه – من حيث هو كلام – حري بأن ينسب إلى الرسول ﷺ ، لأن الكلام إنما ينسب إلى واضعه وقائله الذي ألفه على نحو خاص ولو كان ما فيه من المعنى قد تواردت عليه الخواطر وتلقاه الآخر عن الأول . فالحديث النبوي إذن خارج بقسميه من القيد الأول[1] في هذا التعريف .

وكذلك الحديث القدسي إن قلنا منزل بمعناه فقط . وهذا هو أظهر القولين فيه عندنا ، لأنه لو كان منزلاً بلفظه لكان له من الحرمة والقدسية في نظر الشرع ما للنظم القرآني ، إذ لا وجه للتفرقة بين لفظين منزلين من عند الله ، فكان من لوازم ذلك وجوب المحافظة على نصوصه ، وعدم جواز روايته بالمعنى إجماعاً ، وحرمة مس المحدث لصحيفته . ولا قائل بذلك كله . وأيضاً فإن القرآن لما كان مقصوداً منه مع العمل بمضمونه شيء آخر وهو التحدي بأسلوبه والتعبد بتلاوته احتيج لإنزال لفظه ، والحديث القدسي لم ينزل للتحدي

---

(١) وهو كون الكلام كلام الله [دراز] .

ولا للتعبد بل لمجرد العمل بما فيه وهذه الفائدة تحصل بإنزال معناه . فالقول بإنزال لفظه قول بشيء لا داعي في النظر إليه ، ولا دليل في الشرع عليه ، اللهم إلا ما قد يلوح من إسناد الحديث القدسي إلى الله بصيغة (يقول الله تبارك وتعالى كذا) لكن القرائن التي ذكرناها آنفاً كافية في إفساح المجال لتأويله بأن المقصود نسبة مضمونه لا نسبة ألفاظه . وهذا تأويل شائع في العربية ، فإنك تقول حينما تنثر بيتاً من الشعر (يقول الشاعر كذا) وتقول حينما تفسر آية من كتاب الله بكلام من عندك : (يقول الله تعالى كذا) وعلى هذه القاعدة حكى الله تعالى عن موسى وفرعون وغيرهما مضمون كلامهم بألفاظ غير ألفاظهم وأسلوب غير أسلوبهم ونسب ذلك إليهم .

فإن زعمت أنه لو لم يكن في الحديث القدسي شيء آخر مقدس وراء المعنى لصح لنا أن نسمي بعض الحديث النبوي قدسياً أيضاً ، لوجود هذا المعنى فيه ، فجوابه أننا لما قطعنا في الحديث القدسي بنزول معناه لورود النص الشرعي على نسبته إلى الله ، بقوله ﷺ (قال الله تعالى كذا) سميناه قدسياً لذلك بخلاف الأحاديث النبوية فإنها لما لم يرد فيها مثل هذا النص جاز في كل واحد منها أن يكون مضمونه معلماً بالوحي وأن يكون مستنبطاً بالاجتهاد والرأي ، فسُمِّيَ الكل نبوياً وقوفاً بالتسمية عند الحد المقطوع به ، ولو كَانت لدينا علامة تميز لنا قسم الوحي لسميناه قدسياً كذلك .

على أن هذا الامتياز لا يؤدي إلى نتيجة عملية ، فسواء علينا عند العمل بالحديث أن يكون من هذا القسم أو من ذاك ، إذ النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم في تبليغه صادق مأمون ، وفي اجتهاده فَطِن مُوَفَّق ، وروح القدس يؤيده فلا يقره على خطأ إن أخطأ في أمر من أمور الشريعة . فكان مَرَدّ الأمر في الحقيقة إلى الوحي في كلتا الحالتين ، إما بالتعليم ابتداء وإما بالإقرار أو النسخ انتهاء ، ولذلك وجب أن نتلقى كل سنته بالقبول ﴿ **وما آتاكُم الرسولُ فَخُذُوهُ**

وما نَهَاكُمْ عنه فَانتَهُوا ﴾ [سورة الحشر الآية : ٧] .

﴿ وما كان لمؤمنٍ ولا مؤمنةٍ إذا قَضَىٰ اللهُ ورسولُهُ أمراً أن يكونَ لَهُمُ الخِيَرَةُ مِن أمرِهِم ﴾ [سورة الأحزاب الآية : ٣٦] .

* * *

البحث الثاني
في بيان مصدر القرآن
وإثبات أنه من عند الله بلفظه ومعناه

[تحديد الدعوى أخذاً من النصوص القرآنية]

لقد علم الناس أجمعون علماً لا يخالطه شك أن هذا الكتاب العزيز جاء على لسان رجل عربي أمي ولد بمكة في القرن السادس الميلادي ، اسمه محمد ابن عبد الله بن عبد المطلب ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله .. هذا القدر لا خلاف فيه بين مؤمن وملحد ، لأن شهادة التاريخ المتواتر به لا يماثلها ولا يدانيها شهادته لكتاب غيره ولا لحادث غيره ظهر على وجه الأرض .

أما بعد ، فمن أين جاء به محمد بن عبد الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ؟ أمن عند نفسه ومن وحي ضميره ، أم من عند معلم ؟ ومن هو ذلك المعلم ؟

نقرأ في هذا الكتاب ذاته أنه ليس من عمل صاحبه ، وإنما هو قول رسول كريم ، ذي قوة عند ذي العرش مكين ، مطاع ثم أمين : ذلكم هو جبريل عليه السلام ، تلقاه من لدن حكيم عليم ، ثم نزله بلسان عربي مبين على قلب محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، فتلقنه محمد منه كما يتلقن التلميذ عن أستاذه نصاً من النصوص ، ولم يكن له فيه من عمل بعد ذلك إلا :

(١) ***الوعي والحفظ ، ثم***

(٢) ***الحكاية والتبليغ ، ثم***

(٣) ***البيان والتفسير ، ثم***

(٤) ***التطبيق والتنفيذ .***

أما ابتكار معانيه وصياغة مبانيه فما هو منها بسبيل ، وليس له من أمرهما شيء ، إن هو إلا وحي يوحى .

هكذا سماه القرآن حيث يقول : ﴿ **وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لولا اجْتَبَيْتَهَا، قُلْ إِنَّما أَتبعُ ما يُوحَىٰ إِلَيّ مِن ربي** ﴾ [سورة الأعراف الآية : ٢٠٣] ويقول : ﴿ **قُلْ ما يكونُ لي أَن أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقاءِ نفسي، إن أَتبعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ** ﴾ [سورة يونس الآية : ١٥] وأمثال هذه النصوص كثير في شأن إيحاء المعاني ثم يقول في شأن الإيحاء اللفظي : ﴿ **إِنَّا أنزلناهُ قرآناً عربياً** ﴾ [سورة يوسف الآية : ٢] ﴿ **سنُقْرِئُكَ فلا تنسىٰ** ﴾ [سورة الأعلى الآية : ٦] ﴿ **لا تُحرِكْ بِهِ لِسانَكَ لِتعجلَ بِه * إنَّ علينا جَمْعَهُ وقُرآنَه * فإذا قَرأناهُ فاتَّبِع قُرآنه * ثم إِنَّ عَلينا بَيانه** ﴾[1] [سورة القيامة الآيات : ١٦ - ١٩] ﴿ **اقْرأ** ﴾ [أول سورة العلق] ﴿ **واتْلُ** ﴾ [سورة الكهف الآية : ٢٧] ﴿ **وَرَتِّل** ﴾ [سورة المزمل الآية : ٤] فانظر كيف عبر بالقراءة والإقراء ، والتلاوة والترتيل ، وتحريك اللسان ، وكون الكلام عربياً ، وكل أولئك من عوارض الألفاظ لا المعاني البحتة .

القرآن إذاً صريح في أنه ***(لا صنعة فيه لمحمد ﷺ ، ولا لأحد من الخلق ، وإنما هو منزل من عند الله بلفظه ومعناه)*** .

والعجب أن يبقى بعض الناس في حاجة إلى الاستدلال على الشطر الأول من هذه المسألة ، وهو أنه ليس من عند محمد .

---

(١) عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ **لا تحرك به لسانك لتعجل به** ﴾ . قال :
« كان رسول الله ﷺ إذا نزل جبريل عليه بالوحي ، وكان مما يحرك به لسانه وشفتيه فيشتد عليه ، وكان يُعرف منه ، فأنزل الله الآية التي في ﴿ لا أقسم بيوم القيامة ﴾ : ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به * إن علينا جمعه وقرآنه ﴾ قال : علينا أن نجمعه في صدرك وقرآنه ﴿ فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ﴾ : فإذا أنزلناه فاستمع ، ﴿ ثم إن علينا بيانه ﴾ علينا أن نبينه بلسانك ، قال : فكان إذا أتاه جبريل أطرق فإذا ذهب قرأه كما وعده الله » .
متفق عليه : رواه البخاري في التفسير ٤٩٢٩ واللفظ له ، ومسلم في الصلاة ١٤٧ =

[تبرؤ محمد ﷺ من نسبة القرآن إليه ليس إدعاءً يحتاج بينة بل هو إقرار يؤخذ به صاحبه]

في الحق أن هذه القضية لو وجدت قاضياً يقضي بالعدل لاكتفى بسماع هذه الشهادة التي جاءت بلسان صاحبها على نفسه ، ولم يطلب وراءها شهادة شاهد آخر من العقل أو النقل ، ذلك أنها ليست من جنس (الدعاوى) فتحتاج إلى بينة ، وإنما هي من نوع (الإقرار) الذي يؤخذ به صاحبه ، ولا يتوقف صديق ولا عدو في قبوله منه ، أي مصلحة للعاقل الذي يدعي لنفسه حق

= وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره ٨ / ٣٠٣ :

هذا تعليم من الله عز وجل لرسوله ﷺ في كيفية تلقيه الوحي من المَلَك ، فإنه كان يبادر إلى أخذه ويسابق الملك في قراءته ، فأمره الله عز وجل إذا جاءه الملك بالوحي أن يستمع له ، وتكفل له أن يجمعه في صدره ، وأن ييسره لأدائه على الوجه الذي ألقاه إليه ، وأن يبينه له ويفسره ويوضحه :

فالحالة الأولى : جمعه في صدره .

والثانية : تلاوتـه .

والثالثة : تفسيره ، وإيضاح معناه .

ولهذا قال ﴿ **لا تحرك به لسانك لتعجل به** ﴾ أي بالقرآن ... ثم قال ﴿ **إن علينا جمعه** ﴾ أي في صدرك ، و ﴿ **قرآنه** ﴾ أي أن تقرأه ، ﴿ **فإذا قرأناه** ﴾ أي إذا تَلاه عليك الملك عن الله عز وجل ﴿ **فاتبع قرآنه** ﴾ أي فاستمع له ثم اقرأه كما أَقْرَأَك ، ﴿ **ثم إن علينا بيانه** ﴾ أي بعد حفظه وتلاوته نبينه لك ونوضحه ، ونلهمك معناه على ما أردنا وشرعنا أهـ .

وقال العلامة الطاهر بن عاشور في تفسيره لهذه الآية ٢٩ / ٣٥٠ :

والذي يلوح لي في موقع هذه الآية هنا دون أن تقع فيما سبق نزوله من السور قبل هذه السورة : أن سور القرآن حين كانت قليلة ، كان النبي ﷺ لا يخشى تفلت بعض الآيات عنه فلما كثرت السور فبلغت زهاء ثلاثين - حسب ما عده سعيد بن جبير في ترتيب نزول السور - صار النبي ﷺ يخشى أن ينسى بعض آياتها ، فلعله ﷺ أخذ يحرك لسانه بألفاظ القرآن عند نزوله احتياطاً لحفظه ، وذلك من حرصه على تبليغ ما أنزل الله بنصه ، فلما تكفل الله بحفظه ، أمره أن لا يكلف نفسه تحريك لسانه ، فالنهي عن تحريك لسانه نهي رحمة وشفقة لما كان يلاقيه في ذلك من الشدة أ هـ .

الزعامة ويتحدى الناس بالأعاجيب والمعجزات لتأييد تلك الزعامة ، نقول أي مصلحة له في أن ينسب بضاعته لغيره ، وينسلخ منها انسلاخاً ؟ على حين أنه كَان يستطيع أن ينتحلها فيزداد بها رفعة وفخامة شأن ، ولو انتحلها لما وجد من البشر أحداً يعارضه ويزعمها لنفسه .

الذي نعرفه أن كثيراً من الأدباء يسطون على آثار غيرهم فيسرقونها أو يسرقون منها ما خف حمله وغلت قيمته وأُمِنَت تهمته ، حتى أن منهم من ينبش قبور الموتى ويلبس من أكفانهم ويخرج على قومه في زينة من تلك الأثواب المستعارة . أما أن أحداً ينسب لغيره أنفس آثار عقله وأغلى ما تجود به قريحته فهذا ما لم يلده الدهر بعد .

[نسبة محمد ﷺ القرآن إلى الله لا تكون احتيالاً منه لبسط نفوذه ، وإلا لِمَ لَمْ ينسب أقواله كلها إلى الله]

ولو أننا افترضناه افتراضاً لما عرفنا له تعليلاً معقولاً ولا شبه معقول اللهم إلا شيئاً واحداً قد يحيك في صدر الجاهل ، وهو أن يكون هذا الزعيم قد رأى أن في (نسبته القرآن إلى الوحي الإلهي) ما يعينه على استصلاح الناس باستيجاب طاعته عليهم ونفاذ أمره فيهم ، لأن تلك النسبة تجعل لقوله من الحرمة والتعظيم ما لا يكون له لو نسبه إلى نفسه .

وهذا قياس فاسد في ذاته ، فاسد في أساسه .

أما أنه فاسد في ذاته فلأن صاحب هذا القرآن قد صدر عنه الكلام المنسوب إلى نفسه والكلام المنسوب إلى الله تعالى فلم تكن نسبته ما نسبه إلى نفسه بناقصةٍ من لزوم طاعته شيئاً ، ولا نسبة ما نسبه إلى ربه بزائدةٍ فيها شيئاً ، بل استوجب على الناس طاعته فيهما على السواء[1] فكانت حرمتهما في النفوس

---

(١) قال الإمام الشافعي في كتابه (الرسالة) ص ٨٢ :
باب : ما أمر الله من طاعة رسول الله : ....=

على سواء ، وكانت طاعته من طاعة الله ، ومعصيته من معصية الله فهلا جعل كل أقواله من كلام الله تعالى لو كان الأمر كما يهجس به ذلك الوهم .

وأما فساد هذا القياس من أساسه فلأنه مبني على افتراض باطل ، وهو تجويز أن يكون هذا الزعيم من أولئك الذين لا يأبون في الوصول إلى غاية إصلاحية أن يعبروا إليها على قنطرة من الكذب والتمويه وذلك أمر يأباه علينا الواقع التاريخي كل الإباء ، فإن من تتبع سيرته الشريفه في حركاته وسكناته ، وعباراته وإشاراته ، في رضاه وغضبه ، في خلوته وجلوته[1] لا يشك في أنه كان أبعد الناس عن المداجاة والمواربة[2] ، وأن سره وعلانيته كانا سواء في دقة الصدق وصراحة الحق في جليل الشئون وحقيرها ، وأن ذلك كان أخص شمائله وأظهر

= قال الله جل ثناؤه ﴿ **إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ، يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكثُ على نفسِهِ ومن أوفى بما عاهد عليهُ اللهَ فسيؤتيه أجراً عظيماً** ﴾ [سورة الفتح الآية : ١٠] وقال ﴿ **من يُطع الرسولَ فقد أطاعَ الله** ﴾ [سورة النساء الآية : ٨٠] . فأعلَمهم أن بيعتهم رسوله بيعته ، وكذلك أعلَمهم أن طاعتهم طاعته أهـ .

- **قلت** : وكذلك في ثنايا القرآن كله تجد آيات واضحة وصريحة في وجوب طاعة الرسول ﷺ مثل :

﴿ **وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا** ﴾ [سورة الحشر الآية : ٧] ، ﴿ **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم** ﴾ [سورة آل عمران الآية : ٣١] ، ﴿ **وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخِيَرَةُ من أمرهم ومن يعصِ اللهَ ورسولَهُ فقد ضل ضلالاً مبيناً** ﴾ [سورة الأحزاب الآية : ٣٦] ، ﴿ **وأطيعوا الله والرسول لعلكم تُرْحَمون** ﴾ [سورة آل عمران الآية : ١٣٢] ، بل أوجب الله تعالى على المؤمنين أن ينزلوا على حكم الرسول ﷺ في كل خلاف وأن لا يكون في صدورهم أي حرج أو اعتراض على ما يقضيه الرسول ، وهذا من لوازم الإيمان فقال تعالى ﴿ **فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شَجَرَ بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويُسَلِّمُوا تسليماً** ﴾ [سورة النساء الآية : ٦٥] .

(١) جلوته : ظهوره وعلانيته .

(٢) المداجاة والمواربة : المداراة والمداهنة وستر العداوة .

صفاته قبل النبوة وبعدها[1] كما شهد ويشهد به أصدقاؤه ....

---

(١) ولو كان محمد بن عبد الله قد عُرِف عنه كذبة واحدة في حياته لما شهد أعداؤه بما يلي :

(أ) النضر بن الحارث (وكان من شياطين قريش ومن أشدهم على رسول الله ﷺ) : « **يا معشر قريش ، إنه والله قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلةٍ بعدُ ، قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً : أرضاكم فيكم ، وأصدقكم حديثاً ، وأعظمكم أمانة ، حتى إذا رأيتم في صُدغيه [الصُدغ : ما بين العين والأذن من الشعر] الشيب ، وجاءكم بما جاءكم به قلتم ساحر .. كاهن .. شاعر .... مجنون ... لا والله ... يا معشر قريش ، فانظروا في شأنكم فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم** » . السيرة النبوية : ابن هشام ٣٢٧/١ - ٣٢٨ .

(ب) عتبة بن ربيعة (مخاطباً قريش بعد أن اتهمته بالميل إلى رسول الله ﷺ) : « **إني أتيته [أي النبي] ... فأجابني بشيء والله ما هو بسحر ولا بشعر ولا كهانة ، قرأ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم . حم * تنزيل من الرحمن الرحيم ﴾ حتى بلغ ﴿ فإن أعرضوا فقل أنذرتُكم صاعقةً مثلَ صاعقةِ عادٍ وثمود ﴾ فأمسكت بفيه [أي بفم النبي ﷺ] وناشدته الرحم أن يكف ، وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب ، فخفت أن ينزل عليكم العذاب** » . هذا السياق عزاه السيوطي في الدر المنثور ٦٧٣/٥ للبيهقي في الدلائل وابن عساكر .

(ج) أبو جهل عمرو بن هشام :

عن أبي ميسرة قال : « **مر رسول الله ﷺ على أبي جهل فقال : والله يا محمد ما نكذبك ، إنك عندنا لمُصَدَّق ، ولكننا نكذب بالذي جئت به ، فأنزل الله ﴿ فإنهم لا يُكَذِّبونك ولكِنَّ الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾** [سورة الأنعام الآية : ٣٣] » . هذا اللفظ عزاه السيوطي في الدر المنثور ٣ / ١٨ لعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه ، وقد رواه الترمذي عن علي ٣٠٦٤ بنحوه .

(د) أبو جهل عمرو بن هشام :

« **لما كان يوم بدر ، التقى الأخنس وأبو جهل ، فخلا الأخنس بأبي جهل ، فقال : يا أبا الحكم، أخبرني عن محمد أصادق هو أم كاذب ؟ فإنه ليس ههنا من قريش أحد غيري وغيرك يسمع كلامنا ، فقال أبو جهل : ويحك ، والله إن محمداً لصادق ، وما كذب محمد قط ، ولكن إذا ذهب بنو قصيّ باللواء والحجابة والسقاية والنبوة . فماذا يكون لسائر قريش ؟** » . رواه الطبري بإسناده إلى السدي ١٨١/٧ ، ١٨٢ .

(هـ) ولو كان محمد بن عبد الله قد عُرِف عنه كذبة واحدة في حياته لما جرؤ أنه ينادي على الصفا : « **يا بني فهر ، يا بني عدي - لبطون قريش - حتى اجتمعوا** ، =

وأعداؤه[1] إلى يومنا هذا ﴿ **قُلْ لَو شاءَ اللهُ ما تَلَوْتُهُ عليكم ولا أَدْراكُم بِهِ فقد لبثتُ فيكم عُمُراً من قبلِهِ أفلا تَعقِلُونَ** ﴾ [سورة يونس الآية : ١٦] .

* * *

[نماذج من سيرته ﷺ إزاء القرآن]

وكأني بك ها هنا تحب أن أقدم لك من سيرته المطهرة مُثُلاً واضحة الدلالة على مبلغ صدقه وأمانته في دعوى الوحي الذي نحن بصدده ، وأنه لم يكن ليأتي بشيء من القرآن من تلقاء نفسه ، فإليك طرفاً من ذلك :

١ - [فترة الوحي في حادث الإفك] :

لقد كانت تنزل به نوازل من شأنها أن تحفزه إلى القول ، وكانت حاجته القصوى تلح عليه أن يتكلم بحيث لو كان الأمر إليه لوجد له مقالاً ومجالاً ، ولكنه كانت تمضي الليالي والأيام تتبعها الليالي والأيام ولا يجد في شأنها قرآناً يقرؤه على الناس .

ألم يرجف المنافقون بحديث الإفك عن زوجه عائشة رضي الله عنها وأبطأ الوحي ، وطال الأمر والناس يخوضون ، حتى بلغت القلوب الحناجر وهو لا يستطيع إلا أن يقول بكل تحفظ واحتراس : « **إني لا أعلم عنها إلا خيراً** » ثم إنه بعد أن بذل جهده في التحري والسؤال واستشارة الأصحاب ، ومضى

= **فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو ، .. فقال : أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تُغير عليكم ، أكنتم مصدقيّ ، قالوا : نعم ما جربنا عليك إلا صدقاً ...** » . رواه البخاري في التفسير ٤٧٧٠ .

(١) اقرأ مثلاً ما كتبه توماس كارليل الإنجليزي في كتاب الأبطال ، وما كتبه الكونت هنري دي كاستري الفرنسي في خواطره وسوانحه عن الإسلام ، ثم اقرأ شهادة قريش التي =

= سجلها أبو سفيان وهو في الجاهلية بين يدي هرقل عظيم الروم لما سألهم هرقل : « **هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قاله ؟ قال : لا . وسألهم : هل يغدر ؟ قال : لا** » أخرجه الشيخان . [**دراز**] .

– **قلت** : حديث هرقل رواه البخاري في بدء الوحي ٦ ، ٧ ، ورواه مسلم في الجهاد والسير ٧٤ ، ولأهمية حديث هرقل رأيت أن أذكره بطوله هنا لمناسبته الكلام . روى البخاري بسنده إلى عبد الله بن عباس : « **أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش ، وكانوا تجاراً بالشام في المدة [أي صلح الحديبية] التي كان رسول الله ﷺ مادَّ فيها أبا سفيان وكفار قريش ، فأتوه وهو بإيلياء [أي بيت المقدس] . فدعاهم في مجلسه وحوله عظماء الروم ، ثم دعاهم ودعا بترجمانه ، فقال : أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي ؟ فقال أبو سفيان : فقلت : أنا أقربهم نسباً . [أي لأنه من بني عبد مناف ، الأب الرابع للنبي ﷺ] . فقال : أدنوه مني وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره . ثم قال لترجمانه : قل لهم إني سائل هذا الرجل ، فإن كذبني فكذبوه [وقد فعل ذلك هرقل حتى لا يستحي قومه أن يواجهوه بالتكذيب إن كذب . وكان أبو سفيان يقول بعد ذلك : فوالله لو قد كذبت ما ردوا عليّ ، ولكني كنت امرءاً سيداً أتكرم عن الكذب ، وعلمت أن أيسر ما في ذلك إن أنا كذبته أن يحفظوا ذلك عني ثم يتحدثوا به ، فلم أكذبه] . فوالله لولا الحياء من أن يأثروا عليّ كذباً لكذبت عنه . ثم كان أول ما سألني عنه أن قال :**

كيف نسبه فيكم ؟

قلت : هو فينا ذو نسب .

قال : فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله ؟

قلت : لا .

قال : فهل كان من آبائه من ملك ؟

قلت : لا .

قال : فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟

قلت : بل ضعفاؤهم .

قال : أيزيدون أم ينقصون ؟

قلت : بل يزيدون .

قال : فهل يرتد أحد منهم سخطةً [أي كُرهاً وبُغضاً] لدينه بعد أن يدخل فيه ؟

= قلت : لا .
قال : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟
قلت : لا .
قال : فهل يغدر ؟
قلت : لا ، ونحن في مدة [أي هدنة] لا ندري ما هو فاعل فيها . قال [أي أبو سفيان] : ولم تمكني كلمة أُدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة [لأنها بخصوص المستقبل الغائب].
قال : فهل قاتلتموه ؟
قلت : نعم .
قال : فكيف كان قتالكم إياه ؟
قلت : الحرب بيننا وبينه سِجال ، ينال منا وننال منه .
قال : ماذا يأمركم ؟
قلت : يقول اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً ، واتركوا ما يقول آباؤكم،ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة .
فقال [أي هرقل] للترجمان : قل له [أي لأبي سفيان] :
* سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب ، فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها .
* وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول ؟ فذكرت أن لا ، فقلت : لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يأتسي [أي يقتدي] بقولٍ قيل قبله .
* وسألتك هل كان من آبائه من ملك ؟ فذكرت أن لا ، قلت : فلو كان من آبائه من ملك قلت : رجل يطلب مُلك أبيه .
* وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ فذكرت أن لا ، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر [أي يترك] الكذب على الناس ويكذب على الله .
* وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟ فذكرت أن ضعفاؤهم اتبعوه ، وهم أتباع الرسل .
* وسألتك أيزيدون أم ينقصون ؟ فذكرت أنهم يزيدون ، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم .
* وسألتك أيرتد أحد سخطةً لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ فذكرت أن لا ، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب [أي تنشرح القلوب له] . ... =

شهر بأكمله والكل يقولون ما علمنا عليها من سوء ، لم يزد على أن قال لها آخر الأمر : « **يا عائشة ، أما إنه بلغني كذا وكذا ، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله ، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله** » .

هذا كلامه بوحي ضميره ، وهو كما ترى كلام البشر الذي لا يعلم الغيب ، وكلام الصدّيق المتثبت الذي لا يتبع الظن ولا يقول ما ليس له به علم . على أنه لم يغادر مكانه بعد أن قال هذه الكلمات حتى نزل صدر سورة النور معلناً براءتها ، ومصدراً الحكم المبرم بشرفها وطهارتها . الحديث أخرجه

= * وسألتك هل يغدر ؟ فذكرت أن لا ، وكذلك الرسل لا تغدر .

* وسألتك بما يأمركم ؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وينهاكم عن عبادة الأوثان ، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف ، فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمَيَّ هاتين . وقد كنت أعلم أنه خارج لم أكن أظن أنه منكم [أي من العرب] فلو أَني أعلم أني أخلص [أي أَصِلُ] إليه لتجشمت [أي تكلفت] لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه [أي مبالغة في العبودية له والخدمة] .

ثم دعا [أي هرقل] بكتاب رسول الله الذي بعث به دحية [صحابي جليل أرسله الرسول ﷺ بكتابه إلى هرقل] إلى عظيم بصرى ، فدفعه إلى هرقل ، فقرأه ، فإذا فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم . سلام على من اتبع الهدى . أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلِم تسْلَمْ ، أسلِم يؤتك الله أجرك مرتين . فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين و ﴿ يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾ [الأريسيين : هم الأتباع والضعفاء] .

قال أبو سفيان : فلما قال ما قال ، وفرغ من قراءة الكتاب ، كثر عنده الصخب ، وارتفعت الأصوات ، وأخرجنا . فقلت لأصحابي حين أُخرِجنا : لقد أَمِرَ أمرُ ابن أبي كبشة [أي ظهر أمر محمد ﷺ] ، إنه يخافه ملكُ بني الأصفر [أي الروم] . فما زلت موقناً أنه سيظهر حتى أدخل اللهُ عليّ الإسلام » .

الشيخان[1] وغيرهما .

فماذا كان يمنعه – لو أن أمر القرآن إليه – أن يتقول هذه الكلمة الحاسمة من قبل ليحمي بها عرضه ويذب بها عن عرينه وينسبها إلى الوحي السماوي لتنقطع ألسنة المتخرصين ؟ ولكنه ما كان لِيَذَرَ الكذب على الناس ويكذب على الله ﴿ **ولو تقوَّلَ علينا بعضَ الأقاويلِ * لأخذْنا مِنه باليمين * ثم لقَطَعْنا مِنه الوَتِينَ * فَمَا مِنكُم مِن أَحَدٍ عَنهُ حاجِزِينَ** ﴾[2] [سورة الحاقة الآيات : ٤٤ – ٤٧] .

٢ – [مخالفة القرآن لطبع الرسول ، وعتابه الشديد له في المسائل المباحة] :

وأخرى كان يجيئه القول فيها على غير ما يحبه ويهواه . فيُخَطِّئه في الرأي

---

(١) حديث الإفك متفق عليه : رواه البخاري في التفسير ٤٧٥٠ وغيره ، ومسلم في التوبة ٥٦ .

(٢) قال الزمخشري في الكشاف ٤ / ٦٠٧ : التقول : افتعال القول ، كأن فيه تكلفاً من المُفتعِل. وسمى الأقوال المتقولة ﴿ **أقاويل** ﴾ تصغيراً بها وتحقيراً ، كقولك الأعاجيب والأضاحيك ... والمعنى : ولو ادعى علينا شيئاً لم نقله لقتلناه صبراً [الصبر هو نصب الإنسان للقتل] ، كما يفعل الملوك بمن يتكذب عليهم معاجلةً بالسخط والانتقام ، فَصَوَّر قتل الصبر بصورته ليكون أهول : وهو أن يؤخذ بيده وتضرب رقبته ، وخص اليمين عن اليسار لأن القتَّال إذا أراد أن يوقع الضرب في قفاه أخذ بيساره ، وإذا أراد أن يوقعه في جيده وأن يكفحه بالسيف [أي يضربه مواجهةً] – وهو أشد على المصبور لنظره إلى السيف – أخذ بيمينه . ومعنى ﴿ **لأخذنا منه باليمين** ﴾ : لأخذنا بيمينه ، كما أن قوله ﴿ **لقطعنا منه الوتين** ﴾ : لقطعنا وتينه ، وهذا بَيِّن . و ﴿ **الوتين** ﴾ نياط القلب وهو حبل الوريد إذا قطع مات صاحبه أ هـ .

وقال صاحب التحرير والتنوير ٢٩ / ١٤٤ وما بعدها :

هذه الجملة استدلال على أن القرآن منزل من عند الله تعالى ، وهو استدلال بما هو مقرر في الأذهان من أن الله واسع المقدرة ، وأنه عليم فلا يُقِرْ أحداً على أن يقول عنه كلاماً لم يقله . أي لو لم يكن القرآن مُنزلاً من عندنا ، ومحمد ادعى أنه منزل منا ، لما أقررناه على ذلك ولعجلنا بإهلاكه . فعدم هلاكه ﷺ دال على أنه لم يتقوله على الله . ومعنى ﴿ **لأخذنا منه باليمين** ﴾ : لأخذناه بقوة أي دون إمهال . والمعنى : لأخذناه أخذاً عاجلاً فقطعنا وتينه . وفي هذا تهويل لصورة الأخذ ، والوتين عرق معلق به القلب وهو الذي يسقي الجسد بالدم ولذلك يقال له نهر الجسد . وهو يُقطع عند نحر الجزور ، فشبه عقاب من يتقول على الله بجزور تُنحرُ فيُقطع وتينها أ هـ [باختصار] .

يراه . ويأذن له في الشيء لا يميل إليه . فإذا تلبث فيه يسيراً تلقّاه القرآن بالتعنيف الشديد ، والعتاب القاسي ، والنقد المر ، حتى في أقل الأشياء خطراً : ﴿ **يأيُّها النبيُّ لِمَ تُحرِّمُ ما أَحَلَّ اللهُ لك تبتغي مَرضاة أزواجك** ﴾[1] [سورة التحريم الآية : ١] ﴿ **وتُخفي في نفسِكَ مَا اللهُ مُبديه وتخشى الناسَ واللهُ أَحَقُ أن تخشاه** ﴾[2] [سورة الأحزاب الآية : ٣٧] ﴿ **عَفَا اللهُ عنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُم حتى يتبينَ لك الذينَ صَدَقوا وتَعْلَمَ الكاذبينَ** ﴾[3] [سورة التوبة الآية : ٤٣] ﴿ **ما كانَ**

---

(١) سبب نزول هذه الآية حادثتان :
أ - عن عائشة رضي الله عنها قالت : « **كان رسول الله ﷺ يشرب عسلاً عند زينب ابنة جحش ويمكث عندها ، فواطأت أنا وحفصة عن أيتنا دخل عليها فلتقل له : أكلتَ مغافير ؟ إني أجد منك ريح مغافير [صمغ حلو الطعم ، كريه الرائحة] ، قال : لا ، ولكني كنت أشرب عسلاً عند زينب ابنة جحش فلن أعود له ، وقد حلفت ، لا تخبري بذلك أحداً** » . رواه البخاري في كتاب التفسير ٤٩١٢ وغيره .
ب - عن أنس رضي الله عنه : « **أن النبي ﷺ كانت له أَمَةٌ يطؤها ، فلم تزل به حفصة وعائشة حتى حَرَّمَها [أي على نفسه] فأنزل الله تعالى هذه الآية** » . رواه النسائي في سننه ٧ / ٧١ وصحح الحافظ ابن حجر إسناده [فتح الباري ٩ / ٢٨٨] وذكر الحافظ ابن كثير لهذا الحديث عدة طرق جزم بصحة بعضها في تفسيره ٨ / ١٨٥ ، ١٨٦ .

(٢) قال السدي : « **بلغنا أن هذه الآية نزلت في زينب بنت جحش ، وكانت أمها أميمة بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ ، وكان رسول الله ﷺ أراد أن يزوجها زيد بن حارثة مولاه ، فكرهت ذلك ، ثم إنها رضيت بما صنع رسول الله ﷺ فزوجها إياه . ثم أَعْلَم الله عز وجل نبيه ﷺ بعدُ أنها من أزواجه فكان يستحي أن يأمر بطلاقها ، وكان لا يزال يكون بين زيد وزينب ما يكون من الناس [أي من الخلاف والنزاع] فأمره رسول الله ﷺ أن يُمسك عليه زوجه وأن يتقي الله ، وكان [أي رسول الله ﷺ] يخشى الناس أن يعيبوا عليه ويقولوا تزوج امرأة ابنه وكان قد تبنى زيداً** » .
رواه ابن أبي حاتم : فتح الباري ٨/٣٨٤ ، الدر المنثور ٥/٣٨٤ ، تفسير ابن كثير ٦/٤٢٠ .

(٣) نزلت هذه الآية حين استأذن فريق من المنافقين النبي ﷺ أن يتخلفوا عن الغزوة [غزوة تبوك] ... واعتذروا بأعذارٍ كاذبة ، وأذن النبي ﷺ لمن استأذنه حملاً للناس على الصدق ، إذ كان ظاهر حالهم الإيمان وعلماً بأن المعتذرين إذا ألجئوا إلى الخروج لا يغنون شيئاً ... فعاتب الله نبيه ﷺ في أن أذن لهم ، لأنه لو لم يأذن لهم لقعدوا ، فيكون ذلك دليلاً للنبي ﷺ =

للنبي والذينَ آمنوا أن يَستَغفِرُوا للمشركين ولو كانوا أُولي قُرْبَىٰ من بعدِ ما تبينَ لَهُم أَنَّهُم أصحابُ الجحيمِ ﴾[1] [سورة التوبة الآية ١١٣] ﴿ ما كانَ لِنَبِيٍّ أن يكون له أَسْرَىٰ حتى يُثخِنَ في الأرضِ تُريدون عَرَضَ الدُّنيا واللهُ يُريدُ الآخرةَ واللهُ عزيزٌ حكيم * لولا كِتابٌ من اللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُم فيما أَخذْتُم عذابٌ عظيم ﴾[2] [سورة الأنفال الآيتان : ٦٧ ، ٦٨] ﴿ أَمَّا مَن استَغنَىٰ * فَأنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ * وما عليك ألا يَزَّكَّىٰ * وأَمَّا مَن جاءك يَسعَىٰ * وهو يَخشَىٰ فأَنتَ

= على نفاقهم وكذبهم في دعوى الإيمان كما قال الله تعالى ﴿ ولو نشاءُ لأَريناكَهُمْ فلَعرِفتهُم بسيماهُم ﴾ [سورة محمد ، الآية : ٣٠] ... وافتتاح العتاب بالإعلام بالعفو إكرام عظيم ولطافة شريفة ، فأخبره بالعفو قبل أن يباشره بالعتاب ، وفي هذا الافتتاح كناية عن خفة موجب العتاب لأنه بمنزلة أن يقال : ما كان ينبغي ..

(تفسير التحرير والتنوير ١٠/ ٢١٠ باختصار يسير) .

(١) سبب نزول الآية هو ما رواه سعيد بن المسيب عن أبيه أنه أخبره : « **أنه لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل بن هشام وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة ، قال رسول الله ﷺ لأبي طالب . يا عم ، قل لا إله إلا الله ، كلمة أشهد لك بها عند الله ، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية : يا أبا طالب ، أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ، ويعودان بتلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم : هو [يعني نفسه] على ملة عبد المطلب ، وأبى أن يقول لا إله إلا الله ، فقال رسول الله ﷺ : أما والله لأستغفرن لك مالم أُنْهَ عنك ، فأنزل الله تعالى فيه : ﴿ ما كانَ للنبيِّ ﴾ الآية** » .

متفق عليه : رواه البخاري في الجنائز ١٣٦٠ ، ومسلم في الإيمان ٣٩ .

(٢) عن أنس رضي الله عنه : « **استشار رسول الله ﷺ الناس في الأسارى يوم بدر ، فقال : إن الله عز وجل قد أمكنكم منهم ، فقام عمر بن الخطاب فقال : يا رسول الله اضرب أعناقهم ، فأعرض عنه النبي ﷺ ، ثم عاد رسول الله ﷺ فقال : يأيها الناس ، إن الله قد أمكنكم منهم وإنما هم إخوانكم بالأمس . فقام عمر فقال : يا رسول الله اضرب أعناقهم ، فأعرض عنه النبي ﷺ ، ثم عاد النبي ﷺ فقال للناس مثل ذلك ، فقام أبو بكر فقال : يا رسول الله نرى أن تعفو عنهم وأن تقبل منهم الفداء . فعفا عنهم وقَبِلَ منهم الفداء . وأنزل الله عز وجل ﴿ لولا كتابٌ مِن اللهِ سَبَقَ ﴾ الآية** » .

رواه أحمد ٣ / ٢٤٣ . =

عَنهُ تَلَهَّىٰ﴾(1) [سورة عبس الآيات : ٥ - ١٠] .

أرأيت لو كانت هذه التقريعات المؤلمة صادرة عن وجدانه ، معبرة عن ندمه ووخز ضميره حين بدا له خلاف ما فرط من رأيه . أكان يعلنها عن نفسه بهذا التهويل والتشنيع ؟ ألم يكن له في السكوت عنها ستر على نفسه ، واستبقاء لحرمة آرائه ؟ بلى إن هذا القرآن لو كان يفيض عن وجدانه لكان يستطيع عند الحاجة أن يكتم شيئاً من ذلك الوجدان . ولو كان كاتماً شيئاً لكتم أمثال هذه الآيات . ولكنه الوحي لا يستطيع كتمانه ﴿ **وَمَا هُوَ عَلَى الغيبِ بضنِينٍ** ﴾ [سورة التكوير الآية : ٢٤] .

[استدلال من علم النفس على انفصال شخصية الوحي عن شخصية الرسول ﷺ]

وتأمل آية الأنفال المذكورة ، تجد فيها ظاهرة عجيبة ؛ فإنها لم تنزل إلا

= وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ **لولا كتابٌ مِن اللهِ سَبَقَ ...** ﴾ يعني غنائم بدر قبل أن يحلها لهم ، يقول [أي الله عز وجل] لولا أني لا أعذب من عصاني حتى أتقدم [أي أنذره] إليه لمسكم عذاب عظيم . الدر المنثور للسيوطي ٣ / ٣٦٧ وعزاه للطبري وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وغيرهم .

(١) عن عائشة رضي الله عنها : « **أنزل ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴾ في ابن أم مكتوم الأعمى ، أتى رسول الله ﷺ فجعل يقول : يا رسول الله أرشدني ، وعند رسول الله ﷺ رجل من عظماء المشركين ، فجعل رسول الله ﷺ يعرض عنه [أي عن ابن أم مكتوم] ويقبل على الآخر ويقول : أترى بما أقول بأساً ، فيقول : لا . ففي هذا أنزل** » رواه الترمذي في التفسير ٣٣٣١ ، وصحح الألباني إسناده في صحيح الترمذي ٢٦٥١ .

وفي هذه الآية يقول الحافظ ابن كثير في تفسيره ٨ / ٣٤٢ : ومن ها هنا أمر الله عز وجل رسوله ﷺ أن لا يخص بالإنذار أحداً ، بل يساوي فيه بين الشريف والضعيف ، والفقير والغني ، والسادة والعبيد ، والرجال والنساء ، والصغار والكبار ، ثم الله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة .

بعد إطلاق أسارى بدر وقبول الفداء منهم ، وقد بُدِئَت بالتخطئة والاستنكار لهذه الفعلة ، ثم لم تلبث أن ختمت بإقرارها وتطييب النفوس بها ، بل صارت هذه السابقة التي وقع التأنيب عليها هي القاعدة لما جاء بعدها . فهل الحال النفسية التي يصدر عنها أول هذا الكلام – لو كان عن النفس مصدره – يمكن أن يصدر عنها آخره ولما تمض بينهما فترة تفصل بين زمجرة الغضب والندم وبين ابتسامة الرضا والاستحسان ؟ كلا ، وإن هذين الخاطرين لو فرض صدورهما عن النفس متعاقبين لكان الثاني منهما إضراباً عن الأول ماحياً له ، ولرجع آخر الفكر وفقاً لما جرى به العمل . فأي داعٍ دعا إلى تصوير ذلك الخاطر الممحو وتسجيله ، على ما فيه من تقريع علني بغير حق ، وتنغيص لهذه الطُعْمَة[1] التي يراد جعلها حلالاً طيباً ؟ إن الذي يفهمه علماء النفس من قراءة هذا النص أن ها هنا ألبتة شخصيتين منفصلتين ، وأن هذا صوت سيد يقول لعبده : لقد أسأتَ ولكني عفوتُ عنك وأذنتُ لك .

[موقف الرسول ﷺ من النص القرآني موقف المفسر الذي يتلمس الدلالات ، ويأخذ بأرفق احتمالاتها]

وأنت لو نظرت في هذه الذنوب التي وقع العتاب عليها لوجدتها تنحصر في شيء واحد ، وهو أنه عليه السلام كان إذا ترجح بين أمرين ولم يجد فيهما إثماً اختار أقربهما إلى رحمة أهله وهداية قومه وتأليف خصمه ، وأبعدَهما عن الغلظة والجفاء ، وعن إثارة الشُبَه في دين الله . لم يكن بين يديه نصٌ فخالفه كفاحاً ، أو جاوزه خطأً ونسياناً ، بل كل ذنبه أنه مجتهد بذل وسعه في النظر ، ورأى نفسه مخيراً فتخير . هبه مجتهداً أخطأ باختيار خلاف الأفضل . أليس معذوراً ومأجوراً ؟ على أن الذي اختاره كان هو خير ما يختاره ذو حكمة

---

(١) الطُعْمَة : المكسب .

بشرية[1] وإنما نبهه القرآن إلى ما هو أرجح في ميزان الحكمة الإلٰهية . هل ترى في ذلك ذنباً يستوجب عند العقل هذا التأنيب والتثريب ؟ أم هو مقام الربوبية ومقام العبودية ، وسنة العروج بالحبيب في معارج التعليم والتأديب ؟

« **توفي عبد الله بن أبي كبير المنافقين . فكفنه النبي في ثوبه وأراد أن يستغفر له ويصلي عليه ، فقال عمر رضي الله عنه : أتصلي عليه وقد نهاك ربك ؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم : إنما خيَّرني ربي فقال ﴿ استغفِرْ لهم أو لا تستغفِرْ لهم إن تستغفر لهم سبعينَ مرةً ﴾** [سورة التوبة الآية : ٨٠] **وسأزيده على السبعين ، وصلى عليه ، فأنزل الله تعالى ﴿ ولا تُصلِّ علَىٰ أحدٍ منهم مات أبداً ولا تقُم علىٰ قبرِهِ ﴾** [سورة التوبة الآية : ٨٤] **فترك الصلاة عليهم** » اقرأ هذه القصة الثابتة برواية الصحيحين[2] وانظر ماذا ترى ؟ إنها لتمثل لك نفس هذا العبد الخاضع وقد اتخذ من القرآن دستوراً يستملي أحكامه من نصوصه الحرفية ، وتمثل لك قلب هذا البشر الرحيم وقد آنس من ظاهر[3] النص الأول تخييراً له بين طريقين فسرعان ما سلك أقربهما إلى الكرم والرحمة ، ولم يلجأ إلى الطريق الآخر إلا بعد ما جاءه النص الصريح بالمنع . وهكذا كلما درست مواقف الرسول من القرآن في هذه المواطن أو غيرها تجلى لك فيه معنى العبودية الخاضعة ومعنى البشرية الرحيمة الرقيقة ؛ وتجلى لك في مقابل ذلك من جانب

---

(١) وما كان اختيار عمر رضي الله عنه في مسألة الأسرى ونحوها إلا مظهراً من مظاهر الشدة التي كانت أغلب على طبعه . وإن كادت هذه الشدة لتفتنه عن أمر الله يوم الحديبية كما سيجيء . فكانت موافقته للوحي في تلك المسائل مصادفة للحكم من غير مقدماته الحقيقية التي انفرد بها علام الغيوب [**دراز**] .

(٢) متفق عليه : رواه البخاري في التفسير ٤٦٧٠ وغيره ، ومسلم في فضائل الصحابة ٢٥ .

(٣) نقول : ظاهر النص ، لأن العطف بأو يحتمل أن يكون للتسوية لا للتخيير كما أن صيغة العدد تحتمل أن تكون للمبالغة لا للتحديد وكلاهما احتمال قوي . إلا أن معنى التخيير والتحديد آتٍ على أصل الوضع ، وعلى مقتضى كرم الطبع . فلم يعدل عنه الرسول الكريم إلا بنص آخر [**دراز**] .

القرآن معنى القوة التي لا تتحكم فيها البواعث والأغراض بل تصدع بالبيان فرقاناً بين الحق والباطل ، وميزاناً للخبيث والطيب ، أحب الناس أم كرهوا ، رضوا أم سخطوا ، آمنوا أم كفروا ، إذ لا تزيدها طاعة الطائعين ولا تنقصها معصية العاصين . فترى بين المقامين ما بينهما . وشتان ما بين سيد ومسود ، وعابد ومعبود .

٣ - [توقف الرسول ﷺ أحياناً في فهم مغزى النص حتى يأتيه البيان]:

ولقد كان يجيئه الأمر أحياناً بالقول المجمل أو الأمر المشكل الذي لا يستبين هو ولا أصحابه تأويله حتى ينزل الله عليهم بيانه بعد . قل لي بربك : أي عاقل توحي إليه نفسه كلاماً لا يفهم هو معناه ، وتأمره أمراً لا يعقل هو حكمته ؟ أليس ذلك من الأدلة الواضحة على أنه ناقل لا قائل ، وأنه مأمور لا آمر ؟

[المثال الأول : موقفه في قضية المحاسبة على النيات]

نزل قوله تعالى ﴿ **وإن تُبدوا ما في أنفسِكمْ أو تُخفوهُ يُحاسبْكُم بِهِ اللهُ** ﴾ [سورة البقرة الآية : ٢٨٤] فأزعجت الصحابة إزعاجاً شديداً ، وداخل قلوبهم منها شيء لم يدخلها من شيء آخر لأنهم فهموا منها أنهم سيحاسبون على كل شيء حتى حركات القلوب وخطراتها - فقالوا : « **يا رسول الله أُنزلت علينا هذه الآية ولا نطيقها . فقال لهم النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم : أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم : سمعنا وعصينا ؟ بل قولوا : سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير** » فجعلوا يتضرعون بهذه الدعوات حتى أنزل الله بيانها بقوله : ﴿ **لا يُكلفُ اللهُ نفساً إلا وُسْعَها** ﴾

[سورة البقرة الآية : ٢٨٦]

إلى آخر السورة المذكورة ، وهنالك علموا أنهم إنما يحاسبون على ما يطيقون من شأن القلوب وهو ما كان من النيات المكسوبة والعزائم المستقرة ، لا من الخواطر والأماني الجارية على النفس بغير اختيار . الحديث في مسلم وغيره وأشار

إليه البخاري في التفسير مختصراً[1] . وموضع الشاهد منه أن النبي لو كان يعلم تأويلها من أول الأمر لبين لهم خطأهم ولأزال اشتباههم من فوره ؛ لأنه لم يكن ليكتم عنهم هذا العلم وهم في أشد الحاجة إليه ، ولم يكن ليتركهم في هذا الهلع الذي كاد يخلع قلوبهم وهو بهم رءوف رحيم . ولكنه كان مثلهم ينتظر تأويلها . ولأمر ما أخر الله عنهم هذا البيان . ولأمر ما وضع حرف التراخي في قوله تعالى ﴿ **ثم إنَّ علينا بيانه** ﴾[2] [سورة القيامة الآية : ١٩] .

[المثال الثاني : مسلكه في قضية الحديبية]

واقرأ في صحيح البخاري وسنن أبي داود وغيرهما قضية الحديبية[3] ، ففيها آية بينة : أذن الله للمؤمنين أن يقاتلوا من يعتدي عليهم أينما وجدوه ، غير ألا يقاتلوا في الحرم من لم يقاتلهم فيه نفسه ، فقال تعالى ﴿ **وقاتلوا في سبيلِ اللهِ الذينَ يُقاتِلونكُم** ﴾ [سورة البقرة الآية : ١٩٠] فلما أجمعوا زيارة البيت الحرام في ذلك العام وهو العام السادس من الهجرة أخذوا أسلحتهم حذراً أن يقاتلهم أحدا فيدافعوا عن أنفسهم الدفاع المشروع . ولما أشرفوا على حدود الحرم علموا أن قريشاً قد جمعت جموعها على مقربة منهم فلم يثن ذلك من عزمهم ؛ لأنهم كانوا على تمام الأهبة ، بل زادهم ذلك استبسالاً وصمموا على المضي إلى البيت

---

(١) رواه مسلم في الإيمان ١٩٩ بتمامه .
وكذلك البخاري في التفسير باختصار شديد ٤٥٤٥ ، ٤٥٤٦ .

(٢) كما سبق بيانه في ص ١٥ .

(٣) حديث الحديبية الطويل بتمامه رواه البخاري في الشروط ٢٧٣١ ، ٢٧٣٢ من رواية المسور ابن مخرمة ومروان بن الحكم معاً ، وعند أبي داود في الجهاد ٢٧٦٥ من رواية المسور ، وعند أحمد ٤ / ٣٢٣ من رواية المسور بن مخرمة ومروان ، وقد روى البخاري بعضه عن البراء في الصلح ٢٦٩٨ ، ٢٦٩٩ ، ٢٧٠٠ ، وفي المغازي ٤٢٥١ ، وعن ابن عمر في الصلح ٢٧٠١ ، وفي المغازي ٤٢٥٢ . ورواه مسلم باختصار في الجهاد والسير من حديث البراء ٩٠ ، ٩٢ ، ومن حديث أنس بن مالك ٩٣ .

فمن صدهم عنه قاتلوه ، وكانت قريش قد نهكتها الحروب فكانت البواعث كلها متضافرة والفرصة سانحة للالتحام في موقعة فاصلة يتمكن فيها الحق من الباطل فيدمغه . وإنهم لسائرون عند الحديبية إذ بَرَكَتْ راحلة النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وأخذ أصحابه يثيرونها إلى جهة الحرم فلا تثور ، فقالوا : خلأت القصواء ، خلأت القصواء - أي حرنت الناقة - فقال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم : « **ما خلأت القصواء . وما ذاك لها بخُلق ، ولكن حبَسها حابسُ الفيل** » يعني أن الله الذي اعتقل الفيل ومنع أصحابه من دخول مكة محاربين هو الذي اعتقل هذه الناقة ومنع جيش المسلمين من دخولها الآن عنوة . وهكذا أيقن أن الله تعالى لم يأذن لهم في هذا العام بدخول مكة مقاتلين ، لا بادئين ولا مكافئين ، وزجر الناقة فثارت إلى ناحية أخرى فنزل بأصحابه في أقصى الحديبية ، وعدل بهم عن متابعة السير امتثالاً لهذه الإشارة الإلٰهية التي لا يعلم حكمتها ، وأخذ يسعى لدخول مكة من طريق الصلح مع قريش قائلاً : « **والذي نفسي بيده لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها** » ولكن قريشاً أبت أن يدخلها في هذا العام لا محارباً ولا مسالماً . وأملت عليه شروطاً قاسية بأن يرجع من عامه ، وأن يرد كل رجل يجيئه من مكة مسلماً . وألا ترد هي أحداً يجيئها من المدينة تاركاً لدينه ، فقبل تلك الشروط التي لم يكن ليمليها مثل قريش في ضعفها على مثل المؤمنين في قوتهم ، وأمر أصحابه بالتحلل من عمرتهم وبالعودة من حيث جاءوا . فلا تسل عما كان لهذا الصلح من الوقع السيء في نفوس المسلمين ، حتى إنهم لما جعلوا يحْلِقون بعضهم لبعض كاد يقتل بعضُهُم بعضاً ذهولاً وغماً ، وكادت تزيغ قلوب فريق من كبار الصحابة فأخذوا يتساءلون فيما بينهم ويراجعونه هو نفسه قائلين : لِم نعطي الدَّنِيَّة[1] في ديننا ؟ وهكذا كاد الجيش يتمرد على أمره قائده ويفلت حبله من يده . أفلم يكن من الطبيعي إذ ذاك لو كان هذا القائد هو الذي وضع هذه الخطة بنفسه أو اشترك في وضعها أو وقف على أسرارها أن يبين لكبار

(١) الدَّنِيَّة : الذل والصغار والهوان .

الصحابة حكمة هذه التصرفات التي فوق العقول ، حتى يطفيء نار الفتنة قبل أن يتطاير شررها ؟ ولكن انظر كيف كان جوابه حين راجعه عمر : « **إني رسول الله . ولست أعصيه ، وهو ناصري** » يقول : إنما أنا عبد مأمور ليس لي من الأمر شيء إلا أن أنفذ أمر مولاي واثقاً بنصره قريباً أو بعيداً . وهكذا ساروا راجعين وهم لا يدرون تأويل هذا الإشكال حتى نزلت سورة الفتح فبينت لهم الحِكَم الباهرة والبشارات الصادقة فإذا الذي ظنوه ضَيْماً وإجحافاً في باديء الرأي كان هو النصر المبين والفتح الأكبر[1] وأين تدبير البشر من تدبير القدر ؛ ﴿ **وهوَ الذي كفَّ أيديَهمْ عنكمْ وأيديَكمْ عنهم ببطنِ مكةَ من بعد أن أظفركمْ عليهمْ وكانَ اللهُ بما تعملونَ بصيراً * هُمُ الذينَ كفروا وصَدُّوكُمْ عنِ المسجدِ الحرامِ والهَدْيَ معكوفاً أن يبلغ مَحِله ولولا رجالٌ مؤمنون ونساءٌ مؤمناتٌ لَمْ تَعلموهمْ أن تَطئُوهمْ فتُصيبَكم مِنهم معرَّةٌ بغيرِ عِلمٍ لِيُدخِلَ اللهُ فِي رحمتِهِ مَن يشاءُ لو تَزيَّلوا لعذَّبنا الذينَ كفروا مِنهم عذاباً أليماً * إذْ جعلَ الذينَ كفروا فِي قلوبِهمُ الحمِيَّةَ حَمِيَّةَ الجاهليةِ فأنزلَ اللهُ سَكينتَه علىٰ رسوله وعلىٰ المؤمنين وألزمَهُمْ كَلِمَةَ التقوىٰ وكانوا أحقَّ بها وأهلَها وكانَ اللهُ بِكلِّ شيءٍ عليماً * لقدْ صَدَقَ اللهُ رسولَهُ الرؤيا بالحقِّ لتدخُلُنَّ المسجدَ الحَرامَ إن شاءَ اللهُ آمنين مُحلِّقِينَ رُءوسَكمْ ومُقصِّرينَ لا تخافونَ فَعَلِمَ ما لمْ تعلموا فَجعلَ مِن دونِ ذلكَ فتحاً قريباً** ﴾ [سورة الفتح الآيات : ٢٤ - ٢٧] .

---

(١) قال ابن إسحاق قال الزهري : فما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم من فتح الحديبية . إنما كان القتال حيث التقى الناس . فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب وأمن الناس بعضهم بعضاً التقوا وتفاوضوا في الحديث فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئاً في تلك المدة إلا دخل فيه . وفسر ذلك صاحب الفتح فقال : إن الناس لأجل الأمن الذي وقع بينهم اختلط بعضهم ببعض من غير نكير ، وظهر من كان يخفي إسلامه ، وأسمع المسلمون المشركين القرآن ، وناظروهم جهرة آمنين . وكانوا قبل ذلك لا يتكلمون عندهم بذلك إلا خفية . فذل المشركون من حيث أرادوا العزة ، وأقهروا من حيث أرادوا الغلبة [**دراز**] .

٤ - [**منهجه في كيفية تلقي النص ، أول عهده بالوحي**] :

ولقد كان حين ينزل عليه القرآن في أول عهده بالوحي يتلقفه متعجلاً فيحرك به لسانه وشفتيه طلباً لحفظه ، وخشية ضياعه من صدره . ولم يكن ذلك معروفاً من عادته في تحضير كلامه ، لا قبل دعواه النبوة ولا بعدها ، ولا كان ذلك من عادة العرب ، إنما كانوا يزوّرون كلامهم في أنفسهم . فلو كان القرآن منبجساً من مَعين نفسه لجرى على سنة كلامه وكلامهم ، ولكان له من الروية والأناة الصامتة ما يكفل له حاجته من إنضاج الرأي وتمحيص الفكرة . ولكنه كان يرى نفسه أمام تعليم يفاجئه وقتياً ويلم به سريعاً . بحيث لا تجدي الرَّوِيَّة[1] شيئاً في اجتلابه لو طلب ، ولا في تداركه واستذكاره لو ضاع منه شيء وكان عليه أن يعيد كل ما يلقي إليه حرفياً . فكان لابد له في أول عهده بتلك الحال الجديدة التي لم يألفها من نفسه أن يكون شديد الحرص على المتابعة الحرفية ، حتى ضمن الله له حفظه وبيانه بقوله ﴿ **لا تُحرِّكْ بِهِ لسانَكَ لِتعجَلَ بِهِ** ﴾ الآيـات [سورة القيامة الآية : ١٦] وقوله ﴿ **ولا تَعْجَلْ بالقرآنِ مِن قبلِ أن يُقضىٰ إليكَ وَحيُه وقل ربِّ زِدْنِي عِلماً** ﴾ [سورة طة الآية : ١١٤] .

هذا طَرَفٌ من سيرته بإزاء القرآن . وكلها شواهد ناطقة بصدقه في أن القرآن لم يصدر عنه بل ورد إليه ، وأنه لم يَفِضْ عن قلبه بل أُفِيضَ عليه .

* * *

[طرفٌ من سيرته العامة ﷺ]

فإذا أنت صعدت بنظرك إلى سيرته العامة لقيت من جوانبها مجموعة رائعة من الأخلاق العظيمة . وحسبك الآن منها أمثلة يسيرة إذا ما تأملتَها صوَّرتْ لك إنساناً الطهرُ ملء ثيابه ، والجدّ حشو إهابه ، يأبى لسانه أن يخوض فيما لا يعلمه ، وتأبى عيناه أن تخفيا خلاف ما يعلنه ، ويأبى سمعه أن يصغي إلى

---

(١) الرَّوِيَّة : النظر في الأمور ، وعدم التعجل فيها .

غلو المادحين له : تواضعٌ هو حلية العظماء ، وصراحة نادرة في الزعماء ، وتثبت قلَّما تجده عند العلماء . فأنّى من مثله الختل أو التزوير ، أو الغرور أو التغرير ؟ حاش لله !

١ - [يتبرأ من علم الغيب] :

« **جلست جويريات يضربن بالدف في صبيحة عرس الربيع بنت معوذ الأنصارية وجعلن يذكرن آبائهن من شهداء بدر حتى قالت جارية منهن : وفينا نبي يعلم ما في غدٍ . فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم : لا تقولي هكذا ، وقولي ما كنت تقولين** » رواه البخاري[1] . ومصداقه في كتاب الله تعالى ﴿ **قلْ لا أقولُ لكمْ عندي خزائنُ اللهِ ولا أعلمُ الغيبَ** ﴾ [سورة الأنعام الآية : ٥٠] ، ﴿ **ولو كُنتُ أعْلَمُ الغيبَ لاستكثرتُ مِن الخيرِ** ﴾ [سورة الأعراف الآية : ١٨٨] .

٢ - [لا يظهر خلاف ما يُبْطِن] :

وكان عبد الله بن أبي السرح أحد النفر الذين استثناهم النبي من الأمان يوم الفتح لفرط إيذائهم للمسلمين وصدهم عن الإسلام ، فلما جاء إلى النبي لم يبايعه إلا بعد أن شفع له عثمان رضي الله عنه ثلاثاً . ثم أقبل على أصحابه فقال : « **أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حين كففت يدي عن بيعته فيقتله ؟ فقالوا : ما ندري ما في نفسك ، ألا أومأت إلينا بعينك ! فقال ﷺ : إنه لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنةُ الأعين** » رواه أبو داود والنسائيُّ[2] .

٣ - [خوفه من التقول على الله] :

« **وجيء بصبي من الأنصار يُصَلِّي عليه ، فقالت عائشة رضي الله عنها :**

---

(١) رواه البخاري في المغازي ٤٠٠١ ، وبنحوه في النكاح ٥١٤٧ .

(٢) رواه أبو داود في الجهاد ٢٦٨٣ ، والنسائيُّ في تحريم الدم ٧ / ١٠٦ ، وصححه الألباني في الصحيحة ١٧٢٣ .

طوبى لهذا ، لم يعمل شراً ، فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم : أو غير ذلك يا عائشة ، إن الله خلق الجنة وخلق لها أهلاً وخلقها لهم وهم في أصلاب آبائهم ، وخلق النار وخلق لها أهلاً وخلقها لهم وهم في أصلاب آبائهم[1] » رواه مسلم وأصحاب السنن[2] .

٤ - [لا يدري ماذا سيكون حظه عند الله] :

« ولما توفي عثمان بن مظعون رضي الله عنه قالت أم العلاء - امرأة من الأنصار - : رحمة الله عليك أبا السائب ، فشهادتي عليك لقد أكرمك الله . فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم : وما يدريك أن الله أكرمه ؟ فقالت : بأبي أنت يا رسول الله ، فَمَنْ يكرمه الله ؟ قال : أما هو فقد جاءه اليقين ، والله إني لأرجو له الخير . والله ما أدري وأنا رسول الله ما يُفعل بي قالت : فوالله لا أزكي أحداً بعده أبداً » . رواه البخاري والنسائيُّ[3] . ومصداقه في كتاب الله تعالى **﴿ قُلْ ما كنتُ بِدعاً مِن الرُّسُلِ وما أدري ما يُفعلُ بي ولا بِكُم ﴾**[4] [سورة الأحقاف الآية : ٩] .

أتراه لو كان حين يتحامى الكذب يتحاماه دهاءً وسياسةً ، خشية أن يكشف الغيب قريباً أو بعيداً عن خلاف ما يقول ، ما الذي كان يمنعه أن يتقول ما يشاء في شأن ما بعد الموت وهو لا يخشى من يراجعه فيه ، ولا يهاب حكم التاريخ عليه ؟ بل منعه الخلق العظيم وتقدير المسئولية الكبرى أمام حاكم آخر

---

(١) قال العلماء إن هذا التوقف كان قبل أن يعلم أن أطفال المسلمين في الجنة [**دراز**] .

(٢) رواه مسلم بنحوه في القدر ٣٠ ، ٣١ ، وأبو داود في السنة ٤٧١٣ ، والنسائي في الجنائز ٤ / ٥٧ وابن ماجه في المقدمة ٨٢ .

(٣) رواه البخاري في الجنائز ١٢٤٣ وغيره ، ورواه أحمد ٦ / ٤٣٦ . ولم أجده عند النسائيّ . وقد عزاه السيوطي في الدر المنثور ٦ / ٥ إلى النسائيّ أيضاً . فلعله في السنن الكبرى له .

(٤) قال العلماء : وكان هذا قيل أن يوحى إليه صدر سورة الفتح **﴿ ليغفرَ لكَ اللهُ ما تقدَّمَ مِن ذنبِكَ وما تأخرَ ﴾** [سورة الفتح الآية : ٢] [**دراز**] .

أعلى من التاريخ وأهله ﴿ فلنسألنَّ الذينَ أُرسِلَ إليهِمْ ولنسألنَّ المُرْسلينَ * فلنَقُصَّنَّ عليهِم بعلمٍ وما كُنَّا غائبينَ ﴾ [سورة الأعراف الآيتان : ٦ ، ٧] .

* * *

[دراسة طبائع النفوس في سيرة أصحابها]

واعلم أنك مهما أزحت عن نفسك راحة اليقين وأرخيت لها عنان الشك وتركتها تفترض أسوأ الفروض في الواقعة الواحدة والحادثة الفذة من هذه السيرة المكرمة فإنك متى وقفت منها على مجموعة صالحة لا تملك أن تدفع هذا اليقين عن نفسك إلا بعد أن تتهم وجدانك وتشك في سلامة عقلك . فنحن قد نرى الناس يدرسون حياة الشعراء في أشعارهم فيأخذون عن الشاعر من كلامه صورة كاملة تتمثل فيها عقائده وعوائده وأخلاقه ومجرى تفكيره وأسلوب معيشته ، ولا يمنعهم زخرف الشعر وطلاؤه عن استنباط خيلته[1] ، وكشف رغوته عن صريحه[2] ؛ ذلك أن للحقيقة قوة غلَّابة تنفذ من حجب الكتمان فتُقرأ بين السطور وتُعرف في لحن القول ، والإنسان مهما أمعن في تصنعه ومداهنته لا يخلو من فلتات في قوله وفعله تنم على طبعه إذا أُحفِظَ أو أُحرِجَ أو احتاج أو ظفر أو خلا بمن يطمئن إليه .

ومهما تكن عند امريء من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم

فما ظنك بهذه الحياة النبوية التي تعطيك في كل حلقة من حلقاتها مرآة صافية لنفس صاحبها فتريك باطنه من ظاهره وتريك الصدق والإخلاص ماثلاً

(١) استنباط خيلته : الخيلة في اللغة هي الكبر ، ولكن اشتقاقات فعل : خال يخيل تُظْهِر معاني الخفاء والاستشكال والتلون ، فهنا قد تعني كلمة (استنباط خيلته) : فهم وإظهار ما يُراد إخفاؤه .

(٢) كشف رغوته عن صريحه : الرغوة هي ما يكون فوق اللبن عند صَبِّهِ في الإناء [أي الفقاقيع] ، والصريح هو اللبن الخالص ، وهذا التعبير يعني إجمالاً : كشف الزيف عن الحقيقة .

في كل قول من أقواله وكل فعل من أفعاله . بل كان الناظر إليه إذا قويت فطنته وحسنت فراسته يرى أخلاقه العالية تلوح في محياه ولو لم يتكلم أو يعمل . ومن هنا كان كثير ممن شرح الله صدورهم للإسلام لا يسألون رسول الله على ما قال برهاناً ، فمنهم العَشِير[1] الذي عرفه بعظمة سيرته ؛ ومنهم الغريب الذي عرفه بسيماه في وجهه . قال عبد الله بن سلام رضي الله عنه : « **لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل[2] الناس إليه وقيل : قدم رسول الله ! قدم رسول الله ! فجئت في الناس لأنظر إليه ، فلما استثبتّ وجه رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم عرفتُ أن وجهه ليس بوجه كذاب** » . رواه الترمذي بسند صحيح[3] .

والآن وقد وفينا لك الوعد بعرض هذه النماذج من السيرة النبوية . نعود إلى تقرير ما قصدناه من هذا العرض فنقول : إن صاحب هذا الخلق العظيم وصاحب تلك المواقف المتواضعة بإزاء القرآن ، ما كان ينبغي لأحد أن يمتري في صدقه حينما أعلن عن نفسه أنه ليس هو واضع ذلك الكتاب وأن منزلته منه منزلة المتعلم المستفيد ، بل كان يجب أن نسجل من هذا الاعتراف البريء دليلاً آخر على صراحته وتواضعه .

* * *

[المرحلة الأولى من البحث : بيان أن القرآن لا يمكن أن يكون إيحاءاً ذاتياً من نفس محمد ﷺ]

على أن الأمر أمامنا أوضح من أن يحتاج إلى سماع هذا الاعتراف القولي منه . أو يتوقف على دراسة تلك الناحية الخُلُقية من تاريخه .

---

(١) العَشِير : الزوج أو المعاشر أو الصديق أو القريب . (٢) انجفل : أَسْرَعَ .

(٣) رواه الترمذي في صفة القيامة ٢٤٨٥ ، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٣٣٤ ، وصححه الألباني في الصحيحة ٥٦٩ .

أليس يكفي للحكم ببراءة الإنسان من عمل من الأعمال أن يقوم من طبيعته شاهدٌ بعجزه المادي عن إنتاج ذلك العمل ؟

فلينظر العاقل : هل كان هذا النبي الأُمي صلوات الله عليه أهلاً بمقتضى وسائله العلمية لأن تجيش نفسه بتلك المعاني القرآنية ؟

سيقول الجهلاء من الملحدين : نعم ؛ فقد كان له من ذكائه الفطري وبصيرته النافذة ما يؤهله لإدراك الحق والباطل من الآراء . والحسن والقبيح من الأخلاق . والخير والشر من الأفعال . حتى لو أن شيئاً في السماء تناله الفِراسة أو تلهِمه الفطرة أو توحي به الفكرة لتناوله محمد بفطرته السليمة ، وعقله الكامل وتأملاته الصادقة .

ونحن قد نؤمن بأكثر مما وصفوا من شمائله . ولكننا نسأل : ***هل كل ما في القرآن مما يستنبطه العقل والتفكير ، ومما يدركه الوجدان والشعور ؟ اللهم كلا .***

[طبيعة المعاني القرآنية
ليست مما يُدرك بالذكاء وصدق الفِراسة :
أ - أنباء الماضي لا سبيل إليها إلا بالتلقي والدراسة]

ففي القرآن جانب كبير من المعاني النقلية البحتة التي لا مجال فيها للذكاء والاستنباط . ولا سبيل إلى علمها لمن غاب عنها إلا بالدراسة والتلقي والتعلم . ماذا يقولون فيما قصه علينا القرآن من أنباء ما قد سبق وما فصّله من تلك الأنباء على وجهه الصحيح كما وقع ؟ أيقولون إن التاريخ يمكن وضعه أيضاً بإعمال الفكر ودقة الفراسة ؟ أم يخرجون إلى المكابرة العظمي فيقولون إن محمداً قد عاصر تلك الأمم الخالية ، وتنقل فيها قَرْناً[1] فشهد هذه الوقائع مع أهلها شهادة عيان ، أو أنه ورث كتب الأولين وعكف على دراستها حتى أصبح

(١) قَرْناً : مثيلاً في السن .

من الراسخين في علم دقائقها ؟ إنهم لا يسعهم أن يقولوا هذا ولا ذاك ، لأنهم معترفون مع العالم كله بأنه عليه الصلاة والسلام لم يكن من أولئك ولا من هؤلاء ﴿ **وَمَا كنتَ لديهِمْ إذْ يُلقُون أقلامَهُمْ أيُّهُمْ يكفُلُ مريمَ** ﴾ [سورة آل عمران الآية : ٤٤] ﴿ **ومَا كنتَ لديهِمْ إذْ أَجْمعوا أمرَهم وهُم يَمكُرون** ﴾ [سورة يوسف الآية : ١٠٢] ﴿ **ومَا كنتَ بجانبِ الغرْبِيِّ إذْ قضينا إلى موسىٰ الأمرَ** ﴾ [سورة القصص الآية ٤٤] ﴿ **ومَا كنتَ تتلو مِن قبلِه مِن كتابٍ ولا تخُطُّهُ بيمينِكَ إذاً لارتابَ المُبْطِلُونَ** ﴾ [سورة العنكبوت الآية : ٤٨] ﴿ **تِلكَ مِنْ أنباءِ الغيبِ نوحيها إليكَ مَا كنتَ تعلَمُها أنتَ ولا قومُكَ مِن قبلِ هذا** ﴾ [سورة هود الآية : ٤٩] ﴿ **نحنُ نَقُصُّ عليكَ أحْسنَ القصَصِ بِمَا أوحينا إليكَ هذا القرآنَ وإن كنتَ مِن قَبلهِ لمِن الغافلين** ﴾ [سورة يوسف الآية : ٣] .

لا نقول أن العلم بأسماء بعض الأنبياء والأمم الماضية وبمجمل ما جرى من حوادث التدمير في ديار عاد وثمود وطوفان نوح وأشباه ذلك لم يصل قط إلى الأميين ؛ فإن هذه النُتَف اليسيرة قلّما تعزب عن أحد من أهل البدو أو الحضر . لأنها مما توارثته الأجيال وسارت به الأمثال . وإنما الشأن في تلك التفاصيل الدقيقة والكنوز المدفونة في بطون الكتب فذلك هو العلم النفيس الذي لم تنله يد الأميين ولم يكن يعرفه إلا القليل من الدارسين . وإنك لتجد الصحيح المفيد من هذه الأخبار محرراً في القرآن . حتى الأرقام طبق الأرقام : فترى مثلاً في قصة نوح عليه السلام في القرآن أنه لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً . وفي سفر التكوين من التوراة أنه عاش تسعمائة وخمسين سنة . وترى في قصة أصحاب الكهف عند أهل الكتاب أنهم لبثوا في كهفهم ثلاثمائةٍ سنة شمسية . وفي القرآن أنهم لبثوا في كهفهم ﴿ **ثلاثَمائةٍ سنين وازْدادوا تِسعاً** ﴾ [سورة الكهف الآية : ٢٥] . وهذه السنون التسع هي فرق ما بين عدد السنين الشمسية والقمرية . قاله الزجاج يعني بتكميل الكسر . فانظر إلى هذا الحساب الدقيق في أمة أمية لا تكتب ولا تحسب .

كفاك بالعلم في الأمي معجزةً   في الجاهلية والتأديب في اليتم[1]

نعم إنها لعجيبة حقاً : رجل أُمّي بين أظهر قوم أميين . يحضر مشاهدهم – في غير الباطل والفجور – ويعيش معيشتهم مشغولاً برزق نفسه وزوجه وأولاده . راعياً بالأجر . أو تاجراً بالأجر . لا صلة له بالعلم والعلماء ؛ يقضي فى هذا المستوى أكثر من أربعين سنة من عمره . ثم يطلع علينا فيما بين عشية وضحاها فيكلمنا بما لا عهد له به في سالف حياته وبما لم يتحدث إلى أحد بحرف واحد منه قبل ذلك . ويبدي لنا من أخبار تلك القرون الأولى ما أخفاه أهل العلم في دفاترهم وقماطرهم . أفي مثل هذا يقول الجاهلون إنه استوحى عقله واستلهم ضميره ؟ أيّ منطق يسوّغ أن يكون هذا الطور الجديد العلميّ نتيجة طبيعة لتلك الحياة الماضية الأمية ؟ إنه لا مناص في قضية العقل من أن يكون لهذا الانتقال الطفريّ سرّ آخر يُلتمس خارجاً عن حدود النفس وعن دائرة المعلومات القديمة . وإن ملاحدة الجاهلية وهم أجلاف الأعراب في البادية كانوا في الجملة أصدق تعليلاً لهذه الظاهرة وأقرب فهماً لهذا السر من ملاحدة هذا العصر ، إذ لم يقولوا كما قال هؤلاء إنه استقى هذه الأخبار من وحي نفسه ، بل قالوا إنه لابد أن تكون قد أُمليت عليه منذ يومئذ علوم جديدة ؛ فدرس منها ما لم يكن قد درس ، وتعلّم ما لم يكن يعلم ﴿ **وكذلكَ نُصرِّفُ الآياتِ وليقولوا دَرَسْتَ** ﴾ [سورة الأنعام الآية : ١٠٥] ﴿ **وقالوا أساطيرُ الأوَّلينَ اكتتَبها فهيَ تُملَىٰ عليهِ بُكرةً وأَصيلاً** ﴾ [سورة الفرقان الآية ٥] .

ولقد صدقوا ؛ فإنه درسها ، ولكن على أستاذه الروح الأمين . واكتتبها ، ولكن من صحفٍ مكرمةٍ مرفوعةٍ مطهرةٍ ، بأيدي سفَرَةٍ ، كرامٍ بررةٍ ﴿ **قُلْ لَو شاءَ اللهُ ما تَلوتُهُ عليكُمْ ولا أدراكُمْ به فقدْ لبِثتُ فيكمْ عُمُراً مِن قبلِهِ أفلا تَعقلونَ** ﴾ [سورة يونس الآية : ١٦] .

---

(١) هو بيت من قصيدة البردة للبوصيري – انظر ديوان البوصيري ص ٢٤٦ .

ذلك شأن ما في القرآن من الأنباء التاريخية ، لا جدال في أن سبيلها النقل لا العقل ، وأنها تجيء من خارج النفس لا من داخلها .

فأمّا سائر العلوم القرآنية فقد يقال إنها من نوع ما يدرك بالعقل ، فيمكن أن ينالها الذكي بالفِراسة أو بالروية . وهذا كلام قد يلوح حقّاً في باديء الرأي ، ولكنه لا يلبث أن ينهار أمام الاختبار .

ذلك أن العقول البشرية لها في إدارك الأشياء طريق معيّنٌ تسلكه ، وحَدٌّ محدود تقف عنده ولا تتجاوزه . فكل شيء لم يقع تحت الحس الظاهر أو الباطن مباشرة ، ولم يكن مركوزاً في غريزة النفس ، إنما يكون إدراك العقول إياه عن طريق مقدمات معلومة توصل إلى ذلك المجهول ، إما بسرعة كما في الحَدْس[1] وإما ببطء كما في الاستدلال والاستنباط والمقايسة[2] . وكل ما لم تمهّدْ له هذه الوسائل والمقدمات لا يمكن أن تناله يد العقل بحال . وإنما سبيله الإلهام ، أو النقل عمن جاءه ذلك الإلهام .

فهل ما في القرآن من المعاني غير التاريخية كانت حاضرة الوسائل والمقدمات في نظر العقل ؟

ذلك ما سيأتيك نبأُه بعد حين . ولكننا نعَجِّلُ لك الآن بمثالين من تلك المعاني نكتفي بذكرهما هنا عن إعادتهما بعد :

أحدهما : قسم العقائد الدينية .

والثاني : قسم النبوءات الغيبية .

[ب – الحقائق الدينية الغيبية لا سبيل للعقل إليها]

فأما أمر الدين فإنَّ غاية ما يجتنيه العقل من ثمرات بحثه المستقل فيه ،

---

(١) الحَدْس : الظن والتخمين .

(٢) المقايسة : القياس وهو الاستدلال على الشيء بمثيله أو شبيهه .

بعد معاونة الفطرة السليمة له ، هو أن يعلم أن فوق هذا العالم إلٰهاً قاهراً دبره وأنه لم يخلقه باطلاً ، بل وضعه على مقتضى الحكمة والعدالة ؛ فلابد أن يعيده كرةً أخرى لينال كل عامل جزاء عمله إن خيراً وإن شراً . هذا هو كل ما يناله العقل الكامل من أمر الدين . ولكن القرآن لا يقف في جانبه عند هذه المرحلة . بل نراه يشرح لنا حدود الإيمان مفصلة ، ويصف لنا بدء الخلق ونهايته ، ويصف الجنة وأنواع نعيمها ، والنار وألوان عذابها ، كأنهما رأى عين ، حتى إنه ليحصي عدة الأبواب ، وعدة الملائكة الموكلة بتلك الأبواب . فعلى أي نظرية عقلية بنيت هذه المعلومات الحسابية ، وتلك الأوصاف التحديدية ؟ إن ذلك ما لا يوحي به العقل ألبتة ، بل هو إما باطل فيكون من وحي الخيال والتخمين ، وإما حق ، فلا ينال إلا بالتعليم والتلقين . لكنه الحق الذي شهدت به الكتب واستَيْقنه أهلها ﴿ **وما جعلنا عِدَّتهُمْ إلا فتنَةً للذين كفروا لِيَستَيْقِنَ الذينَ أوتوا الكتابَ ويزدادَ الذين آمنوا إيماناً** ﴾[1] [سورة المدثر الآية : ٣١] ﴿ **وكذلك أوْحَيْنا إليكَ رُوحاً من أمْرِنا ما كنتَ تَدْري ما الكِتابُ ولا الإيمانُ** ﴾ [سورة الشورى الآية : ٥٢] ﴿ **ما كانَ لِيَ مِنْ عِلم بالملإِ الأعْلَىٰ إذْ يَخْتصِمُونَ** ﴾[2] [سورة ص الآية ٦٩] ﴿ **وما كانَ هذا القرآنُ أن يُفْتَرىٰ مِنْ دونِ الله ولكِنْ**

---

(١) قال الحافظ ابن كثير في تفسيره لهذه الآية ٨ / ٢٩٤ :
وذلك رد على مشركي قريش حين ذكر عدد الخزنة [أي خزنة جهنم] ، فقال أبو جهل : يا معشر قريش ، أما يستطيع كل عشرة منكم لواحد منهم فتغلبونهم ؟ . فقال الله ﴿ **وما جعلنا أصحابَ النارِ إلا ملائكة** ﴾ أي شديدي الخَلق لا يُقاومون ولا يُغالبون ... ﴿ **وما جعلنا عِدَّتَهُمْ إلا فتنةً للذين كفروا** ﴾ أي إنما ذكرنا عدتهم أنهم تسعة عشر اختباراً منا للناس ﴿ **ليستيقنَ الذين أوتوا الكتاب** ﴾ أي يعلمون أن هذا الرسول حق ، فإنه نطق بمطابقة ما بأيديهم من الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء قبله . ﴿ **ويزدادَ الذين آمنوا إيماناً** ﴾ أي إلى إيمانهم ، أي بما يشهدون من صدق أخبار نبيهم محمد ﷺ أهـ .

(٢) قال الحافظ ابن كثير في تفسيره لهذه الآية ٧ / ٧٠ :
أي لولا الوحي من أين كنت أدري باختلاف الملأ الأعلى ؟ يعني في شأن آدم وامتناع إبليس من السجود له ، ومحاجته ربه في تفضيله عليه [كما في الآيات التالية لهذه الآية] .

تصديقَ الذي بينَ يَديهِ وتفصيلَ الكِتابِ لا ريبَ فيه مِن ربِّ العالمين ﴾
[سورة يونس الآية : ٣٧] .

[ج - أنباء المستقبل قد تُستنبط بالمقايسة الظنية ولكنها لا سبيل فيها لليقين إلا بالوحي الصادق]

وأما النبوءات الغيبية فهل تعرف كيف يحكم فيها ذو العقل الكامل ؟ إنه يتخذ من تجاربه الماضية مصباحاً يكشف على ضوئه بضع خطوات من مجرى الحوادث المقبلة ، جاعلاً الشاهد من هذه مقياساً للغائب من تلك ، ثم يصدر فيها حكمه محاطاً بكل تحفظ وحذر ، قائلاً : (ذلك ما تقضي به طبيعة الحوادث لو سارت الأمور على طبيعتها ولم يقع ما ليس في الحسبان) . أما أن يبت الحكم بتاً ويحدده تحديداً حتى فيما لا تدل عليه مقدمة من المقدمات العلمية ، ولا تلوح منه أمارة من الأمارات الظنية العادية ، فذلك ما لا يفعله إلا أحد رجلين :

* إما رجل مجازف لا يبالي أن يقول الناس فيه صدق أو كذب ، وذلك هو دأب جهلاء المتنبئين من العرَّافين والمُنجِّمين .

* وإما رجل اتخذ عند الله عهداً فلن يُخلِفَ الله عهده ، وتلك هي سنة الأنبياء والمرسلين ، ولا ثالث لهما إلا رجلاً روى أخباره عن واحد منهما . فأي الرجلين تراه في صاحب هذا القرآن حينما يجيء على لسانه الخبر الجازم بما سيقع بعد عام وما سيقع في أعوام ، وما سيكون أبد الدهر ، وما لن يكون أبد الدهر ؟ ذلك وهو لم يتعاط علم المعرفة والتنجيم ولا كانت أخلاقه كأخلاقهم تمثل الدعوى والتقحم ، ولا كانت أخباره كأخبارهم خليطاً من الصدق والكذب ، والصواب والخطأ . بل كان مع براءته من علم الغيب وقعوده عن طلبه وتكلفه ، يجيئه عفواً ما تعجز صروف الدهر وتقلباته في الأحقاب المتطاولة أن تنقض حرفاً واحداً مما ينبيء به ﴿ **وإنَّهُ لكتابٌ عزيزٌ** *

لا يأتيهِ الباطِلُ من بينِ يديهِ ولا من خلفهِ تنْزيلٌ من حكيمٍ حميدٍ ﴾
[سورة فصلت الآيتان : ٤١ ، ٤٢] .

[أمثلة من النبوءات القرآنية]

ولنسرد لك ها هنا بعض النبوءات القرآنية مع بيان شيء من ملابساتها التاريخية ؛ لترى هل كانت مقدماتها القريبة أو البعيدة حاضرة فتكونَ تلك النبوءات من جنس ما توحي به الفراسة والألمعية ؟ وسنحصر الكلام في ثلاثة أنواع :

١ – ما يتعلق بمستقبل الإسلام في نفسه أو في شخص كتابه ونبيه .

٢،٣ – ما يتعلق بمستقبل الحزبين : حزب الله وحزب الشيطان .

مثال النوع الأول [مستقبل الإسلام وكتابه ورسوله] :

١ – ما جاء في بيان أن هذا الدين قد كتب الله له البقاء والخلود ، وأن هذا القرآن قد ضمن الله حفظه وصيانته ﴿ **كذلكَ يَضْرِبُ اللهُ الحقَّ والباطِل فأَما الزَّبدُ فيذْهبُ جُفاءً وأمَّا مَا ينفعُ الناسَ فيمكُثُ فِي الأرضِ** ﴾ [سورة الرعد الآية : ١٧] ﴿ **ألم تَرَ كيفَ ضربَ اللهُ مثلاً كلمةً طيّبةً كشجرةٍ طيبةٍ أصلُها ثابتٌ وفرْعُها فِي السَّمَآءِ * تُؤتِي أُكُلَها كلَّ حينٍ بإذْنِ ربِّها** ﴾ [سورة إبراهيم الآيتان : ٢٤ ، ٢٥] ﴿ **إنَّا نحنُ نزَّلنا الذِّكرَ وإنَّا لَهُ لحافظُونَ** ﴾ [سورة الحجر الآية : ٩]
أتعلم متى وأين صدرت هذه البشارات المؤكدة ، بل العهود الوثيقة ؟

إنها آيات مكية من سور مكية . وأنت قد تعرف ما أمر الدعوة المحمدية في مكة ؟ ... عشر سنوات كلها إعراض من قومه عن الاستماع لقرآنه ، وصد لغيرهم عن الإصغاء له ، واضطهاد وتعذيب لتلك الفئة القليلة التي آمنت به ، ثم مقاطعة له ولعشيرته ومحاصرتُهم مدة غير يسيرة في شِعبٍ من شِعاب مكة ، ثم مؤامرات سرية أو علنية على قتله أو نفيه . فهل للمرء أن يلمح في ثنايا

هذا الليل الحالك الذي طوله عشرة أعوام ، شعاعاً ولو ضئيلاً من الرجاء أن يتنفس صبحه عن الإذن لهؤلاء المظلومين برفع صوتهم وإعلان دعوتهم ؟ ولو شامَّ المصلح تلك البارقة من الأمل في جوانب نفسه من طبيعة دعوته ، لا في أفق الحوادث ، فهل يتفق له في مثل هذه الظروف أن يربو في نفسه الأمل حتى يصير حكماً قاطعاً ؟ وهبه امتلأ رجاء بظهور دعوته في حياته مادام يتعهدها بنفسه ، فمن يتكفل له بعد موته ببقاء هذه الدعوة وحمايتها وسْطَ أمواج المستقبل العاتية ؟ وكيف يجيئه اليقين في ذلك وهو يعلم من عبر الزمان ما يفت في عضد هذا اليقين ؟ فكم من مصلح صرخ بصيحات الإصلاح فما لبثت أصواته أن ذهبت أدراج الرياح ! وكم من مدينة قامت في التاريخ ثم عفت ودرست آثارها ! وكم من نبي قتل ! وكم من كتاب فُقِد أو انتُقِص أو بُدِّل!.

وهل كان محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم ممن تستخفه الآمال فيجري مع الخيال ؟ إنه ما كان قبل نبوته يطمع في أن يكون نبياً يوحى إليه ﴿ **وَمَا كنتَ ترْجو أنْ يُلقَىٰ إليكَ الكتابُ إلا رحمةً مِن ربِّكَ** ﴾ [سورة القصص الآية : ٨٦] ولا كان بعد نبوته يضمن لنفسه أن يبقى هذا الوحي محفوظاً لديه ﴿ **وَلئِن شِئنا لنَذْهبَنَّ بالذي أوحينا إليكَ ثمَّ لا تجدُ لكَ بِهِ علينا وكيلاً * إلَّا رحمةً من ربِّكَ إنَّ فضلَهُ كانَ عليكَ كبيراً** ﴾ [سورة الإسراء الآيتان : ٧٦ ، ٨٧] .

فلابدَّ إذاً من كفيل بهذا الحفظ مِن خارج نفسه . ومن ذا الذي يملك هذا الضمان على الدهر المتقلب المملوء بالمفاجآت ؟ إلا رب الدهر الذي بيده زمام الحوادث كلها ، والذي قدر مبدأها ومنتهاها ، وأحاط علماً بمجراها ومرساها . فلولا فضل الله ورحمته الموعود بهما في الآية الآنفة لما استطاع القرآن أن يقاوم تلك الحروب العنيفة التي أقيمت ولا تزال تقام عليه بين آن وآن .

سل التاريخ : كم مرةً تنكر الدهر لدول الإسلام وتسلط الفجار على المسلمين فأثخنوا فيهم القتل ، وأكرهوا أمماً منهم على الكفر ، وأحرقوا الكتب ،

وهدموا المساجد ؛ وصنعوا ما كان يكفي القليل منه لضياع هذا القرآن كُلًّا أو بعضاً كما فُعِل بالكتب قبله ؛ لولا أن يد العناية تحرسه فبقي في وسط هذه المعامع رافعاً راياته وأعلامه . حافظاً آياته وأحكامه . بل اسأل صحف الأخبار اليومية : كم من القناطير المقنطرة من الذهب والفضة تُنفَق في كل عام لمحو هذا القرآن وصد الناس عن الإسلام بالتضليل والبهتان والخداع والإغراء ثم لا يظفر أهلها من وراء ذلك إلا بما قال الله تعالى ﴿ **إنَّ الذينَ كفروا يُنفِقُونَ أموالَهُمْ لِيَصُدُّوا عن سبيلِ اللهِ فسيُنفِقُونها ثمَّ تكونُ عليهِمْ حَسرةً ثمَّ يُغلَبونَ** ﴾ [سورة الأنفال الآية : ٣٦] .

ذلك بأن الذي يمسكه أن يزول هو الذي يمسك السماوات والأرض أن تزولا .

ذلك بأنَّ الله ﴿ **هُو الذي أرسَلَ رسولَهُ بالهدى ودينِ الحقِّ ليُظْهِرَهُ على الدينِ كلِّهِ ولو كَرِهَ المشرِكون** ﴾ [سورة التوبة الآية : ٣٣ ، سورة الصف الآية : ٩] . والله بالغ أمره ، ومتم نوره ، فظهر وسيبقى ظاهراً لا يضره من خالفه حتى يأتي أمر الله .

٢ – (ومثال آخر) ما جاء في التحدّي بهذا القرآن وتعجيز العالم كله عن الإتيان بمثله ﴿ **قلْ لَئِنِ اجتَمعتِ الإنسُ والجنّ على أن يَأتوا بمثلِ هذا القرآنِ لا يأتونَ بمثلهِ ولو كانَ بعضُهمْ لبعضٍ ظهيراً** ﴾ [سورة الإسراء الآية : ٨٨] ﴿ **فإنْ لمْ تفعلوا [ولَن تفعلوا]** ﴾ [سورة البقرة الآية ٢٤] .

فانظر هذا النفي المؤكد ، بل الحكم المؤبّد ! هلْ يستطيع عربي يدري ما يقول أن يصدر هذا الحكم وهو يعلم أن مجال المساجلات بين العرب مفتوح على مصراعيه ، وأن الناقد المتأخر متى أعمل الروية في تعقب قول القائل المتقدم لا يُعييه أن يجد فيه فائتاً ليستدرك ؛ أو ناقصاً ليكمل ، أو كاملاً ليزداد كمالاً ؟ ألم يكن يخشى بهذا التحدّي أن يثير حميتهم الأدبية فيهبّوا لمنافسته وهم جميعٌ

حذرون ؟ وماذا عساه يصنع لو أن جماعة من بلغائهم تعاقدوا على أن يضع أحدهم صيغة المعارضة ، ثم يتناولها سائرهم بالإصلاح والتهذيب كما كانوا يصنعون في نقد الشعر ، فيكمل ثانيهم ما نقصه أولهم ، وهكذا ، حتى يخرجوا كلاماً إن لم يبزه فلا أقل من أن يساميه ولو في بعض نواحيه ؟ ثم لو طوعت له نفسه أن يصدر هذا الحكم على أهل عصره فكيف يصدره على الأجيال القادمة إلى يوم القيامة ، بل على الإنس والجن ؟ إن هذه مغامرة لا يتقدم إليها رجل يعرف قدر نفسه إلا وهو مالىء يديه من تصاريف القضاء ، وخبر السماء . وهكذا رماها بين أظهر العالم ، فكانت هي القضاء المبرم سُلّط على العقول والأفواه ، فلم يهمَّ بمعارضته إلا باء بالعجز الواضح ، والفشل الفاضح . على مَرّ العصور والدهور .

٣ - (ومثال ثالث) تلك الآية التي يضمن الله بها لنبيه حماية شخصه والأمن على حياته حتى يبلغ رسالات ربه : ﴿ **يأيُّها الرسولُ بَلِّغْ ما أُنزِلَ إليكَ مِن رَبِّكَ وإن لم تَفْعَلْ فمَا بلَّغتَ رِسالتَه واللهُ يعصِمُكَ مِنَ الناسِ** ﴾ [سورة المائدة الآية : ٦٧] .

إن هذا وأيم الله ضمان لا يملكه بشر ، ولو كان مَلكاً محجّباً تسير الحفظة من بين يديه ومن خلفه . فكم رأينا ورأى الناس من الملوك والعظماء من اختطفتهم يد الغيلة وهم في مواكبهم تحيط بهم الجنود والأعوان . ولكن انظر مبلغ ثقة الرسول بهذا الوعد الحق : روى الترمذي والحاكم عن عائشة ، وروى الطبراني عن أبي سعيد الخدري قال : « **كان النبي يُحرَس بالليل ، فلما نزلت هذه الآية ترك الحرس . وقال : يأيها الناس انصرفوا فقد عصمني الله** »[1] .

(١) حديث عائشة رضي الله عنها رواه الترمذي في التفسير ٣٠٤٦ ، والحاكم ٢ / ٣١٣ وحسنه الألباني في صحيح الترمذي ٢٤٤٠ .

أما حديث أبي سعيد الخدري فلفظه « **كان عباس عم رسول الله ﷺ فيمن يحرسه فلما نزلت ﴿ واللهُ يعصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ ترك رسول الله ﷺ الحرس** » وقال عنه =

وحقاً لقد عصمه الله منهم في مواطن كثيرة كان خطر الموت فيها أقرب إليه من شراك نعله ، ولم يكن له فيها عاصم إلا الله وحده .

من ذلك ما رواه ابن حبان في صحيحه عن أبي هريرة ، ورواه مسلم في صحيحه عن جابر قال : « **كنا إذا أتينا في سفرنا على شجرة ظليلة تركناها لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم . فلما كنا بذات الرّقاع نزل نبي الله تحت شجرة وعلّق سيفه فيها . فجاء رجل من المشركين فأخذ السيف فاخترطه وقال للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم : أتخافني؟ قال : لا . قال : فمن يمنعك مني؟ قال : الله يمنعني منك . ضع السيف ، فوضعه** »[1] . وحسبك أن تعلم أن هذا الأمن كان في الغزوة التي شرعت فيها صلاة الخوف .

ومن أعظم الوقائع تصديقاً لهذا النبأ الحق ذلك الموقف المدهش الذي وقفه النبي في غزوة حنين ، منفرداً بين الأعداء ، وقد انكشف المسلمون وولوا مدبرين ، فطفق هو يَرْكُضُ بغلته إلى جهة العدو ، والعباس بن عبد المطلب آخذ بلجامها يكفّها إرادة ألا تسرع. فأقبل المشركون إلى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، فلما غَشوه لم يَفِرْ ولم ينكص بل نزل عن بغلته كأنما يمكنهم من نفسه ، وجعل يقول : « **أنا النبي لا كذب . أنا ابن عبد المطلب** » كأنما يتحداهم ويدلهم على مكانه . فوالله ما نالوا منه نيلاً ، بل أيده الله بجنده ، وكف عنه أيديهم بيده . الحديث رواه الشيخان عن البراء ابن عازب . ورواه مسلم عن

= الهيثمي في مجمع الزوائد ٧ / ١٧ : رواه الطبراني في الصغير والأوسط وفيه عطية العوفي وهو ضعيف أ هـ . وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٢ / ٥٢٩ لابن مردويه أيضاً .

(١) حديث جابر متفق عليه : رواه البخاري في المغازي ٤١٣٦ ، ومسلم في صلاة المسافرين ٣١١ .

أما حديث أبي هريرة فهو في موارد الظمآن ١٧٣٩ ، ولم أجد في الإحسان إلا حديث جابر ٢٨٨٣ .

العباس وسلمةَ بن الأكوع ، ورواه أحمد وأصحاب السنن عن غيرهم أيضاً[1] .

وهكذا أمتع الله به أمته فلم يقبضه إليه حتّى بَلَّغَ الرسالة وأدى الأمانة ، وحتى أنزل عليه قوله ﴿ **اليوم أكملْتُ لكمْ دينَكُمْ وأتممْتُ عليكمْ نِعمتي ورضيتُ لكمُ الإسلامَ ديناً** ﴾ [سورة المائدة الآية : ٣] .

وإليك مثالاً من النوع الثاني [مستقبل المسلمين : حزب الرحمن] :

١ – كان القرآن في مكة يقص على المسلمين من أنباءِ الرسل ما يثبت فؤادهم ، ويعدُهم الأمن والنصر الذي كان لمن قبلهم ﴿ **ولقدْ سَبَقتْ كلمتُنا لعبادِنا المرسَلين * إنهمْ همُ المنصورون * وإنَّ جُندَنا لَهُمُ الغالبون** ﴾ [سورة الصافات الآيات : ١٧١ – ١٧٣] ﴿ **إنَّا لَننصرُ رسلَنا والذين آمنوا في الحياةِ الدنيا ويومَ يقومُ الأشهاد** ﴾ [سورة غافر الآية : ٥١] فلما هاجروا إلى المدينة فراراً بدينهم من الفتن ظنوا أنهم قد وجدوا مأمنهم في مهاجرهم ، ولكنهم ما لبثوا أن هاجمتهم الحروب المسلحة من كل جانب ، فانتقلوا من خوف إلى خوف أشد . وأصبحت كل أمنيتهم أن يجيء يوم يضعون فيه أسلحتهم . وفي هذه الأوقات العصيبة ينبئهم القرآن بما سيكون لهم من الخلافة والملك ، علاوة على الأمن والاطمئنان ، فما هذا ؟ أأحلام وأماني ؟ لا ، بل وعد مؤكد بالقَسَم : ﴿ **وَعَدَ اللهُ الذينَ آمنوا مِنكُمْ وعملوا الصَّالِحاتِ لَيستخلِفَنَّهمْ فِي الأرضِ كما استخلفَ الذينَ مِن قَبلِهم وليُمكنَنَّ لهمْ دينَهمُ الَّذِي ارتضَى لهم وليُبدِّلَنَّهم مِن بعدِ خوفِهِمْ أمناً** ﴾ [سورة النور الآية : ٥٥] . روى الحاكم وصححه عن أبي بن كعب قال : « **لما قدم رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وأصحابُه المدينة**

---

(١) حديث البراء بن عازب متفق عليه : رواه البخاري في المغازي ٤٣١٥ ، ٤٣١٦ ، ٤٣١٧ ، ومسلم في الجهاد والسير ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ورواه الترمذي أيضاً في الجهاد .
أما حديث العباس فهو عند مسلم في الجهاد ٧٦ ، وحديث سلمة بن الأكوع عند مسلم في الجهاد ٨١ . ورواه أحمد عن عبد الله بن مسعود ١ / ٤٥٣ .

وآوَتْهُم الأنصار رمَتْهم العربُ عن قوس واحدة . وكانوا لا يبيتون إلا بالسلاح ولا يصبحون إلا فيه فقالوا : أتَرَونَ أنَّا نعيش حتى نبيتُ آمنين مطمئنين لا نخاف إلا الله ؟ فنزلت الآية »[1] وروى ابن أبي حاتم عن البراء قال : « **نزلت هذه الآية ونحن في خوف شديد** »[2] .

فانظر كيف جاء تأويلها على أوسع معانيها في عصر الصحابة أنفسهم الذين وقع لهم خطاب المشافهة في قوله ﴿ **مِنكُم** ﴾ فبُدِّلوا من بعد خوفهم أمناً لا خوف فيه ، واستُخلفوا في أقطار الأرض فورثوا مشارقها ومغاربها .

وتأمل قوله في هذه الآية﴿ **وعَمِلوا الصَّالِحاتِ** ﴾ وقوله في الآية الأخرى ﴿ **ولَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ إنَّ اللهَ لَقويٌّ عزيز * الذين إن مَكَّنَّاهم فِي الأرضِ أقامُوا الصلاةَ وآتَوُا الزكاةَ وأمَرُوا بالمعروفِ ونهَوْا عن المُنكَرِ** ﴾ [سورة الحج الآيتان : ٤٠ ، ٤١] تجد فيها نبأ آخر عن سر ما يُبتلى به المؤمنون أحياناً من انتقاص أرضهم وتسلّط أعدائهم عليهم ﴿ **أَوَلَمَّا أصابتكُم مُصيبةٌ قدْ أصَبْتُمْ مِثلَيْهَا قُلتُمْ أنَّى هذا قلْ هو مِن عندِ أنفُسِكُمْ** ﴾ [سورة آل عمران الآية ١٦٥] ﴿ **ذلكَ بأنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعمةً أنعمها علىٰ قومٍ حتى يغَيِّروا مَا بأنفسِهِمْ** ﴾ [سورة الأنفال الآية : ٥٣] .

٢ – (ومثالاً آخر) :

مُنع المسلمون من دخول مكة عام الحديبية . واشترطت عليهم قريش إذا جاءوها في العام المقبل أن يدخلوها عُزلاً من كل سلاح إلا السيوف في القُرُب . فهل كان لهم أن يثقوا بوفاءَ المشركين بعقدهم وقد بَلَوْا منهم نكث العهود

---

(١) رواه الحاكم ٢ / ٤٠١ ، وقال الهيثمي في المجمع ٧ / ٨٣ : رواه الطبراني في الأوسط ورجاله ثقات أهـ . وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٥ / ١٠٠ لابن المنذر والطبراني في الأوسط ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه والبيهقي في الدلائل ، والضياء في المختارة .

(٢) عزاه السيوطي في الدر المنثور ٥ / ١٠٠ لابن أبي حاتم وابن مردويه .

وقطع الأرحام وانتهاك شعائر الله ؟ أليسوا اليوم يحبسون هديهم أن يبلغ محلّه ؟ فماذا هم صانعون غداً ؟ على أنهم لو صدقوا في تمكين المسلمين من الدخول فكيف يأمن المسلمون جانبهم إذا دخلوا عليهم دارهم مجردين من دروعهم وقوتهم ، ألا تكون هذه مكيدة يراد منها استدراجهم إلى الفخ ؟ وآية ذلك اشتراط تجردهم من السلاح إلا السيف في القِراب ، وهو سلاح قد يطمئن به المسلمون إلى أنهم لن ينالوهم بأيديهم ورماحهم ، ولكنه لا يأمنون معه أن ينالوهم بسهامهم ونبالهم ! في هذه الظروف المريبة يجيئهم الوعد الجازم بالأمور الثلاثة مجتمعة : الدخول ، والأمن ، وقضاء الشعيرة ﴿ **لقدْ صَدَقَ اللهُ رسولَهُ الرؤيا بالحقِّ لَتَدْخُلُنّ المسجدَ الحرامَ إن شاءَ اللهُ آمِنينَ مُحلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ ومُقصِّرينَ لا تخافونَ** ﴾ [سورة الفتح الآية : ٢٧] فدخلوها في عمرة القضاء آمنين ، ولبثوا فيها ثلاثة أيام حتى أتموا عمرتهم وقضوا مناسكهم .. الحديث أخرجه الشيخان(١) .

٣ - (ومثالاً ثالثاً) : كان المشركون يجادلون المسلمين في مكة قبل الهجرة ، يقولون لهم إن الروم يشهدون أنهم أهل كتاب ، وقد غلبتهم المجوس . وأنتم تزعمون أنكم ستغلبوننا بالكتاب الذي أنزل عليكم ، فسنغلبكم كما غلبت فارس الروم فنزلت الآية ﴿ **الم * غُلِبتْ الرومُ * فِي أدنَى الأرضِ وهُم مِن بَعد غَلَبِهِم سيغلِبون * في بضعِ سنينَ** ﴾ [أول سورة الروم الآيات : ١ - ٤] .

لقد كان الإخبار بهذا النصر وبأنه كائن في وقت معين إخباراً بأمرين كل منهما خارج عن متناول الظنون . ذلك أن دولة الروم كانت قد بلغت من الضعف حداً يكفي من دلائله أنها غُزِيت في عُقر دارها وهُزمت في بلادها كما قال تعالى : ﴿ **فِي أدنَى الأرضِ** ﴾ ، فلم يكن أحد يظن أنها تقوم لها بعد ذلك قائمة ، فضلاً عن أن يحدِّد الوقت الذي سيكون لها فيه النصر . ولذلك

---

(١) سبق تخريج حديث الحديبية في ص ٣١ .

كذَّب به المشركين وتراهنوا على تكذيبه ، على أن القرآن لم يكتف بهذين الوعدين ، بل عززهما بثالث ، حيث يقول : ﴿ ويومَئِذٍ يفرحُ المؤمنونَ * بنصرِ اللهِ ﴾ [سورة الروم الآيتان : ٤ ، ٥] . إشارة إلى أن اليوم الذي يكون فيه النصر هناك للروم على الفرس سيقع فيه ها هنا نصر للمسلمين على المشركين . وإذا كان كل واحد من النصرين في حد ذاته مستبعداً عند الناس أشد الاستبعاد فكيف الظن بوقوعهما مقترنين في يومٍ ؟ لذلك أكده أعظم التأكيد بقوله : ﴿ وَعْدَ اللهِ لا يُخْلِفُ اللهُ وعدَه ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يعلمونَ ﴾ [سورة الروم الآية : ٦] .

ولقد صدق الله وعده ، فتمت للروم الغلبة على الفرس ، بإجماع المؤرخين في أقلَّ من تسع سنين[1] . وكان يوم نصرها هو اليوم الذي وقع فيه النصر للمسلمين على المشركين في غزوة بدر الكبرى ، كما رواه الترمذي عن أبي سعيد[2] ، ورواه الطبري عن ابن عباس وغيره[3] .

---

(١) رب قائل يقول : هلا حدد القرآن عدد السنين بلفظ أصرح من لفظ البضع المتراوح بين الثلاث والتسع ، أليس الله بأعلم بيوم النصر وساعته ؛ بله سنته ؟ فنقول : بلى ، ولكن الناس في اصطلاحهم الحسابي لا يجرون على طريقة واحدة ، فمنهم من يحسب بالشمس ومنهم من يحسب بالقمر ، ومنهم من يكمل الكسور ومنهم من يلغيها . فكان مقتضى الحكمة التعبير باللفظ الصادق على كل تقدير ليكون أقطع لكل شبهة ، وأبعد عن كل جدل ومكابرة . ثم أنه ربما تراخى الأمر بين بشائر النصر ووقائعه الفاصلة فيقع اختلاف الحاسبين في تعيين الوقت الذي يضاف إليه النصر والغلبة . ولذا حسن التعبير بلفظ (في بضع) دون أن يقال بعد بضع . [**دراز**] .

(٢) حديث أبي سعيد رواه الترمذي في تفسير القرآن ٣١٩٢ ، وصححه الألباني في صحيح الترمذي ٢٥٥٠ ، وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٥ / ٢٩٠ للترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه .

(٣) حديث ابن عباس رواه الترمذي أيضاً في تفسير القرآن ٣١٩٣ ، وصححه الألباني في صحيح الترمذي ٢٥٥١ ، ورواه الطبري في ٢١ / ١٦ وفي حديث أبي سعيد السابق وابن عباس ذكر موافقة غزوة بدر لانتصار الروم ، ورواه أيضاً أحمد في المسند ١ / ٢٧٦ ، ٣٠٤ دون ذكر بدر ، وللتوسع راجع الدر المنثور ٥ / ٢٨٨ .

وهذه أمثلة من النوع الثالث : [مستقبل المعاندين] :

١ - « استعصى أهل مكة على النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، فدعا عليهم بسنين كسني يوسف » . فانظر ما قاله القرآن في جواب هذا الدعاء **﴿ فَارْتَقِبْ يومَ تأتي السماءُ بدُخانٍ مُبينٍ * يَغشَى الناسَ هذا عذابٌ أليمٌ ﴾** [سورة الدخان الآيتان : ١٠ ، ١١] فماذا جرى ؟ **« أصابهم القحط حتى أكلوا العظام ، وحتى جَعَل الرجلُ ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجَهد »** . رواه البخاري عن ابن مسعود[1] . ثم انظر قوله بعد ذلك **﴿ إنَّا كاشِفُو العذابِ قليلاً ، إنَّكُمْ عائدون * يومَ نَبطِشُ البَطْشَةَ الكُبْرىٰ إنَّا**

---

(١) حديث ابن مسعود في سبب نزول سورة الدخان رواه البخاري في التفسير ٤٨٢١ ، ٤٨٢٢ وغيره ، وروله مسلم في صفة المنافقين ٣٩ ، ٤٠ .

وهناك قول آخر في تفسير الدخان ، ذهب كثير من الصحابة والعلماء إليه وهو أن الدخان آية من آيات الله تكون قبل يوم القيامة بقليل وهو من علاماته واستدلوا عليه بأحاديث منها :

* حديث أبي مالك الأشعري : قال رسول الله ﷺ : **« إن ربكم أنذركم ثلاثاً : الدخان يأخذ المؤمن كالزكمة ، ويأخذ الكافر فينتفخ حتى يخرج من كل مِسْمَع منه [أي الأُذُن] ، والثانية الدابة ، والثالثة الدجال »** . رواه الطبري ٢٥ / ١١٤ وقال عنه الحافظ ابن كثير في التفسير ٧ / ٢٣٥ : ورواه الطبراني ... به وهذا إسناد جيد أهـ . وأفاده السيوطي كذلك في الدر المنثور ٥/٧٤٥ إلا أن الحافظ ابن حجر ضعفه في الفتح ٨/٤٣٦.
* حديث عبد الله بن أبي مليكة قال : **« غدوت على ابن عباس رضي الله عنهما ذات يوم فقال : ما نمت الليلة حتى أصبحت ، قلت : لم ؟ قال : قالوا طلع الكوكب ذو الذَنب ، فخشيت أن يكون الدخان قد طرق ، فما نمت حتى أصبحت »** رواه الطبري ٢٥ /١١٣، وعزاه ابن كثير في تفسيره ٧ / ٢٣٥ لابن أبي حاتم عن ابن عباس بمثله ثم قال : وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس حبر الأمة وترجمان القرآن أهـ . وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٥ / ٧٤٤ لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم بسند صحيح .
* قال ابن عباس : **« قال ابن مسعود : البطشة الكبرى يوم بدر ، وأنا أقول هي يوم القيامة »** . رواه الطبري ٢٥ / ١١٧ وقال ابن كثير في تفسيره ٧ / ٢٣٧ عنه : وهذا إسناد صحيح عنه أهـ . وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٥ / ٧٤٥ لعبد بن حميد =

مُنتقِمونَ ﴾ [سورة الدخان الآيتان : ١٥ ، ١٦] تَرَ فيها ثلاث نبوءات أخرى :

* كشف البؤس عنهم .

* ثم عودتهم إلى مكرهم السيء .

* ثم الانتقام منهم بعد ذلك . وقد كان ذلك كله كما بينه الحديث الصحيح المذكور ، فإنهم لما جاءوا إلى رسول الله يستسقون وتضرعوا إلى الله : ﴿ **ربَّنا اكشِفْ عنَّا العذابَ إنَّا مؤمنونَ** ﴾ [سورة الدخان الآية : ١٢] سقاهم الله فأخصبوا ، ولكنهم سرعان ما عادوا إلى عتوهم واستكبارهم ، فبطش الله بهم البطشة الكبرى يوم بدر[1] ، حيث قتل من صناديدهم سبعون ، وأسر سبعون .

وقد تكرر في القرآن المكي إنباؤهم بهذا الانتقام على صور شتى :

* فتارة يأتي مُجملاً كما في قوله ﴿ **ولا يزالُ الذينَ كفروا تُصيبُهُم بما صنعوا قارعةٌ أو تَحُلُّ قريباً من دارِهِمْ حتى يأتيَ وعدُ اللهِ** ﴾ [سورة الرعد الآية : ٣١]

= وابن جرير بسند صحيح .

وأصرح من كل ذلك في إثبات أن الدخان هو آية لم تأت بعد :

* حديث أبي سريحة حذيفة بن أسيد قال : « **اطلع علينا النبي ﷺ ونحن نتذاكر ، فقال : ما تذاكرون ؟ قالوا : نذكر الساعة . قال : إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات فذكر : الدخان – والدجال – والدابة – وطلوع الشمس من مغربها – ونزول عيسى ابن مريم – ويأجوج ومأجوج – وثلاثة خسوف : خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب – وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم** » . رواه مسلم في الفتن وأشراط الساعة ٣٩ ، ٤٠ .

* وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « **بادروا بالأعمال ستاً : طلوع الشمس من مغربها ، أو الدخان ، أو الدجال ، أو الدابة ، أو خاصة أحدكم [الموت] ، أو أمر العامة [القيامة]** » . رواه مسلم في الفتن وأشراط الساعة ١٢٨ .

(١) يراجع قول ابن عباس ترجمان القرآن إن البطشة الكبرى هي يوم القيامة في هامش ص ٥٤

وقوله ﴿ **فَتَوَلَّ عَنهُمْ حتى حين * وأَبصِرهُم فسوف يُبصِرونَ** ﴾
[سورة الصافات الآيتان : ١٧٤ ، ١٧٥] .

* وتارة يعين نوع العذاب بأنه الهزيمة الحربية كما في قوله ﴿ **سيُهْزَمُ الجَمْعُ ويُوَلُّونَ الدُّبُر** ﴾ [سورة القمر الآية : ٤٥][1] . وهذا كما ترى من عجيب الأنباء في مكة . حيث لا مجال لأصل فكرة الحرب والتقاء الجموع ، فضلاً عن توقع فرارها وهزيمتها ، حتى « **إن عمر رضي الله عنه لما نزلت هذه الآية جعل يقول : أيُّ جمع هذا ؟ قال فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقولها** » . رواه ابن أبي حاتم وابن مردويه . وعجزه في الصحيحين[2] .

* وتارة ينص على حوادث جزئية محددة منه – وهذا أعجب وأغرب – كما في قوله في شأن الرجل الزنيم[3] الذي كان يقول في القرآن إنه أساطير الأولين ﴿ **سَنَسِمُهُ علىٰ الخُرْطوم** ﴾ [سورة ن الآية : ١٦] فأصيب بالسيف في أنفه يوم بدر . وكان ذلك علامة له يعيَّر بها ما عاش . رواه الطبري وغيره عن ابن عباس[4] .

---

(١) ونحوها ما ورد في سورة المزمل وهي من أوائل ما نزل في مكة ﴿ **عَلِمَ أن سيكونُ منكم مَرضىٰ وآخرون يضرِبون في الأرضِ يبتغونَ مِن فضلِ الله وآخرونَ يقاتلونَ فِي سبيلِ الله** ﴾ [سورة المزمل الآية : ٢٠] [**دراز**] .

(٢) رواه الطبري ٢٧ / ١٠٨ ، وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٦ / ١٨٤ لعبد الرازق وابن أبي شيبة وابن راهويه وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه بمثله ، أما خروج النبي ﷺ في الدرع بعد طول دعائه في القبة فأخرجه البخاري في التفسير ٤٨٧٥ ، ٤٨٧٧ ، وأحمد ١ / ٣٢٩ وهو عند مسلم باختصار في الجهاد والسير ٥٨ .

(٣) المشهور أنه هو الوليد بن المغيرة المخزومي الذي نزل فيه ﴿ **ذرني ومن خلقت وحيداً** ﴾ [سورة المدثر الآية : ١١] [**دراز**] .

– **قلت** : الزنيم : الدَّعِيّ الملزق في القوم وليس منهم . وأصل لفظة (الزنمة) هي قطعة زائدة مدلاة تكون في أذن الشاة وتحت حلقها . وقد قال ابن عباس عن الزنيم : « **هو رجل من قريش له زنمة مثل زنمة الشاة** » . رواه البخاري في التفسير ٤٩١٧ .

(٤) رواه الطبري ٢٨/٢٩ بسند ضعيف عن ابن عباس . وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٦/٣٩٤ للطبري وابن أبي حاتم وابن مردويه . ومن المعروف أن الوليد بن المغيرة قد هلك قبل بدر بزمان.

ونظير هذه الأنباء في كفّار قريش ما ورد في كفّار اليهود . انظر كيف يقول فيهم ﴿ **لنْ يَضرُّوكمْ إلّا أذىٰ وإن يُقاتلوكمْ يُوَلُّوكمُ الأدبارَ ثم لا يُنصَرونَ** ﴾ [سورة آل عمران الآية : ١١١] ، وقد فعل . ثم يقول ﴿ **ضُرِبَتْ عليهِمُ الذِّلَّةُ أينما ثُقِفُوا إلا بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وحَبْلٍ مِنَ الناسِ** ﴾[1] [سورة آل عمران الآية : ١١٢] . ويقول ﴿ **وإذْ تأذَّنَ رَبُّكَ لَيبعَثَنَّ عليهِم إلىٰ يوم ِ القِيامَةِ مَن يَسومُهم سوءَ العذاب** ﴾ [سورة الأعراف الآية : ١٦٧] .

فيا عجباً لهذه الآيات ! هل كانت مؤلفة من حروف وكلمات ؟ أم كانت أغلالاً وضعت في أعناقهم إلى الأبد ، وأصفاداً شدَّت بها أيديهم فلا فكاك ؟ ألا تراهم منذ صدرت عليهم هذه الأحكام أشتاتاً في كل واد ، أذلاء في كل نادٍ ، لم تقم لهم في عصر من العصور دولة ، ولم تجمعهم قَطّ بلدة . وهم اليوم على الرغم من تضخم ثروتهم المالية إلى ما يقرب من نصف الثروة العالمية لا يزالون مشرَّدين ممزَّقين عاجزين عن أن يقيموا لأنفسهم دويلة كأصغر

---

(١) قال الآلوسي في روح المعاني ٤ / ٢٩ :
أي لا يسلَمون من الذلَّة في حال من الأحوال إلا أن يكونوا معتصمين بذمة الله تعالى أو كتابه الذي آتاهم وذمة المسلمين فإنهم بذلك يَسلَمون من القتل والأسر وسبي الذراري واستئصال الأموال أ هـ [باختصار] .

وقال صاحب التحرير والتنوير ٤ / ٥٥ :
ومعنى ضرب الذلة اتصالها بهم وإحاطتها ، شبهت الذلة بقبة أو خيمة شملتهم ، ﴿ **ثقفوا** ﴾ في الأصل أُخِذوا في الحرب ، والمعنى هنا : أينما عثر عليهم ، أي هم لا يوجدون إلا محكومين لشدة ذلهم وقوله ﴿ **إلا بحبل من الله وحبل من الناس** ﴾ عهد الله ذمته ، وعهد الناس حلفهم ونصرهم . والمعنى لا يسلمون من الذلة إلا إذا تلبسوا بعهد من الله ، أي ذمة الاسلام أو إذا استنصروا بقبائل أولي بأس شديد ، وأما هم في أنفسهم فلا نصر لهم . وهذا من دلائل النبوة فإذا اليهود كانوا أَعِزَّة بيثرب وخيبر والنضير وقريظة فأصبحوا أَذِلَّة ، وعمّتهم المذَلَّة في سائر أقطار الدنيا أ هـ [باختصار] .

الدويلات[1] . بل تراهم في بلاد الغرب المسيحية يسامون أنواع الخسف والنكال ، ثم تكون عاقبتهم الجلاء عنها مطرودين . وبلاد الإسلام - التي هي أرحبُ أرضِ اللهِ صدراً - إنما تقبلهم رعيةً محكومين لا سادةً حاكمين .

وهل أتاك آخر أنبائهم ؟

لقد زينت الآن لهم أحلامهم أن يتخذوا من (الأرض المقدسة) وطناً قومياً تأوي إليه جالياتهم من أقطار الأرض ، حتى إذا ما تألف منهم هنالك شعب ملتئم الشمل وطال عليهم الأمد فلم يزعجهم أحد ، سعوا إلى رفع هذا العار التاريخي عنهم بإعادة ملكهم القديم في تلك البلاد . وعلى برق هذا الأمل أخذ أفواج منهم يهاجرون إليها زرافاتٍ ووحداناً ، وينزلون بها خفافاً أو ثقالاً .. فهل استطاعوا أن يتقدموا هذه الخطوة الأولى - أو لعلها الأولى والأخيرة - مستندين إلى قوتهم الذاتية ؟ كلا . ولكن مستندين إلى (حبل من الناس !!) فماذا تقول ؟ قل : صدق الله ، ومن أصدق من الله حديثاً . أما ظنهم الذي يظنون وهو أنهم بمزاحمتهم للسكان في أرضهم وديارهم يمهدون لما يحلمون به من مزاحمتهم بعد في مُلكهم وسلطانهم فذلك ما دونه خرط القتاد . يريدون أن يبدلوا كلام الله ، ولا مبدِّل لكلماته[2] ﴿ **أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ المُلْكِ فإذاً لا يُؤتونَ الناسَ نَقيراً** ﴾ [سورة النساء الآية : ٥٣] والله من ورائهم محيط .

---

(١) كتب الأستاذ دراز رحمه الله غالب هذا الكتاب قبيل سنة ١٩٣٣م كما في المقدمة ، في وقتٍ لم يكن أشد المسلمين تشاؤماً ليتخيل أنه في خمس عشرة سنة فقط ستظهر الدولة اليهودية حقيقة مؤلمة من حقائق هذه المنطقة ، وفي أقل من عقدين من اغتصاب فلسطين ستنزل بالجيوش العربية مجتمعة هزيمة نكراء ليس لها مثيل في التاريخ الحديث ، وتستولي على القدس والضفة الغربية وشبه جزيرة سيناء والجولان . ثم تنطلق مُعربِدةً شرقاً وغرباً . كل ذلك يتم بحبلٍ من الناس ... نعم ولكن أمام غثاءٍ كغثاء السيل وهم مسلمو هذه الأيام . ولا حول ولا قولا إلا بالله .

(٢) هنا استدراك على كلام الأستاذ دراز رحمه الله بخصوص هذه الكلمات ، فبالتأمل في =

= سورة الإسراء حيث يقول الله تعالى ﴿ **وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدنّ في الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيراً * فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً * ثم رددنا لكم الكَرَّةَ عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً * إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيراً * عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً** ﴾ [سورة الإسراء الآيات : ٤ - ٨] . وبالنظر في التفاسير واختلافها نجد مايأتي :

* قال صاحب التحرير والتنوير (١٥ / ١٨ وما بعدها) ما حاصله :

الكتاب المذكور في الآيات هو أسفار أشعياء وأرمياء وهي في الدرجة الثانية من التوراة وتشير الآيات إلى حوادث عظيمة بين بني إسرائيل وأعدائهم من أمتين عظيمتين وهما : البابليين والرومان .

- **المرة الأولى** : هي الأسر البابلي على أيدي بختنصر وغيره ٦٠٦ ق.م ، ٥٩٨ ق.م وهو أعظم مما قبله ، ٥٨٨ ق.م وفيه تم سبي كل شعب يهوذا وإحراق هيكل سليمان وتُرِكَت أورشليم [القُدس] خراباً .

- **المرة الثانية** : هي سلسلة غزوات الرومان بعد إنذارات لهم من أنبيائهم : مَلَّاخي ، زكريا ، يحيى ، عيسى . وقد دانت لهم الأرض من ٥٣٠ ق.م حتى ٣٣٠ ق.م ثم ضعف حكمهم تدريجياً حتى دخلوا تحت حكم الرومان في سنة ٤٠ ق.م ، ثم حاولوا الخروج عليهم فأباد منهم تيتوس الروماني خلقاً كثيراً واسترقّ وسبى ، ثم كانت الضربة القاصمة لليهود على يد أدريانوس الروماني سنة ١٣٥ م أهـ .

* وذهب غالب المفسرين إلى أن الإفسادين الإسرائيليين المذكورين في الآيات السابقة قد مضيا منذ زمن قبل بعثة رسول الله ﷺ (على خلاف فيمن هو صاحب القضاء على الإفساد الأول : جالوت الجزري أو سنحاريب ملك الموصل أو بختنصر ملك بابل ، ومن هو صاحب القضاء على الإفساد الثاني : بختنصر البابلي أو الإسكندر المقدوني أو ملك خردوش أو الرومان) .

* ولكن ذهب بعض أئمة التفسير (مثل الطبري ١٥ / ٤٤ ، ابن الجوزي ٥ /١١ ، الآلوسي ١٥ / ٢١) إلى أن بني إسرائيل لما عادوا إلى الإفساد في عهد رسول الله ﷺ كان ذلك داخلاً في قوله تعالى ﴿ **وإن عدتم عدنا** ﴾ أي أن الإفساد سيتكرر منهم ولن يقتصر =

= على المرتين المعروفتين . ومن ذلك ما ذهب إليه قتادة حيث قال : عاد القوم – أي اليهود – بشر ما يحضرهم ، فبعث الله عليهم ما شاء أن يبعث من نقمته وعقوبته ، ثم كان ختام ذلك أن بعث الله عليهم هذا الحيّ من العرب ، فهم في عذابٍ منهم إلى يوم القيامة ، قال الله عزّ وجلّ في آية أخرى ﴿ **وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب** ﴾ الآية [سورة الأعراف الآية : ١٦٧] فبعث الله عليهم هذا الحيّ من العرب . وقال قتادة أيضاً ﴿ **عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا** ﴾ فعادوا ، فبعث الله عليهم محمداً ﷺ ، فهم يعطون الجزية عن يدٍ وهم صاغرون . وذهب إلى هذا ابن عباس في إحدى رواياته وكذلك عبد الرحمن بن زيد بن أسلم أيضاً .

* **قلت:** ومما يقوي هذا الرأي ما ذكره الطبري وابن الجوزي أن ﴿ **عسى** ﴾ من الله واجبة ، وقد نقل السيوطي في الإتقان ٢ / ٢٤١ عن ابن أبي حاتم والبيهقي وغيرهما من حديث ابن عباس قال : (كل ﴿ **عسى** ﴾ في القرآن فهي واجبة) . ونقل السيوطي عن الشافعي قوله :(يقال ﴿ **عسى** ﴾ من الله واجبة) .

* وقال الآلوسي في روح المعاني ١٥ /٢١ : وقد عادوا – أي اليهود – بتكذيب النبي ﷺ وقصدهم قتله ، فعاد الله بتسليطه ﷺ عليهم : فقتل قريظة وأجلى بني النضير وضرب الجزية على الباقين .

* ومن الغريب اتفاق جمهور المفسرين على أن الإفسادين الإسرائيليين قد مضيا قبل بعثة رسول الله ﷺ كما سبق بيانه ، مع عدم وجود نص قاطع صريح في ذلك في الآيات من سورة الإسراء أو غيرها أو في أحاديث رسول الله ﷺ لتعيين هذين الإفسادين ومن ثم يمكن القطع بمضيهما ، بل يحتمل النص القرآني مضيهما من قبل ، ويحتمل أيضاً مضي أحدهما وأن الآخر لَمَّا يأت بعد ، ويحتمل أنهما لم يأتيا بعد [وقت نزول القرآن على رسول الله ﷺ بمكة ، لأن سورة الإسراء مكية] .

* وهناك رأي آخر يذهب أصحابه إلى مضي أحد الإفسادين الإسرائيليين ، وعدم مجيء الآخر بعد ، أما الكتاب الأول الذي يذكر فيه هذا الرأي فهو كتاب : الجماعات الإسلامية لسليم الهلالي وزياد الدبيج الطبعة الثانية سنة ١٩٨١ (ص ٥٦ وما بعدها) وملخص هذا الرأي هو :

– الآيات تثبت إفسادين لبني إسرائيل ، بينما التاريخ يبين أنهم قد أفسدوا كثيراً ولم يثبت لهم كرةً على من سامهم العذاب . ... =

= – لفظ ﴿ **إذا** ﴾ تفيد معنى الظرفية والشرطية في المستقبل لا الماضي .
– الاستقبال في ﴿ **لتفسدنّ** ﴾ فاللام والنون للتوكيد في المستقبل .
– ﴿ **وكان وعداً مفعولاً** ﴾ : الوعد فيما يُستقبل .
– الذين ساموا بني إسرائيل العذاب من قبلُ لم يكونوا مؤمنين ، وهذا خلاف لفظ ﴿ **عباداً لنا** ﴾ .
– هل للقوم الذين أذلوا اليهود من قديم وجود الآن يمكن أن يَكِرّوا به على اليهود .
– في نهاية الإفساد الأول سيكون تدمير مبانٍ عاليةٍ شاهقة بدليل ﴿ **ويتبروا ما علوا تتبيراً** ﴾ .
– ﴿ **وجعلناكم أكثر نفيراً** ﴾ : الملاحظ أن النفير الآن أكثر عند اليهود .
– الفاء ، ثم في الآيات : تفيد أن ردّ الكرة سيكون بعد فترة طويلة ، وأن الإفساد لا يستمر كثيراً (من دلالة الفاء) .
– وجود إفساد عظيم لليهود حالياً في كل المجالات .
– التعبير القرآني في الدخول الثاني : بدخول المسجد الحرام ، وفي المرة الأولى بدون ذلك لأن الدخول الأول قد انقطع بالاحتلال اليهودي للقدس .
– دلالة ﴿ **لفيفاً** ﴾ في ﴿ **فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً** ﴾ [سورة الإسراء الآية : ١٠٤] ومن يلاحظ الهجرة اليهودية إلى أرض فلسطين حالياً سيجد مصداق كلام الله سبحانه .

(هذا ملخص الرؤية الأولى ، ويلاحظ عليه تحميل بعض الألفاظ ما لا تحتمل في العربية ، إلا أنها رؤية لها قيمتها بالنظر إلى :

أ – عدم قطعية النص القرآني وغياب النص كذلك في أحاديث رسول الله ﷺ .
ب – العلو الظاهر والإفساد الشديد من اليهود حالياً مما هو أضعاف إفسادهم السابق .
جـ – بعض الأدلة الجيدة المستفادة من الآيات : لفيفاً – نفيراً – حروف العطف ..
د – عدم سبق هذه الرؤية ، مما يجعلها تحتاج مزيد تنقيح وإعادة نظر .

وفي النهاية يدور صاحب هذه الرؤية بين أجر المجتهد المصيب أو المجتهد المخطيء وكلاهما مثابٌ إن شاء الله) .

* أما الكتاب الثاني الذي يرى صاحبه رؤية قريبة من السابقة فهو كتاب الأساس في التفسير لصاحبه سعيد حوى (جـ٦ ، ص ٣٠٣٦ وما بعدها ، الطبعة الأولى سنة ١٩٨٥) وملخصه :
– الإفساد من بني إسرائيل كثير ولكن الإفساد المقترن بعلوٍ كبيرٍ ودولةٍ قليل ، فقد يكون لهم علو ودولة بدون فساد كما في عهد داود وسليمان عليهما السلام .
– ما فيه الآن بنو إسرائيل نموذج للعلو مع الفساد ، فلهم دولة قائمة مُفسِدة .
– يحتمل أن يكون بختنصر موحداً لله سلطه الله على اليهود [هذا بخصوص من يحمل =

= دخول الأوائل على أنهم سيدخلونه مرةً ثانية] أي أن بختنصر الموحد قد دخله أولاً ثم سيدخله المسلمون ثانية . .

- لفظ ﴿ **الآخرة** ﴾ في قوله ﴿ **فإذا جاء وعد الآخرة** ﴾ يحتمل أن يكون في القيامة ، ويحتمل أن يكون في العلو الثاني قبل الإهلاك .
- الإفسادة الأولى هي التي سُلِّط عليهم فيها بختنصر حيث رافقها طغيان وبغي ، ولم يسبق لبني إسرائيل تدمير واضح وهلاك شديد بمثله .
- احتمال أن تكون الإفسادة الثانية هي ما نعيشه نحن الآن (مع الاستئناس بلفظ ﴿ **الآخرة** ﴾ ولفظ ﴿ **لفيفاً** ﴾ مع ملاحظة قوله تعالى ﴿ **وقطعناهم في الأرض أمماً** ﴾ [سورة الأعراف الآية : ١٦٨] ، فإن كان كذلك ، فيكون معنى الآية : أنه في الإفساد الثاني جئنا بكم إلى فلسطين ﴿ **لفيفاً** ﴾ ، وعندئذٍ يتسلط عليهم من سُلِّط عليهم من قبل وهم المسلمون (بافتراض إسلام بختنصر) .
- ﴿ **وجعلناكم أكثر نفيراً** ﴾ حيث المُشاهَد قدرة إسرائيل الآن على حشد جيش كبير ، واستنفار العالم كله لأجلها .
- وهناك فهم آخر للآيات :

باعتبار الإفساد الأول هو محاولتهم الوقوف في وجه الإسلام ثم كان الهلاك الأول تسليط الله للمسلمين عليهم وعلى ديارهم في المدينة وخيبر وفدك وتيماء وغيرها ، ثم كان العلو الثاني والإفساد بعد مئات السنين فأصبحوا أغنياء يستطيعون استنفار العالم كله ، ثم يسوء المسلمون وجوههم ويستردون المسجدالأقصى كما دخلوه أول مرةٍ في عهد عمر .

- ويلاحظ أن قوله تعالى ﴿ **وإن عدتم عدنا** ﴾ وعيد من الله تعالى لهم بأنه سيسلط عليهم عباداً له في كل مرةٍ يبغون فيها ويعلون ويفسدون .
- ويرجح أن قوله ﴿ **وقلنا من بعده** ﴾ أي من بعد موسى ﴿ **لبني إسرائيل اسكنوا الأرض** ﴾ كل الأرض متفرقين ﴿ **فإذ جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً** ﴾ أي جميعاً إلى فلسطين ، حيث إنه من المعلوم أن الشتات الشامل لبني إسرائيل كان بعد عودتهم من بابل ، فالتسليط الأول بختنصر ، والثاني هو المتوقع الآن . أهـ باختصار.

* ومن خلال ما سبق ينبغي علينا أن نتعظ ونعتبر مما حدث لبني إسرائيل :

فعندما أنزل الله الوحي على بني إسرائيل فقبلوه كان في ذلك صلاحهم وفلاحهم. ثم تطاول عليهم الأمد فكفروا وطغوا فاستحقوا عقاب الله الذي قد يأتي بأيدي أقوامٍ لاخلاق لهم. ثم تابوا وأصلحوا فرفع الله البلاء عنهم . فلنتذكر جميعاً قوله تعالى ﴿ **وإن عدتم** =

فانظر إلى عجيب شأن النبوءات القرآنية كيف تقتحم حجب المستقبل قريباً وبعيداً ، وتتحكم في طبيعة الحوادث توقيتاً وتأبيداً ، وكيف يكون الدهر مصداقاً لها فيما قل وكثر ، وفيما قرب وبعد ؟

بل انظر إلى جملة ما في القرآن من النواحي الإخبارية كيف يتناول بها محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم ما وراء حسه وعقله من أنباء ما كان وما سيكون وما هو كائن ، وكيف أنه كلما حدثنا فيها عن الماضي صدقته شواهد التاريخ ، وكلما حدثنا عن المستقبل صدقته الليالي والأيام ، وكلما حدثنا عن الله وملائكته وشئون غيبه صدقته الأنبياء والكتب .

ثم اسأل نفسك بعد ذلك ***أترين هذا الرجل الأمي جاء بهذا الحديث كله من عند نفسه ؟*** .

تسمع منها جواب البديهة الذي لا تردد فيه (إنه لابد أن يكون قد استقى هذه الأنباء من مصدر علمي وثيق واعتمد فيها على اطلاع واسع ودرس دقيق . ولا يمكن أن تكون تلك الأنباء كلها وليدة عقله وثمرة ذكائه وعبقريته) وإلا فأين هذا الذكي أو العبقري الذي أعطاه الدهر عهداً بأن يكون عاصماً لظنونه

= **عدنا** ﴾ .

* وقد أنزل الله على هذه الأمة الإسلام ورضاه لها ديناً وللبشرية جميعاً حتى قيام الساعة وأمرهم بالدخول في الدين كله ﴿ **يأيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان** ﴾ [البقرة الآية : ٢٠٨] . فعظموا أمر ربهم فأخرجهم الله من الظلمات إلى النور وجعلهم خير أمةٍ أخرجت للناس وجعلهم أعزّ الناس.ثم ركنوا إلى الدنيا واتبعوا خطوات الشيطان وابتعدوا عن وحي الرحمن في علمهم وإعلامهم وسياستهم واقتصادهم وأخلاقهم وتربيتهم ، فسلّط الله عليهم إخوان القردة والخنازير يأخذون أرضهم منهم ويسقونهم الذلّ . وجاءت أمم الأرض كلها تصيب من المأدبة ؛ وتسلّط عليهم الذل والهوان . وفي هذا إنذار إلهي حتى يرجع المستهتر ، ويتوب العاصي،ويفيق الغافل فتنهض الأمة مرة ثانية وتحقق رسالتها ﴿ **الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور** ﴾ [سورة الحج الآية : ٤١] .

كلها من الخطأ في كشف وقائع الماضي مهما قدُم وأنباء المستقبل مهما بعد ؟

[د – النبي بدون الوحي
قد يخطيء ظنه أحياناً رغم ذكائه وفطنته]

إن الأنبياء أنفسهم – وهم في الطبقة العليا من الذكاء والفطنة بشهادة الكافة – لم يظفروا من الدهر بهذا العهد في أقرب الحوادث إليهم فقد كانوا فيما عدا تبليغ الوحي إذا اجتهدوا رأيهم فيما غاب عن مجلسهم أصابت فراستهم حيناً وأخطأت حيناً . هذا يعقوب عليه السلام نراه يتهم بنيه حين جاءوا على قميصه بدم كذب ، ثم يعود فيتهمهم حين قالوا له إن ابنك سرق ، فيقول لهم في كل مرة ﴿ **بَلْ سَوَّلَتْ لكمْ أنفُسُكم أمراً فصَبرٌ جميل** ﴾ [سورة يوسف الآية : ١٨ ، الآية ٨٣] . وقد أصاب في الأولى ولكنه في الثانية اتهمهم وهم بُرآءُ وهذا موسى عليه السلام نراه يقول للعبد الصالح ﴿ **ستَجِدُني إن شاءَ اللهُ صابراً ولا أعصِي لكَ أمراً** ﴾ [سورة الكهف الآية : ٦٩] . ثم ينسى فلا يطيق معه صبراً ولا يطيع له أمراً .

وهذا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم ربما همَّ الناس أن يضللوه في الأحكام ، فيدافع عن المجرم ظناً أنه بريء ، حتى ينبئه العليم الخبير .

فإن كنت في شك من ذلك فاقرأ قوله تعالى ﴿ **ولا تَكنْ للخائنينَ خصِيماً * واستغفرِ اللهَ إن اللهَ كانَ غفوراً رحيماً** ﴾ [سورة النساء الآيتان : ١٠٥ ، ١٠٦] . وقد صح في سبب نزولها : « **أن لصّاً عدا ذات ليلة على مَشْرَبَةٍ**[1] **لرجلٍ من الأنصار يقال له رفاعة ، فنقب مشربته وسرق ما فيها من طعام وسلاح . فلما أصبح الأنصاري افتقد متاعه حتى أيقن أنه في بيت بني أبيرق وكان فيهم منافقون فبعث ابن أخيه إلى النبي يشكو إليه . فقال صلى الله عليه**

---

(١) مَشْرَبَة : غُرْفَة .

وعلى آله وسلم : سأنظر في ذلك . فلما سمع بذلك بنو أبيرق جاءوا إلى النبي فقالوا: يارسول الله ، إن قتادة بن النعمان وعمّه رفاعة عمدًا إلى أهل بيت منا أهل إسلام وصلاح يرمونهم بالسرقة من غير بينة ولا ثَبْت . فجاء قتادة فقال له النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم : يا قتادة عَمَدت إلى أهل بيتٍ ذُكر منهم إسلام وصلاح ترميهم بالسرقة على غير ثَبْت وبينة ! فرجع قتادة إلى عمه فأخبره ، فقال عمه : الله المستعان . ثم لم تلبث أن نزلت الآية تبين للنبي خيانة بني أبيرق ، وتأمره بالاستغفار مما قال لقتادة » . الحديث رواه الترمذي ، وقال الحاكم صحيح على شرط مسلم[1] .

بل اسمع قوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم عن نفسه فيما يرويه أحمد وابن ماجه : « **إنما أنا بشر مثلكم ، وإن الظن يخطيء ويصيب . ولكن ما قلت لكم قال الله فلن أكذب على الله** »[2] وقوله « **إنما أنا بشر . وإنكم تختصمون إليَّ . فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأحسبَ أنه صادق فأقضيَ له على نحو ما أسمع . فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار . فليأخذها أو ليتركها** » رواه مالك والشيخان وأصحاب السنن[3] . فمن كان هكذا عاجزاً بنفسه عن إدراك حقيقة ما وقع بين خصمين في زمنه وفي بلده وقد رأى أشخاصهما وسمع أقوالهما هو بلا شك أشد عجزاً عن إدراك ما فات وما هو آت .

تلك هي شقة الغيب تنطفيء عندها مصابيح الفِراسة والذكاء ، فلا يدنو

---

(١) رواه الترمذي في التفسير ٣٠٣٦ ، والحاكم في المستدرك ٤ / ٣٨٥ ، والطبري ٥ / ٢٦٥ وحسنه الألباني في صحيح الترمذي ٢٤٣٢ .

(٢) رواه أحمد ١ / ١٦٢ ، ١٦٣ عن طلحة ، وابن ماجه في الرهون ٢٤٧٠ . قلت : وهو عند مسلم في الفضائل ١٣٩ ، ١٤٠ من حديث طلحة ورافع بن خديج .

(٣) متفق عليه : رواه البخاري في الحيل ٦٩٦٧ وفي الأحكام ٧١٦٩ ، ٧١٨١ ، ٧١٨٥ ، ورواه مسلم في الأقضية ٥ ، ومالك في الأقضية ١ .

العقل منها إلا وهو حاطب ليل[1] وخابط عشواء[2] : إن أصاب الحق مرة أخطأه مرات ، وإن أصابه مرات أخطأه عشرات . على أن الذين يصادفه من الصواب لا يمكن الوثوق ببقائه معصوماً من التغيير والتبديل بل عسى أن تذهب به ريح المصادفة كما جاءت به ريح المصادفة ﴿ **ولوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غيرِ اللهِ لوَجدُوا فيهِ اختلافاً كثيراً** ﴾ [سورة النساء الآية : ٨٢] .

* * *

[المرحلة الثانية من البحث : بيان أن محمداً ﷺ لابد أن يكون أخذ القرآن عن معلم والبحث في الأوساط البشرية عن ذلك المعلم]

لا مناص إذاً للباحث عن مصدر القرآن من توسيع دائرة بحثه ، فإذ لم يظفر بمطلبه عند صاحب القرآن في ناحية عقله وفراسته ، وجب أن يلتمسه – وأن يظفر به حتماً – في ناحية تعليمه ودراسته ؛ لأن المتكلم بكلام ما لا يعدو أن يكون قائلاً له أو ناقلاً . ولا ثالث لهما .

نعم إن صاحب هذا القرآن لم يكن ممن يرجع بنفسه إلى كتب العلم ودواوينه ، لأنه باعتراف الخصوم كما ولد أمياً نشأ أمياً وعاش أمياً ، فما كان يوماً من الأيام يتلو كتاباً في قرطاس[3] ولا يخطه بيمينه . فلابد له من معلم يكون قد وقفه على هذه المعاني لا بطريق الكتابة والتدوين بل بطريق الإملاء والتلقين . هذا هو حكم المنطق .

---

(١) حاطب ليل : جامع الحطب ليلاً لا يبصر ما يجمعه ، فربما جمع أفعى ولا يراها ، وغالباً تستخدم هذه العبارة فيمن يخلط في كلامه .

(٢) خابط عشواء : جاهل ، والعشواء هي الناقة ضعيفة البصر ، تخبط إذا مشت لا تتوقى شيئاً .

(٣) قِرطَاس : صَحيفَة .

ستقول : فمن هو ذلك المعلّم ؟

نقول : هذا هو الشطر الثاني من مسألة القرآن .

وأنت إذا تأملت فيما سقناه لك من البراهين على الشطر الأول وجدت بجانب كل منها برهاناً آخر على هذا الشطر الثاني وعرفت من هو ذلك المعلم ؟ غير أننا نحب أن نزيدك به معرفة حتى تقول معنا فيه : ***ما هذا بشراً ، إن هذا إلا ملك كريم ، مبلّغ عن رب العالمين .***

* * *

[البحث عنه بين الأميين :
لا يكـون الجهـل مصـدراً للعلـم]

أمّا أن محمداً صلى الله عليه وعلى آله وسلم لم يكن له معلم من قومه الأميين فذلك ما لا شبهة فيه لأحد ، ولا نحسب أحداً في حاجة إلى الاستدلال عليه بأكثر من اسم (الأمية) الذي يشهد عليهم بأنهم كانوا خرجوا من بطون أمهاتهم لا يعلمون من أمر الدين شيئاً . وكذلك اسم (الجاهلية) الذي كان أخص الألقاب بعصر العرب قَبل الإسلام . فهؤلاء الذين فقدوا أساس هذا العلم في أنفسهم حتى اشتُقّ لهم من الجهل اسم ، كيف يحملون وسام التعليم فيه لغيرهم ، بله التعليم لمعلمهم الذي وسمهم بالجهل غير مرة في كتابه ، وسرد جهالاتهم في غير سورة من هذا الكتاب ، حتى قيل (إذا سرّك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما بعد المائة من سورة الأنعام) .

[البحث عنه بين أهل العلم]

وأما أنه لم يكن له معلم من غيرهم فحسب الباحث فيه أن نحيله على التاريخ وندعه يقلب صفحات القديم منه والحديث . والإسلامي منه والعالَمي ، ثم نسأله هل قرأ فيه سطراً واحداً يقول إن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب

لقي قبل إعلان نبوته فلاناً من العلماء فجلس إليه يستمع من حديثه عن علوم الدين ، ومن قصصه عن الأولين والآخرين ؟

ليس علينا نحن أن نقيم برهاناً أكبر من هذا التحدي لإثبات أن ذلك لم يكن ، وإنما على الذين يزعمون غير ذلك أن يثبتوا أن ذلك قد كان . فإن كان عندهم علم فليخرجوه لنا إن كانوا صادقين .

لا نقول إنه عليه السلام لم يلقَ و لم ير بعينه أحداً من علماء هذا الشأن لا قبل دعوى النبوة ولا بعدها . فنحن قد نعرف أنه رأى في طفولته راهباً اسمه بَحِيراً في سوق بُصَرى بالشام[1] ، وأنه لقي في مكة نفسها عالماً اسمه

---

(١) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه : « **خرج أبو طالب إلى الشام ، وخرج معه النبي ﷺ في أشياخ من قريش ، فلما أشرفوا على الراهب هبطوا فحلوا رحالهم ، فخرج إليهم الراهب وكانوا قبل ذلك يمرون به فلا يخرج إليهم ولا يلتفت . قال : فهم يحلون رحالهم ، فجعل يتخللهم الراهب حتى جاء فأخذ بيد رسول الله ﷺ قال : هذا سيد العالمين ، هذا رسول رب العالمين ، يبعثه الله رحمة للعالمين ، فقال له أشياخ من قريش : ما علمك ؟ فقال : إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق شجر ولا حجر إلا خرَّ ساجداً ولا يسجدان إلا لنبي وإني أعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف كتفه مثل التفاحة ، ثم رجع فصنع لهم طعاماً ، فلما آتاهم به ، وكان هو [أي رسول الله ﷺ] في رعية الإبل ، قال : أرسلوا إليه . فأقبل وعليه غمامة تظله ، فلما دنا من القوم وجدهم قد سبقوه إلى فيء الشجرة ، فلما جلس مال فيء الشجرة عليه ، فقال : انظروا إلى فيء الشجرة مال عليه ...** » . رواه الترمذي في المناقب ٣٦٢٠ ، وصححه الألباني في فقه السيرة ص ٧٠ ، وصحيح الترمذي ٢٨٦٢ ، وقد جمع السيوطي في كتاب الخصائص الكبرى ثماني روايات عن هذه الحادثة ١ /١٤١ - ١٤٦ .

ويلاحظ في كل روايات هذه القصة [قصة الراهب بحيرا] أنه هو الذي كان يسائل رسول الله ﷺ عن أحواله وصفاته ونومه وهيئته وأموره وكان الراهب يتثبت من علامات معينة في رسول الله ﷺ . وليس في أي رواية أن الرسول ﷺ قد سأله أو تعلم منه حرفاً واحداً فضلاً عن علم جم .

ورَقة بن نوفل[1] ، وكان هذا على إثر مجيء الوحي العلني له وقبل إعلان نبوته بثلاثين شهراً . كما نعرف أنه لقيَ بعد إعلان نبوته كثيراً من علماء اليهود والنصارى في المدينة . ولكننا ندعي دعوى محدودة ، نقول : إنه لم يتلق عن أحد من هؤلاء العلماء لا قبل ولا بعد ، وإنه قبل نبوته لم يسمع منهم شيئاً من هذه الأحاديث البتة .

أما الذين لقوه بعد النبوة فقد سمع منهم وسمعوا منه . ولكنهم كانوا له سائلين وعنه آخذين ، وكان هو لهم معلماً وواعظاً ومنذراً ومبشراً .

وأما الذين رآهم قبل فإن أمر لقائه إياهم لم يكن سرّاً مستوراً ، بل كان معه في كل مرة شاهد : فكان عمه أبو طالب رفيقاً له حين رأى راهب الشام ، وكانت زوجُه خديجة رفيقة له حين لقي ورقة . فماذا سمعه هذان الرفيقان من علوم الأستاذين ؟ هلّا حدثنا التاريخ بخبر ما جرى ؟ وما له لا يحدثنا هذا الحديث العَجَب الذي جمع في تلك اللحظة القصيرة علوم القرآن وتفاصيل أخباره فيما بين بداية العالَم ونهايته !! ولماذا لم يتخذ خصومه من هذه الحجة الواضحة سلاحاً قاطعاً لحجته مع شدة سعيهم في هدم دعواه ، والتجائهم لأوهن الشبهات في تكذيبه ، وقد كان هذا السلاح أقرب إليهم ، وكان وحده أمضى في إبطال أمره من كل ما لجئوا إليه من مهاترة ومكابرة .

---

(١) هو ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب ، وهو أحد أربعة رجال من قريش نبذوا عبادة الأوثان في الجاهلية ، وضربوا في الأرض يطلبون دين إبراهيم وهم زيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل وعثمان بن الحويرث وعبيد الله بن جحش . وقد استحكم ورقة في النصرانية واتبع الكتب من أهلها حتى علم علماً من أهل الكتاب ، وهو ابن عم أم المؤمنين خديجة بنت خويلد رضي الله عنها . وقال الحافظ ابن حجر في فتح الباري ١ / ٣٤ : فأما ورقة فأعجبه دين النصرانية فتنصر ، وكان لقي من بقي من الرهبان على دين عيسى ولم يبدل ، ولهذا أخبر بشأن النبي ﷺ والبشارة به ، إلى غير ذلك مما أفسده أهل التبديل أ هـ .

إن سكوت التاريخ عن ذلك كله حجة كافية على عدم وجوده ؛ لأنه ليس من الهَنات الهيّنات التي يتغاضى عنها الناس الواقفون لهذا الأمر بالمرصاد .

على أن التاريخ لم يسكت ، بل نبأنا بما كان من أمر الرجلين : فقد حدثنا عن راهب الشام أنه لما رأى هذا الغلام رأى فيه من سيما النبوة الأخيرة وحليتها في الكتب الماضية ما أنطقه بتبشير عمه قائلاً : إن هذا الغلام سيكون له شأن عظيم . وحدثنا عن ورقة أنه لما سمع ما قصه عليه النبي من صفة الوحي وجد فيها من خصائص الناموس[1] الذي نزل على موسى ما جعله يعترف بنبوته ويتمنى أن يعيش حتى يكون من أنصاره[2] .

---

(١) الناموس : صاحب السِرّ ، والمراد هنا : جبريل عليه السلام (فتح الباري ١ / ٣٥) وأصل كلمة الناموس هو السر ، وصاحب سر الخير ، والحاذق ، ومَن يلطف مدخله ، ويقال انَّمَسَ الرجل أي اسْتَتَرَ (القاموس المحيط) .

(٢) قصة ورقة بن نوفل مع رسول الله ﷺ وردت في الصحيحين من حديث عائشة أم المؤمنين أنها قالت : « **أول ما بُدِيءَ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حُبِّبَ إليه الخلاء ، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه – وهو التعبد – الليالي ذوات العدد ، قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء ، فجاءه الملك فقال : اقرأ ، قال : ما أنا بقاريء ، قال فأخذني فغطَّني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال : اقرأ ، قلت : ما أنا بقاريء ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني قال ، اقرأ ، فقلت : ما أنا بقاريء : فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال : ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ۞ خلق الإنسان من علق ۞ اقرأ وربك الأكرم ﴾ فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فقال : زَمِّلُوني زَمِّلُوني [التزمُّل : التلفف في الثياب] فزمَّلُوه حتى ذهب عنه الروع ، فقال لخديجة وأخبرها الخبر : لقد خشيت على نفسي ، فقالت خديجة : كلا والله ما يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكَلَّ ، وتكسب المعدوم وتقري الضعيف ، وتعين على نوائب الحق . فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى – ابن عم خديجة – وكان امرءاً تَنصَّرَ في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبراني ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخاً كبيراً قد عَمِيَ . فقالت له خديجة :** =

فمن عرف للتاريخ حرمته وآمن بوقائعه كما هي، كانت هذه الوقائع حجة لنا عليه . ومن لم يستحِ أن يزيد في التاريخ حرفاً من عنده فيقول إن محمداً ضم السماع إلى اللقاء فليتقول ما يشاء ، وليعلم أنه سوف يُخرج لنا بهذه الزيادة تاريخاً متناقضاً يكذّب أوله آخره ، وآخره أوله ؛ إذ كيف يعقل أن رجلاً رأى علامات النبوة في امريء فبشره بها قبل وقوعها ، أو آمن بها بعد وقوعها ، تطاوعه نفسه أن يقف من صاحب هذه النبوة موقف المرشد المعلم ! فأين يذهبون ؟!

١ – على أننا نعود فنسأل : *هل كان في العلماء يومئذ من يصلح أن تكون له على محمد وقرآنه تلك اليد العلمية ؟*

يقول الملحدون أنفسهم : (إن القرآن هو الأثر التاريخي الوحيد الذي يمثل روح عصره أصدق تمثيل) . وهذه كلمة حق في حدود معناها الصحيح[1] فنحن نأخذهم باعترافهم وندعوهم إلى استجلاء تلك الصورة التي حفظها القرآن في مرآته الناصعة مثالاً واضحاً لعلماء عصره . فليقرءوا الزهراوين البقرة وآل عمران وما فيهما من المحاورة لعلماء اليهود والنصارى في العقائد والتواريخ والأحكام . أو ليقرأوا ما شاءوا من السور المدنية أو المكية التي فيها ذكر أهل الكتاب ، ولينظروا بأي لسان يتكلم عنهم القرآن ، وكيف يصور لنا علومهم بأنها الجهالات ، وعقائدهم بأنها الضلالات والخرافات ، وأعمالهم بأنها الجرائم والمنكرات .

= يابن عم اسمع من ابن أخيك . فقال له ورقة : يابن أخي ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى . فقال له ورقة : هذا الناموس الذي نُزِّلَ اللهُ على موسى ، يا ليتني فيها جذعاً [شاباً] ، ليتني أكون حياً إذا يُخرِجُك قومك . فقال رسول الله ﷺ : أو مُخْرِجِيَّ هم ؟ قال : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عُودي ، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً ، ثم لم يلبث ورقة أن توفي ، وفتر الوحي » .

رواه البخاري في بدء الوحي ٣ ، ومسلم في الإيمان ٢٥٢ .

(١) وهو أنه يمثلها ولا يتمثلها . وإن شئت فقل إنه يمثلها أصدق تمثيل ، ثم يمثل بها أنكى تمثيل . [دراز] .

[موقف محمد ﷺ من العلماء :
موقف المصحح لما حرفوا، الكاشف لما كتموا]

فإن أنت أحببت زيادة البيان فإليك نموذجاً من وصفه وتفنيده لأغلاطهم ومغالطاتهم التاريخية :

* ﴿ **ياأهلَ الكتابِ لمَ تُحاجُّونَ في إبراهِيمَ ومَا أُنزِلَتِ التوراةُ والإنجيلُ إلَّا مِن بَعدِهِ أفلا تعقِلون** ﴾ [سورة آل عمران الآية : ٦٥] .
* ﴿ **أمْ تقولون إنَّ إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ وَيعقوبَ والأسباطَ كانوا هُوداً أوْ نَصارىٰ ؟** ﴾ [سورة البقرة الآية : ١٤٠] .
* ﴿ **إنَّ أولَ بيتٍ وُضِعَ للنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ** ﴾(١) [سورة آل عمران الآية : ٩٦].
* ﴿ **كلُّ الطّعامِ كانَ حِلّاً لبني إسرائيلَ إلَّا ما حرَّم إسرائيلُ على نَفسِهِ** ﴾(٢) [سورة آل عمران الآية : ٩٣] .

وهذا طرف من وصفه وتفنيده لخرافاتهم الدينية :

* ﴿ **وَما مَسَّنا مِن لُغُوبٍ**(٣) ﴾(٤) [سورة ق الآية : ٣٨] .
* ﴿ **وما كفَر سليمانُ** ﴾(٥) [سورة البقرة الآية : ١٠٢] .
* ﴿ **لقدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الذينَ قالوا إنَّ اللهَ فقيرٌ ونحن أغنياء** ﴾(٦) [سورة آل عمران الآية : ١٨١] .

---

(١) وهي جواب عن قولهم قبلتنا قبل قبلتكم [**دراز**] .
(٢) وهي رد لدعواهم إن الإبل كانت محرمة على إبراهيم [**دراز**] .
(٣) لغوب : إعياء وتعب .
(٤) وهي تكذيب لقولهم إن الله بعد أن خلق الخلق في ستة أيام استراح في اليوم السابع [**دراز**] .
(٥) وهي تبرئة له من زعمهم أنه لم يكن نبياً بل كان ساحراً يركب الريح [**دراز**] .
(٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « **لما نزل قوله ﴿ مَن ذَا الذي يُقرِضُ اللهَ قرضاً حسناً فيُضاعِفهُ له أضعافاً كثيرة ﴾** [سورة البقرة الآية : ٢٤٥] **قالت اليهود : يا محمد ، افتقر ربك . يسأل عباده القرض ؟ فأنزل الله ﴿ لَقدْ سَمِعَ اللهُ قولَ الذينَ قالوا إنَّ اللهَ فقيرٌ ونحنُ أغنياء ﴾** » . عزاه ابن كثير في التفسير ٢ / ١٥٣ لابن مردويه وابن أبي حاتم .

* ﴿ وقالتِ اليهودُ يَدُ اللهِ مَغلولة ﴾[1] [سورة المائدة الآية : ٦٤] .
* ﴿ وقالتِ اليهودُ عُزَيْرٌ ابنُ اللهِ وقالت النَّصارىٰ المسيحُ ابنُ اللهِ ﴾[2] [سورة التوبة الآية : ٣٠] .
* ﴿ وقالتِ اليهودُ والنَّصارىٰ نحنُ أَبناءُ اللهِ وأحباؤُه ﴾ [سورة المائدة : ١٨] .
* ﴿ لقدْ كَفَرَ الذينَ قالوا إنَّ اللهَ هوَ المسيحُ ابنُ مَريمِ ... لقد كَفَرَ الذينَ قالوا إنَّ اللهَ ثَالثُ ثلاثةٍ ﴾ [سورة المائدة الآيتان : ٧٢ ، ٧٣] .
* ﴿ قُلْ ياأهلَ الكتابِ تَعالَوْا إلى كلمةٍ سواءٍ بيننا وبينكمْ أَلَّا نعبدَ إِلَّا اللهَ ولا نُشْرِكَ بِهِ شيئاً ولا يتخذَ بعضُنا بعضاً أَرْباباً مِن دونِ اللهِ ﴾ [سورة آل عمران الآية : ٦٤] .

فانظر كيف صور القرآن عقيدة علماء الدين في زمنه ولا سيما علماء النصارى فقد كان طابع الشرك في ديانتهم لا يخفى على أحد ، حتى إن الأميين فطنوا له فاتخذوا منه عزاءً لهم في شركهم ﴿ وَلما ضُرِبَ ابنُ مَريمَ مَثلاً إذا قومُكَ منه يَصِدُّون * وقالوا أآلهتُنا خيرٌ أمْ هو ؟! ﴾[3] [سورة الزخرف الآيتان : ٥٧ ، ٥٨] . بل اتخذوا منه حجة على أن التوحيد الذي دعاهم إليه القرآن

---

(١) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « **قال رجل من اليهود يقال له النباش بن قيس : إن ربك بخيل لا ينفق . فأنزل الله عز وجل ﴿ وقالتِ اليهودُ يدُ اللهِ مَغلولةٌ غُلَّتْ أيديهِمْ ولُعِنوا بما قالوا بَلْ يَداهُ مَبسوطتانِ يُنفِقُ كيفَ يَشاء ﴾** » . قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧ / ١٧ : رواه الطبراني ورجاله ثقات أ هـ . وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٢ / ٥٢٥ لابن إسحاق والطبراني وابن مردويه .

(٢) خلاصة الروايات التي ذكرت في تفسير هذه الآيات أن اليهود أطلقوا على عزير – وهو أحد صالحيهم – أنه ابن الله بسبب حفظه للتوراة واستظهاره لها . أما إطلاق النصارى على المسيح لقب ابن الله فظاهر لأنه عليه السلام ولد من دون أب ، وجهلوا قدرة الله في خلقه من أنثى بلا ذكر ، ونسوا خلق آدم من دون ذكر ولا أنثى بل من تراب وماء .

(٣) قال ابن إسحاق : « **جلس رسول الله ﷺ يوماً فيما بلغني مع الوليد بن المغيرة في** =

= المسجد ، فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم في المجلس ، وفي المجلس غير واحد من رجال قريش ، فتكلم رسول الله - ﷺ - فعرض له النضر بن الحارث ، فكلّمه رسول الله - ﷺ - حتى أفحمه ، ثم تلا عليه وعليهم ﴿ إنكمْ ومَا تَعبدونَ مِن دونِ اللهِ حَصَبُ جَهنمَ أنتُمْ لَها وارِدون ﴾ [سورة الأنبياء الآية ٩٨] الآيات ، ثم قام رسول الله ﷺ ، وأقبل عبد الله بن الزِّبَعْرَى السَّهْمي حتى جلس ، فقال الوليد بن المغيرة له : والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب وما قعد ، وقد زعم محمد أنَّا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم ، فقال عبد الله بن الزبعرى : أما والله لو وجدته لخصمته [أي غلبته] ، سلوا محمداً : أكُلّ ما يُعبد من دون الله في جهنم مع مَن عَبَدَه ، فنحن نعبد الملائكة ، واليهود تعبد عزيراً ، والنصارى تعبد عيسى بن مريم ؟ فعجب الوليد ومن كان معه في المجلس من قول عبد الله بن الزبعرى ورأوا أنه قد احتج وخاصم . فذُكِرَ ذلك لرسول الله - ﷺ - فقال : كل من أحب أن يُعْبَد من دون الله فهو مع مَن عَبَدَه ، فإنهم إنما يعبدون الشيطان ومن أمرهم بعبادته . فأنزل الله عز وجل ﴿ إن الذينَ سَبَقَتْ لهُم مِنَّا الحُسنىٰ أولئك عَنها مُبْعَدون ﴾ [سورة الأنبياء الآية : ١٠١] . أي عيسى وعزير ومن عُبِد معهما من الأحبار والرهبان الذين مضوا على طاعة الله عز وجل فاتخذهم مَن يعبدهم من أهل الضلالة أرباباً من دون الله » . رواه الطبري في تفسيره ١٧ / ٩٦ . وكذلك ابن هشام في السيرة ٢ / ١٠٦ (الروض الأنف) .

* **فائدة** : ذكر السهيلي في الروض الأنف ٢ / ١١٦ ما ملخصه : أن اعتراض ابن الزبعرى على الرسول ﷺ غير لازم لسببين هما :

أ - أن الخطاب في هذه الآية لكفار قريش وأصنامهم اللات والعزى وهبل .

ب - أن لفظ الآية : ﴿ **وما تعبدون** ﴾ و ﴿ **ما** ﴾ في لغة العرب لغير العاقل وهي الأصنام أما من يعقل مثل الأنبياء وغيرهم فهم خارج الآية .

- **قلت** : ويشهد لهذه الرواية عدة روايات أخرى في الدر المنثور للسيوطي ٤ / ٦٠٧ ، ٥ / ٧٢٨ ، ومنها أيضاً حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال : « **إن رسول الله ﷺ قال لقريش : يا معشر قريش ، إنه ليس أحد يُعْبَد من دون الله فيه خير . وقد علمت قريش أن النصارى تعبد عيسى ابن مريم ، وما تقول في محمد . فقالوا : يا محمد ، ألست تزعم أن عيسى كان نبياً وعبداً من عباد الله صالحاً ، فلئن كنت صادقاً فإن آلهتهم لكما تقولون ، قال : فأنزل الله عز وجل ﴿ ولَمَّا ضُرِبَ ابنُ مريمَ مثلاً إذا قومُكَ مِنه يَصِدُّون ﴾** » .

[يصدون : يضجون ويصخبون] .

رواه أحمد ١ / ٣١٧ وصحح إسناده العلامة أحمد شاكر ٢٩٢١ .

بدعٌ في الدين لم يُسْبَق إليه فقالوا ﴿ **ما سَمِعْنا بهذا في المِلَّةِ الآخِرةِ** ﴾ [سورة ص الآية : ٧] يعنون ملة النصرانية .

وهذه سلسلة أخرى من جرائمهم يسردها القرآن متواصلة الحلقات : ﴿ **فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثاقَهُمْ وكُفرِهِم بآياتِ اللهِ وَقَتْلِهِم الأنبياءَ بِغيرِ حقٍ وقولِهِمْ قلوبُنا غُلفٌ** ﴾إلى أن قال ﴿ **وبِكفْرِهِم وقَوْلِهِم على مَرْيَمَ بُهتاناً عظيماً * وقولِهِم إنَّا قَتَلْنا المسيحَ عِيسىٰ ابنَ مريمَ** ﴾ إلى أن قال ﴿ **وبصَدِّهِمْ عَن سبيلِ اللهِ كثيراً * وأخذِهِم الرِّبَا وقد نُهُوا عنهُ ، وأكلِهِم أموالَ الناسِ بالباطِلِ** ﴾ [سورة النساء الآيات : ١٥٥ – ١٦١] .

فهل ترى في هذا كله صورة أساتذة يتلقى عنهم صاحب القرآن علومه ؟ أم بالعكس ترى منه معلماً يصحح لهم أغلاطهم وينعَى عليهم سوء حالهم ؟

لا ننكر أنه كان في أهل الكتاب قليل من العلماء الراسخين . لكن الراسخون في العلم منهم آمنوا بالقرآن وبنبي القرآن ﴿ **قُلْ كَفىٰ باللهِ شهيداً بَيني وَبينَكمْ ومَنْ عِندَهُ عِلمُ الكِتاب** ﴾[1] [سورة الرعد الآية : ٤٣] . فلو كانوا له معلمين لآمنوا بأنفسهم بدل أن يؤمنوا به .

---

(١) أول الآية ﴿ **ويقولُ الذينَ كفروا لستَ مُرسلاً * قُلْ كَفىٰ باللهِ شهيداً** ... ﴾ الآية . قال العلامة الطاهر بن عاشور في تفسيره ١٣ / ١٧٥ : ذكرت هذه الآية أنهم [أي المشركين] قد أفصحوا تارات بما أبطنوه ، فنطقوا بصريح التكذيب وخرجوا من طور المكر إلى طور المجاهرة بالكفر فقالوا ﴿ **لست مرسلاً** ﴾ وقد حُكي قولهم بصيغة المضارع ﴿ **ويقول** ﴾ للدلالة على تكرر ذلك منهم ولاستحضار حالهم العجيبة من الاستمرار على التكذيب بعد أن رأوا دلائل الصدق . ولما كانت مقالتهم المحكية هنا صريحة لا مواربة فيها ، أمر الرسول – ﷺ – بجواب لا جدال فيه ، وهو تحكيم الله بينه وبينهم .

وقد أمر الرسول – ﷺ – بأن يجيبهم جواب الواثق بصدقه المستشهد على ذلك بشهادة الصدق من إشهاد الله تعالى وإشهاد العالمين بالكتب والشرائع .

﴿ **وَمنْ عِندَهُ عِلمُ الكِتاب** ﴾ يعني كل من عندهم علم الكتاب ... ويحتمل أن يكون المراد بمن عنده علم الكتاب مُعيَّناً . فهو ورقة بن نوفل إذ علم أهل مكة أنه شهد =

٢ - ولنعد مرةً أخرى فنسأل : *هل كان علم العلماء يومئذ مبذولاً لطالبيه مباحاً لسائليه ؟ أم كان حرصهم على هذا العلم أشد من حرصهم على حياتهم ، وكانوا يضنون به حتى على أبنائهم استبقاءً لرياستهم أو طمعاً في منصب النبوة الذي كانوا يستشرفون له في ذلك العصر ؟*

لنستنطق القرآن الذي رضيه الملحدون حكماً بيننا وبينهم ، فإنه يكفينا مئونة الجواب عن هذا السؤال . وها هو ذا يقول لنا : إنهم كانوا في سبيل الضن بكتبهم وعلومهم لا يتورعون عن منكر ، فكانوا تارةً ﴿ **يَكتُبُونَ الكِتابَ بأيديهِمْ ثمَّ يقولونَ هذا مِنْ عِندِ اللهِ ليَشترُوا بِهِ ثمَناً قليلاً** ﴾ [سورة البقرة الآية : ٧٩] وتارةً ﴿ **يَلْوُونَ ألسنَتَهُم بالكِتابِ لتحْسَبُوهُ مِنَ الكِتابِ وما هوَ مِنَ الكِتابِ ويقولونَ هوَ مِنْ عندِ اللهِ وما هو مِنْ عِندِ اللهِ** ﴾ [سورة آل عمران الآية : ٧٨] وتارةً ﴿ **يُحرِّفونَ الكَلِمَ عَن مَواضِعِهِ** ﴾ [سورة المائدة الآية : ١٣] وتارةً يبترون الكتُب فيظهرون بعضها ويخفون بعضها ﴿ **قُلْ مَنْ أَنزَلَ الكِتابَ الذي جاءَ بِهِ موسىٰ نوراً وهدىً للناسِ تَجعلونَهُ قراطِيس[1] تُبْدُونها وتُخْفُونَ كَثِيراً** ﴾ [سورة الأنعام الآية : ٩١] .

= بأن ما أوحي به إلى رسول الله - ﷺ - هو الناموس الذي أنزل على موسى - عليه السلام - وكان ورقة منفرداً بمعرفة التوراة والإنجيل . وقد كان خبر قوله للنبي - ﷺ - ما قاله معروفاً عند قريش .

وكان التعبير في الآية بـ ﴿ **مَنْ عِندَهُ عِلمُ الكِتابِ** ﴾ دون أهل الكتاب لأن تطبيق ذلك [البشارة بخاتم الرسل ، وموافقة القرآن لسنن الشرائع الإلهية ، وتفسير الرموز الواردة في التوراة والإنجيل بصفة النبي المنتظر الموعود به] لا يدركه إلا علماؤهم أهـ [باختصار وتصرف يسير] .

(١) قال العلامة الطاهر بن عاشور في تفسيره ٧ / ٣٦٥ :

والقراطيس جمع قرطاس وهو الصحيفة من أي شيء كانت ... وقوله ﴿ **تُبدونها وتُخفونَ كثيراً** ﴾ صفة لقراطيس ، أي تبدون بعضها وتخفون كثيراً منها ، ففهم أن المعنى : تجعلونه قراطيس لغرض إبداء بعض وإخفاء بعض . وهذه الصفة في محل الذم فإن الله أنزل كتبه للهدى ، والهدى بها متوقف على إظهارها وإعلانها ، فمن فرقها ليظهر بعضاً ويخفي بعضاً فقد خالف مراد الله منها أ هـ .

وتارة يحاجون بمحفوظهم فإذا قيل لهم ﴿ **فَأتوا بالتوراةِ فاتْلوها إن كُنتمْ صَادِقين** ﴾ [سورة آل عمران الآية ٩٣] بهتوا فلم يجيبوا . وربما جاءوا بها فقرأوا ما قبل الشاهد[1] وما بعده وستروا بكَفِّهِم مكان النص المجادل فيه ، كما وقع في قصة الرجم . انظر صحيح البخاري في تفسير الآية الآنفة[2] .

فجاء القرآن يرميهم علناً باللَّبْس والكتمان ﴿ **ياأهلَ الكِتاب لِمَ تَلْبِسونَ الحقَّ بالباطلِ وتَكْتُمُونَ الحقَّ وأنْتُمْ تَعلمونَ** ﴾ [سورة آل عمران الآية : ٧١] بل جاء كاشفاً لما ستروه ، مبيناً لما كتموه ، حاكماً فيما اختلفوا فيه ﴿ **ياأَهلَ الكِتابِ قدْ جاءكُمْ رَسُولُنا يُبيِّنُ لكُمْ كَثيراً مِمَّا كُنتُم تُخفُون مِن الكِتابِ** ﴾ [سورة المائدة الآية : ١٥] . ﴿ **إنَّ هذا القرآنَ يَقُصُّ علىٰ بَنِي إسرائيلَ أكثرَ الذِي هُمْ فِيهِ يَختَلِفون** ﴾ [سورة النمل الآية : ٧٦] ﴿ **تَاللهِ لقدْ أَرْسلنا إلىٰ أُممٍ مِن قبلِكَ فَزَيَّنَ لهم الشَّيْطانُ أعمالَهمْ فَهوَ وَلِيُّهمُ اليومَ ولَهُم عذابٌ أليمٌ * وما أنزَلْنا علَيكَ الكَتابَ إلا لِتُبيِّنَ لَهُمُ الذي اختَلَفُوا فِيهِ وهُدًى ورَحْمةً لقومٍ يؤمِنونَ** ﴾

[سورة النحل الآيتان : ٦٣ ، ٦٤] .

انظر إلى هذه الآيات من سورتي النحل والنمل المكيتين كيف جعلت من مقاصد القرآن الأساسية بيان ما اختلف فيه أهل الكتاب ، بل جعلته أوَّل تلك

---

(١) الشاهد : موضع الحجة أو الدليل .

(٢) عن ابن عمر رضي الله عنهما : « **أن اليهود جاءوا إلى النبي ﷺ برجل منهم وامرأة قد زنيا ، فقال لهم : كيف تفعلون بمن زنا منكم ؟ قالوا : نُحمِّمهما ونضربهما [التحميم : تسخيم الوجه بالفحم] فقال : لا تجدون في التوراة الرجم ؟ فقالوا : لا نجد فيها شيئاً . فقال لهم عبد الله بن سلام : كذبتم فأتوا بالتوارة فاتلوها إن كنتم صادقين ، فوضع مِدْراسُها الذي يدرسها منهم كفه على آية الرجم ، فطفق يقرأ ما دون يده وما وراءها ولا يقرأ آية الرجم ، فنزع يده عن آية الرجم . فقال [أي عبد الله] : ما هذه ؟ فلما رأوا ذلك قالوا : هي آية الرجم ، فأمر بهما فرُجِما قريباً من حيث موضع الجنائز عند المسجد** » .

متفق عليه : رواه البخاري في التفسير ٤٥٥٦ ، ومسلم في الحدود ٢٦ ، ٢٧ .

المقاصد[1] حيث بدأتْ به ، وثنّتْ بالهدى والرحمة للمؤمنين .

---

(١) وجه الاستدلال بالآيتين السابقتين على هذا المطلب غير ظاهر : فآية سورة النمل لا يُفهَم منها هذه الأولوية ، وأما آية سورة النحل فليس الكلام فيها بخصوص أهل الكتاب فقط ، بل هو عن جميع الأمم السابقة التي أضلها الشيطان عن عبادة الله ، فتشمل مشركي العرب والصابئة والمجوس واليهود والنصارى وغيرهم . والأمور التي اختلف فيها الناس عموماً هي التوحيد والعبادة والنبوات والمعاد والأحكام . وهذه أمثلة من كلام المفسرين على هذه الآية :

* قال الحافظ ابن كثير في تفسيره لهذه الآية ٤ / ٤٩٩ :

يذكر تعالى أنه أرسل إلى الأمم الخالية رسلاً ، فكُذِّبت الرسل ، فلك يا محمد في إخوانك من المرسلين أسوة ، فلا يهيدنك [يزعجك] تكذيب قومك لك ، وأما المشركون الذين كذبوا الرسل ؛ فإنما حملهم على ذلك تزيين الشيطان لهم ما فعلوه ، ﴿ **فَهُوَ وَلِيُّهُمُ اليوم** ﴾ أي هم تحت العقوبة والنكال ، والشيطان وليهم ولا يملك لهم خلاصاً ، ولا صريخ لهم ، ولهم عذاب أليم . ثم قال تعالى لرسوله : إنه إنما أنزل عليه الكتاب ليبين للناس الذي يختلفون فيه ، فالقرآن فاصل بين الناس في كل ما يتنازعون فيه ، وهدى أي للقلوب ، ورحمة أي لمن تمسك به لقوم يؤمنون أ هـ .

* وقال الرازي في تفسيره ٢٠ / ٥١ :

المعنى : أنا ما أنزلنا عليك القرآن إلا لتبين لهم بواسطة بيانات هذا القرآن الأشياء التي اختلفوا فيها ، والمختلفون هم أهل الملل والأهواء ، وما اختلفوا فيه هو الدين ، مثل التوحيد والشرك والجبر والقدر ، وإثبات المعاد ونفيه ، ومثل الأحكام مثل أنهم حرمواأشياء تَحِلُّ كالبحيرة والسائبة وغيرهما وحللوا أشياء تحرم كالميتة أ هـ .

* وقال صاحب التحرير والتنوير في ١٤ / ١٩٣ وما بعدها :

قُصِد منه تنظير [مشابهة] حال المشركين المتحدث عنهم وكفرهم في سوء أعمالهم وأحكامهم ، بحال الأمم الضالة من قبلهم الذين استهواهم الشيطان من الأمم البائدة مثل عاد وثمود والحاضرة كاليهود والنصارى ... وتزيين الشيطان أعمالهم كناية على المعاصي . فمن ذلك عدم الإيمان بالرسل وهو كمال التنظير . ومنها الابتداعات المنافية لما جاءت به الرسل – عليهم السلام – مثل ابتداع المشركين البحيرة والسائبة . والمقصود أن المشركين سلكوا مسلك من قبلهم من الأمم التي زين لهم الشيطان أعمالهم ... ﴿ **وما أنزلْنا عليكَ الكِتابَ إلَّا لتبيِّنَ لَهمُ الذي اختلفوا فيهِ وهُدىً ورحمةً لقومٍ يؤمنون** ﴾ عطف على جملة القَسَم [تالله لقد أرسلنا ..] والمناسبة أن القرآن أنزل لإتمام الهداية وكشف الشبهات التي عرضت للأمم الماضية والحاضرة فتَرَكَتْ أمثالها في العرب وغيرهم ، فلما ذكرت ضلالاتهم =

[من زعم أن له معلماً من البشر فليسمه]

٣ – ونعود للمرة الثالثة *فنقول لمن يزعم أن محمداً كان يعلمه بشر : قل لنا ما اسم هذا المعلّم ؟ ومن ذا الذي رآه وسمعه ؟ وماذا سمع منه ؟ ومتى كان ذلك ؟ وأين كان ؟* فإن كلمة (البشر) تصف لنا هذا العالَم الذين يمشون على الأرض مطمئنين ؛ ويراهم الناس غادين ورائحين . فلا تسمع دعواها بدون تحديد وتعيين . بل يكون مثل مدعيها كمثل الذين يخلقون لله شركاء لا وجود لهم إلا في الخيال والوهم . فيقال له كما قيل لهم ﴿ **قُلْ سَمُّوهُمْ أم تُنَبِّئُونَهُ بما لا يَعْلَمُ في الأرضِ أم بظاهرٍ مِن القولِ** ﴾ [سورة الرعد الآية : ٣٣] .

بل نقول هل وُلِدَ هذا النبي في المريخ ، أو نشأ في مكان قصيّ عن العالم ، فلم يهبط على قومه إلا بعد أن بلغ أشده واستوى ، ثم كانوا بعد ذلك لا يرونه إلا لماماً ؟ ألم يولد في حجورهم ؟ ألم يكن يمشي بين أظهرهم يصبِّحهم ويمسِّيهم ؟ ألم يكونوا يرونه بأعينهم في حِلّه ورحيله ؟ ﴿ **أمْ لَمْ يَعرِفوا رسولَهم**

= وشبهاتهم عقب ذلك ببيان الحكمة في إرسال محمد – ﷺ – وإنزال القرآن إليه ، فالقرآن جاء مبيناً للمشركين ضلالهم بياناً لا يترك للباطل مسلكاً إلى النفوس ، ومفصحاً عن الهدى إفصاحاً لا يترك للحيرة مجالاً في العقول ، ورحمة للمؤمنين بما جازاهم عن إيمانهم من خير الدنيا والآخرة .

وعبر عن الضلال بكلمة ﴿ **الذي اختلفوا فيه** ﴾ للإيماء إلى أن سبب الضلال هو اختلافهم على أنبيائهم ، فالعرب اختلفت ضلالاتهم في عبادة الأصنام ، عبدت كل قبيلة منهم صنماً ، وعبد بعضهم الشمس والكواكب ، واتخذت كل قبيلة لنفسها أعمالاً يزعمونها ديناً صحيحاً ، واختلفوا مع المسلمين في جميع ذلك الدين .

والإتيان بصيغة القصر في قوله تعالى ﴿ **وَما أنزلنا عليكَ الكِتابَ إلا لتبيِّنَ** ﴾ لقصد الإحاطة بالأهم من غاية القرآن وفائدته التي أنزل لأجلها ... ليرغب السامعون في تلقيه وتدبره من مؤمن وكافر ، كلٌّ بما يليق بحاله حتى يستووا في الاهتداء .

ثم إن هذا القصر يفند أقوال من حسبوا من المشركين أن القرآن أنزل لذكر القصص لتعليل النفس في الأسمار ونحوها . حتى قال مضلُّهم : أنا آتيكم بأحسن مما جاء به محمد ، آتيكم بقصة رستم واسفنديار . فالقرآن أهم مقاصده هذه الفوائد الجامعة لأصول الخير أهـ .

فهُمْ لهُ مُنكِرون ﴾ [سورة المؤمنون الآية : ٦٩] .

نعم إن قومه قد طوَّعت لهم أنفسهم أن يقولوا هذه الكلمة ﴿ **إنَّما يُعلِّمُهُ بَشَرٌ** ﴾ [سورة النحل الآية : ١٠٣] ولكن هل تراهم كانوا في هذه الكلمة جادين ، وكانوا يشيرون بها إلى بشر حقيقي عرفوا له تلك المنزلة العلمية ؟ كلا إنهم ما كان يعنيهم أن يكونوا جادين محقين . وإنما كان كل همهم أن يدرءوا عن أنفسهم معرَّة السكوت والإفحام ، بأي صورة تتفق لهم من صور الكلام : بالصدق أو بالكذب ، بالجد أو باللعب .

وما أدراك من هو ذلك البشر الذي قالوا إنه يعلمه ؟

أتحسب أنهم اجترءوا أن ينسبوا هذا التعليم لواحد منهم ؟ كلا فقد رأوا أنفسهم أوضح جهلاً من أن يُعَلِّموا رجلاً جاءهم بما لم يعرفوا هم ولا آباؤهم .

أم تحسب أنهم لما وجدوا أرض مكة مقفرة من علماء الدين والتاريخ في عهد البعثة المحمدية عمدوا إلى رجل من أولئك العلماء في المدينة أو في الشام أو غيرهما فنسبوا ذلك التعليم إليه ؟ كلا إن ألسنتهم لم تطاوعهم على النطق بهذه الكلمة أيضاً !

فمن ذا إمّا لا .. ؟

لقد وجدوا أنفسهم مضطرين أن يلتمسوا شخصاً يتحقق فيه شرطان : أحدهما : أن يكون من سكان مكة نفسها لتروج عنهم دعوى أنه يلاقيه ويُملي عليه بكرةً وأصيلاً . وثانيهما : أن يكون من غير جلدتهم وملتهم ليمكن أن يقال إن عنده علم ما لم يعلموا . وقد التمسوا هذه الأوصاف فوجدوها ، أتدري أين وجدوها ؟ .. في حدَّاد روميّ[1] !!

---

(١) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « **كان رسول الله ﷺ يُعَلِّم قَيْناً** [**حَدَّاداً**] =

نعم وجدوا في مكة غلاماً تعرفه الحوانيت والأسواق ، ولا تعرفه تلك العلوم في قليل ولا كثير . غير أنه لم يكن أمياً ولا وثنياً مثلهم ، بل كان نصرانياً يقرأ ويكتب . فكان من أجل ذلك خليقاً في زعمهم أن يكون أستاذاً لمحمد ، وبالتالي أستاذاً لعلماء اليهود والنصارى والعالم أجمعين ، ولئن سألتهم هل كان ذلك الغلام فارغاً لدراسة الكتب وتمحيص أصيلها من دخيلها ، ورد متشابهها إلى محكمها ، وهل كان مزوداً في عقله ولسانه بوسائل الفهم والتفهيم ... لعرفت أنه كان حداداً منهمكاً في مِطرقته وسندانه ، وأنه كان عاميّ الفؤاد لا يعلم الكتاب إلا أمانيّ ، أعجمي اللسان لا تعدو قراءته أن تكون رطانة لا يعرفها محمد ولا أحد من قومه . لكن ذلك كله لم يكن ليحول بينه وبين لقب الأستاذية الذي منحوه إياه على رغم أنف الحاسدين !

[من ضاقت به دائرة الجد ، لم يسعه إلا فضاء الهزل]

هكذا ضاقت بهم دائرة الجد فما وسعهم إلا فضاء الهزل . وهكذا أمعنوا في هزلهم حتى خرجوا عن وقار العقل ، فكان مثلهم كمثل من يقول : إن العلم يستقى من الجهل ، وإن الإنسان يتعلم كلامه من الببغاء ! وكفى بهذا

= **بمكة ، وكان أعجمي اللسان ، وكان اسمه بلعام ، فكان المشركون يرون رسول الله ﷺ حين يدخل عليه وحين يخرج من عنده ، فقالوا : إنما يعلمه بلعام ، فأنزل الله تعالى ذكره ﴿ ولقد نعلم إنهم يقولون إنما يعلمه بشر . لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين ﴾** [سورة النحل الآية : ١٠٣] » رواه الطبري ١٤ / ١٧٧ ، وقال السيوطي في الدر المنثور ٤ / ٢٤٧ : أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه بسند ضعيف أهـ .

وهناك روايات كثيرة في سبب نزول هذه الآية تجمع على أن سبب نزولها هو زعم المشركين أن محمداً ﷺ يتعلم من إنسان – لا من مَلَك مُرْسَل مِن عند الله – وغالب هذه الروايات يدور حول شخصية حداد نصراني عبد عند بني الحضرمي . راجع للتفصيل : أسباب النزول للواحدي ٢٨١ ، الطبري ١٤ / ١٧٧ ، ١٧٨ ، الدر المنثور للسيوطي ٤ / ٢٤٧ ، الصحيح المسند من أسباب النزول لمقبل بن هادي ٩٠ ، الإصابة ٧٣٨ ، ١٠٦٥ ، ٩٢١٦ ، ٩٣٦٩ .

هزيمة وفضيحة لقائله ﴿ **لِسانُ الذي يُلحِدُونَ إليهِ أَعجَميٌّ . وَهذا لِسانٌ عَربيٌّ مُبِينٌ** ﴾ [سورة النحل الآية ١٠٣] .

نعم إنهم رأوا في هذا الأسلوب من حلاوة الفكاهة والملحة ما يسيغ مرارة الزور والباطل . ورأوا في هذه الصورة الخيالية من التهكم والسخرية ما يشفي صدورهم ويجعلهم يتضاحكون بملء أفواههم ، ولكنهم ما دروا أن في طيّ هذه السخرية سخريةً بهم ، وأنهم قد شهدوا فيها على أنفسهم أنهم أجهل الأمم ، وأن كل غريب عنهم – ولو كان غلاماً سوقيّاً – أهل لأن يقال عنه إن عنده من العلم ما ليس عندهم . فيا له من نطق كان العيّ في موضعه خيراً لهم وأستر عليهم ، ويا له من سلاح أرادوا أن يجرحوا به خصمهم فجرحوا به أنفسهم من حيث لا يشعرون .

أما الحق الذي كانوا يخاصمونه فقد والله زادوه بهذا الاتهام قوة إلى قوته . ذلك أنهم حين خرجوا يلتمسون واحداً من البشر يمكن أن ينسب إليه هذا العلم المحمدي لم يستطيعوا أن يفترضوا له مصدراً تعليمياً خارج حدود قريته ، بل كان آخرَ جُهد بذلوه من حيلتهم وآخرَ سهم رموه من كنانتهم أن جاءوا من بين ظهرانيهم بهذا الغلام الذي عرفت خبره . فياليت شعري لو كان لهذا الغلام أن يكون مرجعاً علمياً كما أرادوا أن يصفوه فما الذي منعهم أن يأخذوا عنه كما أخذ صاحبُهم ؟ وبذلك كانوا يستريحون من عنائه ويداوونه من جنس دائه ، بل ما منع ذلك الغلامَ أن يبدي للعالَم صفحته فينال في التاريخ شرف الأستاذية ، أو يتولى بنفسه تلك القيادة العالمية ؟

ويا ليت شعري لماذا لم ينسبوا تلك العلوم الغريبة عنهم إلى أهلها الموسومين بها من الربانيين والأحبار في المدينة أو من القسيسين والرهبان في الشام ، أولئك الذين قضوا أعمارهم في دراستها وتعليمها ؟ أليس ذلك – لو كان ممكناً أو شبيهاً بالممكن – كان هو أحسن تلفيقاً وأجود سبكاً وأدنى إلى الرواج وأبعد عن

الإحالة من نسبتها إلى حدَّاد مكة ؟ أم ضاقت بهم الأرض فلم يجدوا أحداً أمثل منه ولا أعلم بالدين والتاريخ ؟ تالله لولا أنهم وجدوا باب التعليم الخارجي أمنع سدّاً من سائر الأبواب وأدخل منها في معنى المكابرة التي لا تروج لما ضيّقوا على أنفسهم دائرة الاتهام حتى تورطوا في هذا المحال المكشوف وافتضحوا بهذه المقالة الشوهاء .

هؤلاء قوم محمد ﷺ وهم كانوا أحرص الناس على خصومته ، وأدرى الناس بأسفاره ورحلاته ، وأحصاهم لحركاته وسكناته ، قد عجزوا كما ترى أن يعقدوا صلة علمية بينه وبين أهل العلم في عصره . فما للملحدين اليوم وقد مضى نيف وثلاثة عشر قرناً انفضَّت فيها سوق الحوادث ، وجفت الأقلام ، وطويت الصحف ، لا يزالون يبحثون عن تلك الصلة في قمامات التاريخ ، وفي الناحية التي أنف قومه أن ينبشوها ؟

ألا فليريحوا أنفسهم من عناء البحث ، فقد كفتهم قريش مئونته . وليشتغلوا بغير هذه الناحية التي قضى التاريخ والمنطق على كل محاولة فيها بالفشل . فإن أبوا فليعلموا أن كل شبهة تقام في وجه الحق الواضح سيحيلها الحق حجة لنفسه يضمها إلى حججه وبيناته .

[حيرة المعاندين واضطرابهم في الجدل قديماً وحديثاً]

٤ – ونعود رابعاً وأخيراً فنقول : *لو كانت (نسبة هذه العلوم القرآنية إلى تعليم البشر) من الدعاوى التي تعبِّر عن فكرة أو شبهة قائمة بنفس صاحبها لوقفَ عندها الطاعنون ولم يجاوزوها* . ذلك لأن العقل إذا خُلِّيَ ونفسه في تعليل تلك المفارقة الكلية بين ماضي الحياة المحمدية وحاضرها – أعني ما قبل النبوة وما بعدها – لم يسعه إلا الحكم بأن هذا العلم الجديد وليدُ تعليم جديد . وإذ لا عهد للناس بمعلِّمين في الأرض من غير البشر كان أول ما يخطر بالبال أن هنالك إنساناً تولى هذا التعليم فلو وجد الطاعن أدنى تُكَأة من عوامل واقعية

أو ممكنة تجعل له شيئاً من الاقتناع بهذا التعليل فيما بينه وبين نفسه لما رضي به بديلاً ولما عدل عنه إلى تعليل آخر أيّاً كان . لكن هؤلاء الطاعنين ما فتئوا منذ نزل القرآن إلى يومنا هذا حائرين في نسب هذا القرآن ، لا يدرون أينسبونه إلى تعليم البشر كما سمعنا آنفاً ، أم يرجعون به إلى نفس صاحبه كما سمعنا من قبل ، أم يجمعون له بين النسبتين فيقولون لصاحبه إنه ﴿ **مُعَلَّمٌ مَجْنون** ﴾ [سورة الدخان الآية : ١٤] .

[نظرية الوحي النفسي ليست جديدة]

ومن تتبَّع أنواع المجادلات التي حكاها القرآن عن الطاعنين فيه رأى أن نسبتهم القرآن إلى تعليم البشر كانت هي أقل الكلمات دوراناً على ألسنتهم ، وأن أكثرها وروداً في جدلهم هي نسبته إلى نفس[1] صاحبه ، على اضطرابهم في تحديد تلك الحال النفسية التي صدر عنها القرآن : أشعر هي ، أم جنون ، أم أضغاث أحلام ...

---

(١) وهذا الرأي هو الذي يروجه الملحدون اليوم باسم (الوحي النفسي) زاعمين أنهم بهذه التسمية قد جاءونا برأي علمي جديد ، وما هو بجديد ، وإنما هو الرأي الجاهلي القديم ، لا يختلف عنه في جملته ولا في تفصيله . فقد صوروا النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم رجلاً ذا خيال واسع وإحساس عميق فهو إذاً شاعر . ثم زادوا فجعلوا وجدانه يطغى كثيراً على حواسه حتى يخيل إليه أنه يرى ويسمع شخصاً يكلمه . وما ذاك الذي يراه ويسمعه إلا صورة أخيلته ووجداناته فهو إذاً الجنون أو أضغاث الأحلام . على أنهم لم يطيقوا الثبات طويلاً على هذه التعليلات ، فقد اضطروا أن يهجروا كلمة (الوحي النفسي) حينما بدا لهم في القرآن جانب الأخبار الماضية والمستقبلة ، فقالوا : لعله تلقفها من أفواه العلماء في أسفاره للتجارة فهو إذاً قد عَلَّمَه بشر . فأي جديد ترى في هذه كله ؟ أليس كله حديثاً معاداً يضاهئون به قول جهال قريش ؟ وهكذا كان الإلحاد في ثوبه الجديد صورة منسوخة بل ممسوخة منه في أقدم أثوابه ، وكان غذاء هذه الأفكار المتحضرة في العصر الحديث مستمداً من فتات الموائد التي تركتها تلك القلوب المتحجرة في عصور الجاهلية الأولى ﴿ **كذلِكَ قالَ الذينَ مِن قَبلِهِم مِثلَ قولِهِمْ تشابَهَتْ قُلوبُهُم** ﴾ [سورة البقرة الآية : ١١٨] .

وإن تعجب فعجب قولهم مع هذا كله إنه كان صادقاً أميناً . وإنه كان معذوراً في نسبة =

فانظر : كم قلَّبوا من وجوه الرأي في هذه المسألة ؟ حتى إنهم لم يقفوا عند الحدود التي يمكن افتراضها في كلام رصين كالقرآن ، وفي عقل رصين كعقل صاحبه ، بل ذهبوا إلى أبعد الأحوال النفسية التي يمكن أن يصدر عنها كلام العقلاء والمجانين .. إن ذلك لمن أوضح الأدلة على أنهم لم يكونوا يشيرون بهذا الوجه أو ذاك إلى تهمة محققة لها مثار في الخارج أو في اعتقادهم ، وإنما أرادوا أن يُدْلوا بكل الفروض والتقادير مغمضين على ما فيها من مُحالٍ ونابٍ[1] ونافرٍ ، ليُثيروا بها غباراً من الأوهام في عيون المتطلعين إلى ضوء الحقيقة ، وليُلقوا بها أشواكاً من الشك في طريق السائرين إلى روض اليقين .

ولقد نعلم أنهم كانوا في قرارة أنفسهم غير مطمئنين إلى رأي صالح يرضونه من بين تلك الآراء ، وأنهم كانوا كلّما وضعوا يدهم على رأي منها وأرادوا أن ينسجوا منه للقرآن ثوباً وجدوه نابياً عنه في ذوقهم ، غير صالح لأن يكون لَبوساً له ، فيفزعون من فورهم إلى تجربة رأيٍ ثانٍ ، فإذا هو ليس بأمثل قياساً مما رفضوه ، فيعمدون إلى تجربة ثالثة ... وهكذا دواليك ما يستقرون على حال من القلق . فإن شئت أن تطلع على هذه الصورة المضحكة من البلبلة الجدلية فاقرأ وصفها في القرآن : ﴿ **بَلْ قالوا أَضْغاثُ أحلامٍ بَلِ افتراهُ بَلْ هُوَ شاعِر** ﴾ [سورة الأنبياء الآية : ٥] . فهذه الجملة القصيرة تمثل لك بما فيها من توالي حروف الإضراب مقدار ما أصابهم من الحيرة والاضطراب في رأيهم ،

= رؤاه إلى الوحي الإلهي لأن أحلامه القوية صورتها له وحياً إلهياً ، فما شهد إلا بما علم . وهكذا حكى الله لنا عن أسلافهم حيث يقول ﴿ **فإنَّهُمْ لا يُكَذِّبونكَ ولكنَّ الظالمينَ بآياتِ اللهِ يجحدون** ﴾ [سورة الأنعام الآية : ٣٣] فإن كان هذا عذره في تصوير رؤاه وسماعه فما عذره في دعواه أنه لم يكن يعلم تلك الأنباء لا هو ولا قومه من قبل هذا ، بينما هو قد سمعها بزعمهم من قبل ؟ فليقولوا إذاً أنه افتراه ليتم لهم بذلك محاكاة كل الأقاويل . ولكنهم لا يريدون أن يقولوا هذه الكلمة لأنهم يدعون الإنصاف والتعقل . ألا فقد قالوها من حيث لا يشعرون [**دراز**] .

(١) نابٍ : متباعدٍ متجافٍ .

وتُريك من خلالها صورة شاهد الزور إذا شعر بحرج موقفه : كيف يتقلب ذات اليمين وذات الشمال ، وكيف تتفرق به السبُل في تصحيح ما يحاوله من محال ﴿ انظُرْ كَيفَ ضَرَبوا لكَ الأمثالَ فضلُّوا فَلا يَستطيعونَ سَبيلاً ﴾

[سورة الإسراء الآية : ٤٨]، [سورة الفرقان الآية : ٩] .



[المرحلة الثالثة من البحث : البحث في ظروف الوحي وملابساته الخاصة عن مصدر القرآن]

والآن – وقد جاوزنا بك هاتين المرحلتين من البحث ، وأريناك أنه : ***لا يوجد للقرآن مصدر إنساني ، لا في نفس صاحبه ولا عند أحد من البشر ،*** وأن كل من حاول أن يجعل هذا القرآن (عملاً إنسانياً) أعياه أمره ، وأقام الحجة على فشله باضطرابه ولجاجته ، وإحالته ومكابرته – فقد وجب علينا أن ننتقل إلى المرحلة الثالثة لنبحث عن ذلك المصدر في أفق خارج عن هذا الأفق الإنساني جملة ؛ وألا نقف بالقرآن حيث وقف به الملحدون قديماً وحديثاً مذبذبين فيه بين هذين الطرفين يأخذون بأحدهما تارة ، وبالثاني تارة ، وبهما مجتمعَيْن تارة أخرى ، متنقلين هكذا من فاسدٍ إلى فاسدٍ ، إلى مركبٍ منهما أشد فساداً من كليهما . كلا ، فإن العقل يقضي علينا أن نبطل ما أبطله البرهان غير مكابرين ، وأن نتابعه في سيره حتى نصل إلى الحق المبين .

أما هؤلاء الملحدون فإنهم ما قعد بهم عن متابعة البحث – زعموا – إلا رعايتهم لحرمة السنن الكونية ، ومحافظتهم على الأسباب العادية التي يصدر عنها كلام الناس في معقولهم ومنقولهم ؛ فقد أبى عليهم وفاؤهم لهذه العلوم الطبيعية أن يقتحموا حدودها ويخرجوا إلى التماس شيء لا تناله أعينهم ، ولم يجربوا مثاله

في أنفسهم ، وأنت قد عرفت أن هذا الذي ظنوه وفاءً بطبيعة الأشياء قد انقلب بهم إلى ضده ؛ إذ خرقوا في سبيله السياج الطبيعي للعقل الإنساني وللواقع التاريخي ، فجمعوا المتناقضات وغيّروا معالم التاريخ ، وأرهقوا طبائع الأشياء فحمّلوها ما لا تطيق . فأي عاقل يرضى أن يقف موقفاً كهذا ينصر فيه عادته بإهدار عقله !!

بل الحق أن هناك مانعاً آخر يعوقهم عن متابعة السير معنا ، ولكنهم يكتمونه عنا : كِبرٌ في صدورهم أن يعطوا مقادتهم لإنسان جاءهم من فوق رءوسهم يزعم أنه رسول الله إليهم ، فيأمرهم وينهاهم ويستوجب الطاعة عليهم ، ثم هو على ذلك يواجههم بالحقائق المرة ، فيحول بينهم وبين ماضٍ هم به مستمسكون . وهوىً هم له عابدون ﴿ **بَلْ جاءَهُم بِالحَقِّ وَأَكثَرُهُمْ لِلحَقِّ كارِهُون** ﴾ [سورة المؤمنون الآية ٧٠] .

فلنذرهم قاعدين حيث رضوا لأنفسهم القعود . ولنتابع البحث عن هذا الحق راغبين إلى الله في الهدى إليه ، وإنا إن شاء الله لمهتدون .

* * *

[ظاهرة الوحي وتحليل عوارضها]

لا تحسبن أننا في هذه المرحلة الثالثة سنَضرب في بيداء تيهاء ، أو أننا سيترامى بنا السير إلى شقة بعيدة وسفر غير قاصد . كلا ، فلن نخرج ببحثنا عن دائرة محدودة نراها مظنة للسر الذي نطلبه ، وذلك بدراسة الأحوال المباشرة التي كان يظهر فيها القرآن على لسان محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله .

وكلنا نعرف تلك الظاهرة العجيبة التي كانت تبدو على وجهه الكريم في كل مرَّة حين ينزَّل عليه القرآن ، وكان أمرها لا يخفى على أحد ممن ينظر

إليه فكانوا يرونه[1] :

* قد احْمَرَّ وجهه[2] فجأة[3] .
* وأخذته البُرَحَاء[4] .
* حتى يتفصد جبينُهُ عرقاً[5] .

---

(١) هذه الأوصاف كلها ثابتة في الأحاديث الصحيحة عند الشيخين وأبي داود والترمذي وغيرهم [دراز] .

– **قلت** : وهذه هي الأحاديث بالتفصيل لما فيها من فوائد :

(٢) من حديث يعلى بن أمية أنه كان يقول لعمر رضي الله عنه : « **أرني النبي ﷺ حين يوحى إليه . قال : فبينما النبي ﷺ بالجِعْرانة – ومعه نفر من أصحابه – جاءه رجل فقال : يا رسول الله ، كيف ترى في رجل أحرم بعمرة وهو متضمخ بطيبٍ ؟ فسكت النبي ﷺ ساعة ، فجاءه الوحي . فأشار عمر رضي الله عنه إلى يعلى ، فجاء يعلى – وعلى رسول الله ﷺ ثوب قد أُظِلَّ به – فأدخل رأسه ، فإذا رسول الله ﷺ مُحْمَرُّ الوجه وهو يَغِطُّ ، ثم سُرِّيَ عنه ..** » الحديث متفق عليه : رواه البخاري في الحج ١٥٣٦ ، ومسلم في الحج ٨ .

(٣) من حديث زيد بن ثابت : « **أن رسول الله ﷺ أملى عليه ﴿ لا يَسْتَوِي القاعِدونَ مِنَ المؤمنينَ والمجاهدونَ في سبيلِ اللهِ ﴾ ، فجاءه ابن أم مكتوم وهو يُمِلُّها عَلَيَّ قال : يا رسول الله ، والله لو أستطيع الجهاد لجاهدت – وكان أعمى – فأنزل الله على رسوله ﷺ وفخذه على فخذي ، فثقلت عَلَيَّ حتى خفت أن تُرَضَّ** [أي تكسر] **فخذي ، ثم سري عنه فأنزل الله ﴿ ... غَيْرَ أُولي الضَّرَرِ .. ﴾** » . رواه البخاري في التفسير ٤٥٩٢ .

(٤) من حديث عبادة بن الصامت : « **كان نبي الله ﷺ إذا أنزل عليه كُرِبَ لذلك وتربد له وجهه ...** » الحديث . رواه مسلم في الحدود ١٣ . رالبرحاء : شِدّة ا لكرب .

ومن حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما : « **كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة ..** » الحديث . متفق عليه : رواه البخاري في بدء الوحي ٤ ، ومسلم في الصلاة ١٤٨ .

(٥) من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : « **... ولقد رأيته [أي النبي ﷺ] ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيَفصِم [أي يُقْلِع] عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً** » . متفق عليه : رواه البخاري في بدء الوحي ٢ ، ومسلم في الفضائل ٨٦ .

* وثقل جسمه حتى يكاد يَرُضُّ فخذُه فخذَ الجالس إلى جانبه[1] .
* وحتى لو كان راكباً لبركت به راحلته[2] .
* وكانوا مع ذلك يسمعون عند وجهه أصواتاً مختلطة تشبه دوي النحل[3]... ثم لا يلبث أن تُسَرَّى عنه تلك الشدة فإذا هو يتلو قرآناً جديداً وذكراً محدثاً[4] .

فمن شاء أن يبحث عن مصدر هذا القرآن فهاهنا أقرب مظانه ففيها فليحصر الباحثون بحوثهم ، ولينشدُ طلاب الحق ضالتهم ، وأين تُلتمس الأسباب الصحيحة لأثرٍ ما إن لم تلتمس حيث يظهر ذلك الأثر ، وحيث يدور وجوده وعدمه ؟

فلننظر الآن في هذه الظاهرة : هل كانت شيئاً متكلَّفاً مصنوعاً وطريقة تحضيرية يستجمع بها الفكر والرويَّة ؟ أم كانت أمراً لا دخل فيه للاختيار ؟ وإذا كانت أمراً غير اختياري فهل كان لها في داخل النفس منشأ من الأسباب الطبيعية العادية ، كباعثة النوم ، أو من الأسباب الطبيعية الشاذة ، كاختلال

---

(١) من حديث زيد بن ثابت السابق وفيه : « ... **فأنزل الله على رسوله ﷺ ، وفخذه على فخذي ، فثقلت علي حتى خفت أن تَرُضَّ [أي تكسر] فخذي** .. » الحديث . سبق ص ٨٨ برقم هامش ٣ .

(٢) من حديث عائشة رضي الله عنها : « **إن كان ليوحى إلى رسول الله ﷺ وهو على راحلته فتضرب بجِرَانها [أي تبرك وتلصق عنقها بالأرض]** » . رواه أحمد ٦ / ١١٨ وقال عنه الهيثمي في المجمع ٨ / ٢٥٧ : ورجاله رجال الصحيح أ هـ .

(٣) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « **كان النبي ﷺ إذا أنزل عليه الوحي سُمِعَ عند وجهه كدَوِيّ [طنين] النحل ، فأنزل عليه يوماً فمكثنا ساعة فسُرِّيَ عنه فاستقبل القبلة** ... » الحديث . رواه أحمد ١ / ٣٤ ، والترمذي في تفسير القرآن ٣١٧٣ ، وصححه العلامة أحمد شاكر ٢٢٣ ، وحسنه الأرناءوط في جامع الأصول ١١ / ٢٨٣ .

(٤) من الأحاديث السابقة كلها نجد أن تلاوة القرآن تتلو وتتبع التسرية عن النبي ﷺ مباشرة وخاصة أحاديث يعلى وزيد وعمر رضي الله عنهم .

القوى العصبية ؟ أم كانت انفعالاً بسبب خارجي منفصل عن قوى النفس ؟

وإن نظرة واحدة نلقيها على عناصر هذه الظاهرة لتَهدينا إلى أنها لا يمكن أن تكون صناعة وتكلفاً ، وبخاصة لو تأملت تلك الأصوات المختلطة التي كانت تُسْمَع عند الوجه النبوي الشريف . وأيضاً لو كانت صناعة وتكلفاً لكانت طوع يمينه فكان لا يشاء يوماً أن يأتي بقرآن جديد إلا جاء به من هذا الطريق الذي اعتاده في تحضيره . وقد علمت[1] أنه كثيراً ما التمسه في أشد أوقات الحاجة إليه وكان لا يظفر به إلا حين يشاء الله .

* ***فهي إذاً حال غير اختيارية .***

ثم إننا نرجع البصر كرة أخرى فنرى البعد شاسعاً بينها وبين عارض السُّبات الطبيعي الذي يعتري المرء في وقت حاجته إلى النوم ؛ فإنها كانت تعروه قائماً أو قاعداً ، وسائراً أو راكباً ، وبكرة أو عشياً ، وفي أثناء حديثه مع أصحابه أو أعدائه ، وكانت تعروه فجأة وتزول عنه فجأة وتنقضي في لحظات يسيرة[2] ، لا بالتدريج الذي يعرض للوسنان . وكانت تصاحبها تلك الأصوات الغريبة التي لا تسمع منه ولا من غيره عند النوم . وبالإجمال كانت حالاً تباين حال النائم في أوضاعها وأوقاتها وأشكالها وجملة مظاهرها .

* ***فهي إذاً عارض غير عادي .***

ثم نرى المباينة التامة والمناقضة الكلية بينها وبين تلك الأعراض المَرضية والنوبات العصبية التي تصفرُّ فيها الوجوه ، وتبرد الأطراف ، وتصطك الأسنان ، وتتكشف العورات ، ويحتجب نور العقل ، ويخيِّم ظلام الجهل . لأنها كانت كما علمتَ مبعث نموّ في قوة البدن ، وإشراق في اللون ، وارتفاع في درجة الحرارة ، وكانت إلى جانب ذلك مبعث نور لا ظلمة ،

---

(١) راجع ص ٢٠ .

(٢) كما في الأحاديث السابقة في صفة الوحي .

ومصدر علم لا جهالة ، بل كان يجيء معها من العلم والنور ما تخضع العقول لحكمته ، وتتضاءل الأنوار عند طلعته .

ها نحن أولاء قد كدنا نصل .. فلتقفْ بنا وقفة يسيرة لنرى مبعث هذا الضوء الذي كان يبدو حيناً ويختفي أحياناً من حيث لا يد لصاحبه في ظهوره ولا في اختفائه : هل عسى أن يكون منبعثاً من طبيعة هذه النفس المحمَّدية ؟ .. إذاً والله لكان خليقاً أن ينبعث منها أبداً ولكان أحق بأن ينبعث منها في حال اليقظة العادية والرويَّة الفكرية أكثر مما ينبعث منها في تلك اللحظات اليسيرة حينما تغشيها هذه السحابة الرقيقة التي قد تشبه السِّنَة[1] أو الإغماء . فلابد إذاً أن يكون وراء هذه السحابة مصدر نوراني يمد هذه النفس المحمَّدية بين آن وآن فيسمو بها عن أفق شعورها المحدود ، ويزوِّدها بما شاء الله من العلوم . ثم يرسلها إلينا محمَّلة بهذه الشِّحنة العلمية إلى أن يلاقيها مرة أخرى . وكما آمن الناس بأن نور القمر ليس مستفاداً من ذاته ، وإنما هو مستفاد من ضياء الشمس ، لأنهم رأوا اختلاف نوره تابعاً أبداً لاختلاف مواقعه منها قرباً وبعداً ، فكذلك فليؤمنوا بأن نور هذا القمر النبوي إنما كان شعاعاً منعكساً من ضوء تلك الشمس التي يرون آثارها وإن كانوا لا يرونها . نعم إنهم لم يروها بأعينهم طالعةً في رابعة النهار . ولم يسمعوا صوتها بآذانهم جَرْساً مفهوماً وكلاماً يفقهه الناس ؛ ولكنهم كانوا يرون قَبَساً منها في الجبين ، وكانوا يسمعون حسيسها حول الوجه الكريم . وإن في ذلك لهدىً للمهتدين .

* ***هي إذاً قوة خارجية*** ، لأنها لا تتصل بهذه النفس المحمدية إلا حيناً بعد حين .
* ***وهي لا محالة قوةٌ عالِمة*** ؛ لأنها توحي إليه علماً .
* ***وهي قوة أعلى من قوته*** ؛ لأنها تحدث في نفسه وفي بدنه تلك الآثار

---

(١) السِّنَة : الغفوة اليسيرة .

العظيمة ﴿ **عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ * ذُو مِرَّةٍ** ﴾[1] [سورة النجم الآيتان : ٥ ، ٦].

* ***وهي قوة خَيِّرَةٌ معصومة*** ؛ لأنها لا توحي إلا الحقّ ولا تأمر إلا بالرشد . فلا جرم أنها لا تكون قوة طائشة شريرة كقوة الجن والشياطين ؛ إذ ما للجن وعلم الغيب ولقد ﴿ **تَبيَّنَتِ الجنُّ أَن لَو كانوا يعلمونَ الغيبَ مَا لَبِثوا فِي العذابِ المُهين** ﴾[2] [سورة سبأ الآية : ١٤] . وما للشيطان وخبر السماء وهي محفوظة من كل شيطان رجيم ﴿ **وما تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّياطينُ * وما يَنبَغِي لَهُمْ وما يَسْتَطِيعونَ * إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولون** ﴾ [سورة الشعراء الآيات : ٢١٠ - ٢١٢] . بل نقول : أليست « **الأرواح جنوداً مُجَنَّدة، ما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف** »[3] . أوَليس المرء يُعرَف بقرينه ، وشبه الشيء ينجذب إليه ؟ فكيف تأتلف تلك الأرواح الخبيثة وذلك القلب النقي الطهور ؟ أم كيف تأتلف تلك القوى الطائشة وهذا العقل الكامل الرصين ؟ ﴿ **هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِين * تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيم * يُلقُونَ السَّمْعَ وأكثرُهم كَاذِبون** ﴾ [سورة الشعراء الآيات : ٢٢١ - ٢٢٣] .

---

(١) ذو مِرَّة : ذو قوة ، وأصل المِرّة : الفتل .

(٢) أول الآية ﴿ **فَلَمَّا قَضينا عليهِ الموت ما دَلَّهُمْ على موتِهِ إلا دابةُ الأرضِ تأكُلُ مِنْسَأَته فَلَمَّا خرَّ تَبيَّنَتْ الجنُّ أن لو كانوا يعلمونَ الغيبَ مَا لبِثوا في العذابِ المُهين** ﴾ .

روى الطبري في تفسيره ٢٢ / ٧٦ عن عطاء قال : كان سليمان بن داود يصلي ، فمات وهو قائم يصلي والجن يعملون لا يعلمون بموته ، حتى أكلت الأرضة [سوسة الخشب] عصاه ، فخرَّ . وقال في ٢٢ / ٧٤ : يقول عز وجل : فلما خر سليمان ساقطاً بانكسار منسأته [عصاه التي توكأ عليها في صلاته] تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب الذي يدَّعون علمه ما لبثوا في العذاب المهين المذلّ حولاً كاملاً بعد موت سليمان وهم يحسبون أن سليمان حيّ أ هـ .

وقال ابن كثير في تفسيره ٦ / ٤٨٩ نحواً من هذا . وكذلك عامة المفسرين وانظر تفسير الدر المنثور للسيوطي ٥ / ٤٣١ ، ٤٣٢ ، ٤٣٣ .

(٣) هذا نص حديث متفق عليه : رواه البخاري في أحادي الأنبياء ٣٣٣٦ عن عائشة ، ورواه مسلم في البر والصلة والآداب ١٥٩ ، ١٦٠ عن أبي هريرة .

**** فماذا عسى أن تكون هذه القوة إن لم تكن قوة مَلَكٍ كريم ؟***

ذلك هو مبلغ العلم في وصف هذه القوة الغيبية حسبما يهدي إليه البحث العقلي المستقيم . وليس بالمؤمن المقتصد حاجة إلى أكثر من هذا القدر في إرضاء شهوته العلمية ، ولا في تثبيت عقيدته الدينية . فمن شاء المزيد من وصفها وحليتها فليس سبيله الرجوع إلى دلالات العقول ، وإنما سبيله الرجوع إلى النقل الصحيح عن مهبط سرِّها ومظهر نورها صلى الله عليه وعلى آله وسلم ؛ فهو وحده الذي يستطيع أن يتحدث عن صاحب هذا السر حديث شاهد العِيان الذي رأى شخصه وسمع صوته ، بل حديث التلميذ الذي جلس إلى أستاذه غير مرة .

فأما الذي يؤمن بالغيب فسيؤمن بهذا الحديث عنه وإن لم يره ؛ لأنه رأى أثره ، ولأنه يؤمن بمن أخبره . وأما الجاهلون الذين أوتوا قليلاً من علم ظاهر الحياة فظنوا أنهم أحاطوا بكل شيء علماً فإنهم سيكذِّبون بكل ما لم يحيطوا بعلمه ، وسيقولون لك : لعلَّهُ اضطرابٌ في أعصاب البصر خَيَّلَ إليه أنه يرى شيئاً من لا شيء ! وأنت فاستعذ بالله من عمى القلوب والعيون ، وقل : كلا ﴿ **مَا زاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى** ﴾ [سورة النجم الآية ١٧] . أو يقولون : لعلَّه اضطراب في قوى الفكر صوَّر له المعاني أشباحاً ماثلة ، والأحلام حقائق مجسَّمة ! فابرأْ إلى الله من هذا الجنون ، وقل : كلا ﴿ **مَا كَذَبَ الفؤادُ مَا رأَى** ﴾ [سورة النجم الآية : ١١] .

نعم لقد عجبوا أن يكون إنسان يرى الملائكة عِياناً ويكلمهم جهاراً . بل عجبوا أن يكون في الدنيا خلقٌ لا يرونه بأعينهم ، وصوت لا يسمعونه بآذانهم . فقالوا كيف يرى محمد ما لا نرى ، ويسمع ما لا نسمع !

[استئناس بما كشفه العلم في العصور الحاضرة]

ولعمري لنحن أحق أن نعجب من هذا العجب ؛ فإننا نفهم أنه لو ساغ

مثله في عصور الجاهلية الأولى ، ما كان ليسوغ اليوم وقد ملئت الأرض بالآيات العلمية التي تفسِّر لعقولنا تلك الحقائق الغيبية .

وإن من أقرب هذه الآيات إلى متناول الجمهور آية الهاتف (التليفون) . فقد أصبح الرجلان يكون أحدهما في أقصى المشرق والآخر في أقصى المغرب ، ثم يتخاطبان ويتراءيان ، من حيث لا يرى الجالسون في مجلس التخاطب شيئاً ، ولا يسمعون إلَّا أزيزاً كدويِّ النحل الذي في صفة الوحي .

فإذا كانوا يريدون آية علمية أوضح من هذه تمثل لهم الوحي تمثيلاً ، وتريهم من طريق التجارب - التي لا يؤمنون إلا بها - أن اتصال النفس الإنسانية بقوة أعلى منها قد يُحدث فيها ظاهرة من جنس هذه الظاهرة وينقش فيها معلومات لم تكن مخزونة في العقل ولا في الحس قبل ذلك ، فها قد أراهم الله تلك الآية العجيبة في (أعجوبة التنويم المغناطيسي) فقد أصبح الرجل القوي الإرادة يستطيع أن يتسلط بقوة إرادته على من هو أضعف منه حتى يجعله ينام بأمره نوماً عميقاً لا يشعر فيه بوخز الإبر . وهنالك يكون رهين إشارته ، وتنمحي إرادته في إرادته : فلو شاء أن يمحو من نفسه رأياً أو عقيدة لمحاها بكلمة واحدة . بل لو شاء أن يمحو من صدره اسم نفسه[1] ويلقنه اسماً آخر يقنعه بأنه هو اسمه لما وجد منه إلا إيماناً وتسليماً ، ولأصبح اسمه الحقيقي نسياً منسياً ، ولبقي هذا الاسم المصنوع منقوشاً على قلبه ولسانه بعد أن يستيقظ إلى ما شاء الله . فإذا كان هذا فعل الإنسان بالإنسان فما ظنك بمن هو أشد منه قوة ؟

---

(١) حوادث التنويم المغناطيسي وآثارها البدنية والنفسية أكثر من أن تحصى ولكننا أشرنا بهذا المثال إلى واقعة كان شاهد العيان فيها فاضل من علماء الأزهر (الأستاذ محمد عبد العظيم الزرقاني) وهو الذي فطن منها إلى هذه العبرة الدينية ونشرها بمجلة الهداية الإسلامية في شهر ربيع الأول من هذا العام (١٣٥٢ هـ) [**دراز**] .

فذلك مَثل[1] حامل الوحي ومتلقِّيه عليهما السلام : هذا بشرٌ مطواعٌ ذو روحٍ صافٍ يقبل انطباع العلوم فيه ، وذاك مَلَك شديد القوى ذو مِرَّة يحمل إليه رسالته ويقرئها إياه ، فلا ينسى إلا ما شاء الله .

بَيْدَ أنَّ بُعداً شاسعاً بين هذا الوحي النبوي ووحي الناس بعضهم لبعض ، فالناس كما عرفت قد يوحون زخرف القول غروراً ، وكثيراً ما يترك وحيهم في نفس متلقِّيه أعراضاً عقلية أو بدنية يصعب علاجها . فأين هذا من الوحي بين رسولين مؤيدين اصطفاهما الله لرسالته : رسول من الملائكة ، ورسول من الناس ؟ فأما الرسول الملَكي فإنه كما علمت لا يوحي إلَّا الحق ، ولا يأمر إلا بالخير . وأما الرسول البشري فإنه لا يزال من بعد كما كان من قبل ، ثابت الفؤاد كامل العقل، قوي النفس والبدن ﴿ **اللهُ أَعْلَمُ حيثُ يَجْعَلُ رِسالَتَه** ﴾ [سورة الأنعام الآية : ١٢٤] .

* * *

[المرحلة الرابعة من البحث : البحث في جوهر القرآن نفسه عن حقيقة مصدره]

وبعد ، فإننا في هذا المنهج الذي سلكناه من أول البحث إلى هذا الحد لم نُرد أن نَعرِض للقرآن في جوهره ، بل كان قصارى ما صنعناه أننا درسنا الطريق التي جاء منها : فما وجدنا في اعترافات صاحبه ، ولا في حياته الخلقية ، ولا في وسائله وصلاته العلمية ، ولا في سائر الظروف العامة أو الخاصة التي

(١) تأمل هذا التقريب تجد فيه آية أخرى على بطلان دعوى (الوحي النفسي) التي يروجها الملحدون ، إذ أنه من الأركان الأساسية التي أجمع عليها علماء التنويم أنه إنما يكون بين نفسين مختلفتيّ الطبائع إحداهما أقوى إرادة من الأخرى فلا يستطيع امرؤ أن يقوم بهذه التجربة في نفسه إلا إذا فرضنا اجتماع النقيضين أو أن يكون الواحد اثنين [**دراز**] .

ظهر فيها القرآن إلا شواهد ناطقة بأن هذا القرآن ليس له على ظهر الأرض أبٌ ننسبه إليه من دون الله .

وتلك كلها دراسات خارجية إنما يسلكها رجلٌ وقف معنا على طرف صالح من هذه الحياة النبوية وملابساتها ، وكان مع ذلك سليم الفطرة يتعرف الأشياء بمثالها ويهتدي إليها بأقرب أماراتها . فمِثل هذا سيرضى منا بهذا القدر ويهتدي به .

وأما الذين لا يعلمون عن تلك الحياة النبوية إلَّا قليلاً – وكثيرٌ ما هم – والذين يريدون أن يأخذوا حجة القرآن لنفسه من نفسه ، فهؤلاء لا غنى لهم أن نتقدم بهم خطوة أخرى نبين لهم فيها أن هذا الكتاب الكريم يأبى بطبيعته أن يكون من صنع البشر ، وينادي بلسان حاله أنه رسالة القضاء والقدر ، حتى إنه لو وُجد مُلقىً في صحراء لأيقن الناظر فيه أن ليس من هذه الأرض منبعه ومنبته ، وإنما كان من أفق السماء مطلعه ومهبطه .

[حدود القدرة البشرية وحدّ الإعجاز]

ذلك أن قدرة الناس وإن تفاوتت فإلى حدود محدودة لا تتعداها وقدرة الخالق على الممكنات لا حدَّ لها . فكل كائن يجاوز حدود القدرة العالَمِية واقع في حدود القدرة الإلٰهية البتة . ولا ثالث .

مثال ذلك : أن الرجل قد يصرع الرجل وقد يصرع الرجلين وقد يصرع الآحاد والعشرات . ولكن هل من الناس من يقف في وجه العالم كله فيقهر الأمم أفراداً وجماعات ؟

والله يأتي بالشمس من المشرق فمن ذا الذي يأتي بها من المغرب ؟

وأنت تستطيع أن تطفيء المصباح وأن توقده حين تشاء . ولكن لن يستطيع الناس جميعاً أن يُطْلِعوا الشمس قبل وقتها ، أو يؤخروها عن ساعتها

أو يطفئوا نورها ، أو يأتوا بمثلها ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ؟

إنهم لا يستطيعون أن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه . فأنَّى لهم أن يضاهئوا تلك الكائنات العلوية التي لا تنالها أيديهم ولا قذائفهم ، والتي لا يملكون من أمرها سوى النظر إليها والإعجاب بها والاستفادة منها والخضوع لها .

فذلك العجز العام عن مضاهاة الخلق وعن محاكاة الصنعة هو آية أنها ليست من صنع الناس . وذلك هو الطابع الإلٰهي والمظهر السماوي الذي تمتاز به صنعة الخالق عن صنعة المخلوق . وهذا هو المثل الذي نريد أن نطبقه على القرآن الكريم .

غير أن من الناس فريقاً غريقاً في حمأة[1] العناد ؛ يقولون ﴿ **مَهْمَا تَأْتِنا بِهِ مِنْ آيةٍ لِتَسْحَرَنا بِهَا فَمَا نَحنُ لَكَ بِمؤمنينَ** ﴾ [سورة الأعراف الآية : ١٣٢] ﴿ **وَلَو أنَّنا نَزَّلنا إليهِمُ الملائِكَةَ وكلَّمَهُمُ الموتَىٰ وحَشَرْنا عليْهِمْ كُلَّ شيءٍ قُبُلاً مَا كَانوا لِيؤمنوا إلا أن يَشاءَ اللهُ** ﴾[2] [سورة الأنعام الآية : ١١١] .

وآخرين لا يجدون طمأنينتهم إلا في اضطراب الشك ، يقولون ﴿ **إن نظنُّ إلا ظنّاً وما نحن بمُستيقِنينَ** ﴾ [سورة الجاثية الآية : ٣٢] ﴿ **وَلَو فَتحنا عليهِم باباً**

---

(١) حَمْأَة : طين أسود منتن .

(٢) قال الإمام ابن الجوزي في زاد المسير ٣ / ١٠٦ :
سبب نزولها أن المستهزئين أتوا رسول الله ﷺ في رهط من أهل مكة ، فقالوا له : ابعث لنا بعض موتانا حتى نسألهم : أحق ما تقول أم باطل ؟ أو أرنا الملائكة يشهدون لك أنك رسول الله ؟ أو ائتنا بالله والملائكة قبيلاً ، فنزلت هذه الآية . رواه أبو صالح عن ابن عباس . ومعنى الآية : ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة كما سألوا ، وكلمهم الموتى فشهدوا لك بالنبوة ، وحشرنا أي جمعنا عليهم كل شي في الدنيا قبلاً ، ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله . فأخبر أن وقوع الإيمان بمشيئته لا كما ظنوا أنهم متى شاءوا آمنوا ، ومتى لم يشاءوا لم يؤمنوا أهـ .

مِن السماءِ فظلُّوا فيهِ يَعْرُجون * لقالوا إنَّما سُكِّرَتْ أبْصارُنا بَلْ نحنُ قومٌ مَسحُورون ﴾ [سورة الحجر الآيتان : ١٤ ، ١٥] **﴿ وَلَو نَزَّلْنا عليكَ كِتاباً فِي قِرطاسٍ فَلَمَسُوهُ بأيديهِمْ لقالَ الذينَ كفروا إنْ هذا إلَّا سِحْرٌ مُبين ﴾**
[سورة الأنعام الآية ٧] .

فهؤلاء وأولئك لا سبيل لنا عليهم ولا ينفعهم نصحنا إن كان الله يريد أن يُغْوِيَهم ؛ إذ ليس من شأننا أن نُسمع الصمّ أو نَهدي العُمي ولا الذين يجعلون أصابعهم في آذانهم فإذا هم لا يسمعون ، أو يضعون أكفهم على أعينهم فإذا الشمس الطالعة ليست بطالعة **﴿ وَمَن يُرِدِ اللهُ فِتْنَتَهُ**(١) **فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللهِ شيئاً ﴾** [سورة المائدة الآية : ٤١] وإنما سبيلنا أن ننصِب الحجة لجاهلها من طلاب الحق ، ونوضح الطريق لسابلها من روَّاد اليقين .

ها نحن أولاء ندعو كل من يطلب الحق بإنصاف ، أن ينظر معنا في القرآن من أي النواحي أحب : من ناحية أُسلوبه ، أو من ناحية علومه ، أو من ناحية الأثر الذي أحدثه في العالَم وغيَّر به وجه التاريخ أو من تلك النواحي مجتمعة – على أن تكون له الخِيرَةُ بعد ذلك أن ينظر إليه في حدود البيئة والعصر الذي ظهر فيه ، أو يفترض أنه ظهر في أرقى الأوساط والعصور التاريخية . وسواء علينا أيضاً أن ينظر إلى شخصية الداعي الذي جاء به أو يلتمس شخصاً خيالياً تجمَّعت فيه مَرانات الأدباء ، وسلطات الزعماء ، ودراسات العلماء بكافة العلوم الإنسانية – ثم نسأله : هل يجد فيه إلَّا قوة شاذة تَغلب كل مغالب ، وتتضاءل دونها قوة كل عالِم ، وكل زعيم ، وكل شاعر وكاتب ، ثم تنقضي الأجيال والأحقاب ولا ينقضي ما فيه من عجائب ، بل قد تنقضي الدنيا كلها ولما يُحِط

---

(١) قال الطبري في تفسيره ٦ / ٢٣٨ :
معنى الفتنة في هذا الموضع : الضلالة عن قصد السبيل .

الناس بتأويل كل ما فيه ﴿ **يومَ يأتي تَأْويلُه[1] يقولُ الذين نَسُوهُ مِن قَبلُ قَدْ جَاءتْ رُسُلُ ربِّنا بالحقِّ** ﴾ [سورة الأعراف الآية : ٥٣] .

[النواحي الثلاث للإعجاز]

فلنأخذ الآن – بعون الله وتوفيقه – في دراسة هذه النواحي الثلاث من الإعجاز القرآني . أعني :

* ناحية الإعجاز اللغوي .
* وناحية الإعجاز العلمي .
* وناحية الإعجاز الإصلاحي التهذيبي الاجتماعي .

ولتكن عنايتنا أوفر بناحيته اللغوية لأنها هي التي وقع من جهتها التحدي بالقرآن جملة وتفصيلاً في سورة منه . ولذلك نبدأ بها .

* * *

---

(١) تأويله : حقيقته وتفسيره ، ويوم يأتي تأويله : هو يوم القيامة .

القرآن معجزة لغوية

[استقصاء الشُّبَه الممكنة حول هذه القضية تمهيداً لمحوها واحدة واحدة]

من كان عنده شيء من الشك في هذه القضية فليأذن لنا أن نستوضحه : فيم ذلك الشك ؟

(١) هل حدثته نفسه بأنه هو يستطيع أن يأتي بكلام في طبقة البلاغة القرآنية ؟

(٢) أم هو قد عرف من نفسه القصور عن تلك الرتبة ، ولكنه لم يعرف عن الناس ما عرف من نفسه ؟

(٣) أم علم أن الناس جميعاً قد سكتوا عن معارضة القرآن ، ولكنه لم يعلم أن سكوتهم عنه كان عجزاً ، ولا أن عجزهم جاء من ناحية القرآن ذاته ؟

(٤) أم علم أنهم قد عجزوا عنه وأنه هو الذي أعجزهم ، ولكنه لم يعلم أن أسلوبه كان من أسباب إعجازه ؟

(٥) أم هو يوقن بأن القرآن الكريم كان وما زال معجزة بيانية لسائر الناس ، ولكنه لا يوقن بأنه كان معجزاً كذلك لمن جاء به ؟

(٦) أم هو يؤمن بهذا كله ؛ ولكنه لا يدري : ما أسراره وما أسبابه ؟

هذه وجوه ستة ، لكل وجه منها علاج يخصه . وسنعالجها على هذا الترتيب .

[الشبهة الأولى : غرّ ناشيء يتوهم القدرة على محاكاة القرآن]

١ – فأما إن كان مثار الشبهة عنده أنه زاول شيئاً من صناعة الشعر أو الكتابة ، وآنس من نفسه اقتداراً في البيان فوسوس له شيطان الإعجاب

بنفسه والجهل بالقرآن أنه يستطيع الإتيان بمثل أسلوبه ، فذلك ظن لا يظنه بنفسه أحد من الكبار المنتهين ، وإنما يعرض – إن عرض – للأغرار الناشئين . ومثل هذا دواؤه عندنا نصحٌ نتقدم به إليه أن يطيل النظر في أساليب العرب ، وأن يستظهر على فهمها بدراسة طرف من علوم الأدب ، حتى تستحكم عنده ملكة النقد البياني ، ويستبين له طريق الحكم في مراتب الكلام وطبقاته . ثم ينظر في القرآن بعد ذلك .

وأنا له زعيمٌ بأن كل خُطوة يخطوها في هذه السبيل ستزيدُه معرفة بقدره ، وستحلُّ عن نفسه عقدةً من عقد الشك في أمره ؛ إذ يرى هنالك أنه كلما ازداد بصيرة بأسرار اللغة ، وإحساناً في تصريف القول ، وامتلاكاً لناصية البيان ، ازداد بقدر ذلك هضماً لنفسه ، وإنكاراً لقوته ، وخضوعاً بكلِّيته أمام أسلوب القرآن . وهذا قد يبدو لك عجيباً، أن يزداد شعور المرء بعجزه عن الصنعة بقدر ما تتكامل فيها قوته ويتسعُ بها علمه . ولكن لا عجب ، فتلك سنة الله في آياته التي يصنعها بيديه : لا يزيدك العلم بها والوقوف على أسرارها إلا إذعاناً لعظمتها وثقةً بالعجز عنها . ولا كذلك صناعات الخَلْق ، فإن فضلُ العلم بها يمكِّنك منها ويفتح لك الطريق إلى الزيادة عليها . ومِن هنا كان سحرةُ فرعون هم أوَّل المؤمنين برب موسى وهارون .

فإن أبى المغرور إلَّا إصراراً على غروره ، وكبُر عليه أن يُقرَّ بعجزه وقصوره ، دعوناه إلى الميدان ليجرب نفسه ويَروز قوته ، وقلنا له : أخرج لنا أحسن ما عندك لننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين .. غير أننا نعظه بواحدة أخرى : ألا يَخرج على الناس ببضاعته حتى يُطيل الرويّة ويُحكم الموازنة . وحتى يستيقن الإحسان والإجادة ؛ فإنه إن فعل ذلك كان أدنى أن يتدارك غلطه ويواري سوأته . وإلَّا فقد أساء المسكين إلى نفسه من حيث أراد الإحسان إليها .

وإن في التاريخ لَعِبَراً تؤثَر عن أناس حاولوا مثل هذه المحاولة : فجاءوا في معارضة القرآن بكلام لا يشبه القرآن ولا يشبه كلام أنفسهم ؛ بل نزلوا

به إلى ضرب من السخف والتفاهة بادٍ عَوارُه ، باقٍ عارُه وشَنارُه : فمنهم عاقلٌ استحيا أن يُتمَّ تجربته ، فحطَّم قلمه ومزَّق صحيفته[1] . ومنهم ماكرٌ وجد الناس في زمنه أعقل من أن تروج فيهم سخافاته ، فطوى صحفه وأخفاها إلى حين[2] . ومنهم طائشٌ برز بها إلى الناس ، فكان سخرية للساخرين ، ومثلاً للآخرين[3] .

---

(١) يعزى شيء من ذلك لابن المقفع ، ولأبي الطيب ، وللمعري . والظن بهؤلاء أنهم كانوا في غنى بعقولهم وأذواقهم عن الشروع في هذه المحاولة ، إلا أن يكون على حد : ﴿ **وَلَكِن لِيَطمئِنَ قلبي** ﴾ [سورة البقرة الآية : ٢٦٠] [**دراز**] .

(٢) من ذلك ما اشتهر عن تلك الكتبَ التي وضعها زعماء نحلتي (القاديانية) و (البهائية) لتكون دستوراً دينياً لهم كالقرآن ، وقد لفقوها تلفيقاً ركيكاً من آيات قرآنية وكلمات عامية ، وبدلوا فيها أصول الإسلام وفروعه ، وادعوا فيها لأنفسهم النبوة أو الألوهية ، ولكن أتباعهم لم يجسروا أن يذيعوا تلك الكتب وشمس العلم طالعة ، فأخفوها – كما يخفى السِّنَّوْر سَلْحَتَه – إلى أن يجيء وقت يفشو فيه الجهل بالعلوم والآداب ، وتستعد فيه النفوس لقبول أمثالها . فلينتظروا آخر الدهر [**دراز**] .

(٣) ذلك مثل مسيلمة الدجال ، فقد زعم أنه يوحى إليه بكلام مثل القرآن ، وما صنع شيئاً إلا أنه كان يعمد إلى آي من القرآن فيسرق أكثر ألفاظها ويبدل بعضاً ، كقوله : (إنا أعطيناك الجماهر ، فصل لربك وجاهر) أو يجيء على موازين الكلمات القرآنية بألفاظ سوقية ومعان سوقية ، كقوله : (والطاحنات طحناً ، والعاجنات عجناً ، والخابزات خبزاً) وهكذا لم يستطع وهو عربي قح أن يحتفظ بأسلوب نفسه ، بل نزل إلى حد الإسفاف ، وأتى العبث الذي يأتيه الصبيان في مداعبتهم وتفككهم بقلب الأشعار والأغاني عن وجهها ، ولا يخفى أن هذا كله ليس من المعارضة في شيء ، بل هو المحاكاة والإفساد ، وما مثله إلا كمثل من يستبدل بالإنسان تمثالا لا روح فيه ، وهو على ذلك تمثال ليس فيه شيء من جمال الفن . وإنما المعارضة أن تعمد إلى معنى من المعاني فتؤديه نفسه بأسلوب آخر يوازي الأصل في بلاغته أو يزيد . ومن يحاول ذلك في المعاني القرآنية فإنما يحاول محالاً ، والتجربة أصدق شاهد . بل من يحاول أن يجيء بمثل أسلوب القرآن في معان أخرى لا يتحرى فيها الصدق والحكمة فقد طمع في غير مطمع . ولذا كان من طرق التحدي للعرب أن طولبوا ﴿ **بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثلِهِ مُفْتَرَيات** ﴾ [سورة هود الآية : ١٣] .

هذا والذي نفهمه في أمر مسيلمة هو ما فهمه الأديب الرافعي : أنه لم يرد أن =

فمن حدَّثته نفسه أن يعيد هذه التجربة مرَّة أخرى فلنيظر في تلك العبر وليأخذ بأحسنها . ومن لم يَستَحِ فليصنع ما يشاء .

[الشبهة الثانية : أديب متواضع يتوهم هذه القدرة عند غيره من الفحول]

٢ – وأما إن كان مدخل الشبهة عنده أنه رأى في الناس من هو أعلى منه كعباً في هذه الصناعة ، فقال في نفسه : (لئن لم أكن أنا من فرسان هذا الميدان ، ولم يكن لي في معارضة القرآن يدان ، لعلَّ هذا الأمر يكون يسيراً على من هو أفصح مني لساناً وأسحر بياناً) فمِثل هذا نقول له : ارجع إلى أهل الذكر من أدباء عصرك فاسألهم هل يقدرون أن يأتوا بمثله ؟ فإن قالوا لك (لو نشاء لقلنا مثل هذا) فقل (هاتوا برهانكم !) وإن قالوا (لا طاقة لنا به) فقل:أيُّ شيء أكبر من العجز شهادةً على الإعجاز ؟

= يعرض للقرآن من ناحية الصناعة البيانية ، إذ كانت هذه الناحية أوضح من أن يلتبس أمرها عليه ، أو أن يستطيع تلبيسها على أحد من العرب . وإنما أراد أن يتخذ سبيله إلى استهواء قومه من ناحية أخرى ظنها أهون عليه وأقرب تأثيراً في نفوسهم . ذلك أنه رأى العرب تعظم الكهان في الجاهلية ، وكانت عامة أساليب الكهان من هذا السجع القلق الذي يزعمون أنه من كلام الجن ، كقولهم : « **يا جليح . أمر نجيح . رجل فصيح ، يقول لا إله إلا الله** » البخاري في المناقب : إسلام عمر . فكذلك جعل يطبع مثل هذه الأسجاع في محاكاة القرآن ، ليوهمهم أنه يوحى إليه كما يوحى إلى محمد ، كأنما النبوة والكهانة ضرب واحد . على أنه لم يفلح في هذه الحيلة أيضاً ، فقد كان كثيرون من أشياعه يعرفونه بالكذب والحماقة ، ويقولون إنه لم يكن في تعاطيه الكهانة حاذقاً ، ولا في دعواه النبوة صادقاً ، وإنما كان اتباعهم إياه كما قال قائلهم : (كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مُضَر)[**دراز**].

– **قلت** : حديث السجع المذكور رواه البخاري في مناقب الأنصار ٣٨٦٦ ، أما القائل (كذاب ربيعة أحب ..) فهو طلحة النمري حينما جاء إلى مسيلمة الكذاب فسمع منه ثم قال : (أشهد أنك كذاب ، وأن محمداً صادق ، ولكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر) . تاريخ الطبري ٣ / ٢٨٦ .

ثم ارجع إلى التاريخ فاسأله : ما بال القرون الأولى ؟ ينبئك التاريخ أن أحداً لم يرفع رأسه أمام القرآن في عصر من أعصاره ، وأن بضعة النفر الذين أنغضوا رءوسهم إليه باءوا بالخزي والهوان ، وسحب الدهر على آثارهم ذيل النسيان .

أجل . لقد سجَّل التاريخ هذا العجز على أهل اللغة أنفسهم في عصر نزول القرآن . وما أدراك ما عصر نزول القرآن ؟ هو أزهى عصور البيان العربي ، وأرقى أدوار التهذيب اللغوي . وهل بلغت المجامع اللغوية في أمة من الأمم ما بلغته الأمة العربية في ذلك العصر من العناية بلغتها ، حتى أدركت هذه اللغة أشدَّها ؛ وتمَّ لهم بقدر الطاقة البشرية تهذيب كلماتها وأساليبها ؟.. ما هذه الجموع المحشودة في الصحراء ، وما هذه المنابر المرفوعة هنا وهناك ؟ .. إنها أسواق العرب تعرض فيها أنفس بضائعهم وأجود صناعاتهم ؛ وما هي إلا بضاعة الكلام وصناعة الشعر والخطابة ، يتبارون في عرضها ونقدها ، واختيار أحسنها والمفاخرة بها ، ويتنافسون فيها أشد التنافس ، يستوي في ذلك رجالهم ونساؤهم . وما أمرُ حسَّان والخنساء وغيرهما بخافٍ على متأدِّب .

فما هو إلا أن جاء القرآن .. وإذا الأسواق قد انفضت إلا منه . وإذا الأندية قد صَفِرَت .. إلا عنه . فما قدر أحد أن يُباريَه أو يجاريَه ، أو يقترح فيه إبدال كلمة بكلمة ، أو حذف كلمة ، أو زيادة كلمة ، أو تقديم واحدة وتأخير أخرى . ذلك على أنه لم يسُدَّ عليهم باب المعارضة ، بل فتحه على مصراعيه ، بل دعاهم إليه أفراداً أو جماعات ، بل تحدَّاهم وكرَّر عليهم ذلك التحدي في صور شتى ، متهكماً بهم متنزلاً معهم إلى الأخف فالأخف :

* فدعاهم أول مرة أن يجيئوا بمثله[1] .
* ثم دعاهم أن يأتوا بعشر[2] سُوَر مثله .

---

(١) كما في الآية ٨٨ من سورة الإسراء ، والآية ٣٤ من سورة الطور .
(٢) كما في الآية ١٣ من سورة هـود .

* ثم أن يأتوا بسورة واحدة[1] مثله .
* ثم بسورة واحدة من[2] مثله[3] .
* وأباح لهم في كل مرة أن يستعينوا بمن شاءوا ومن استطاعوا .
* ثم رماهم والعالم كله بالعجز في غير مواربة فقال ﴿ **لَئِنِ اجتمعتِ الإنسُ والجِنُّ عَلَىٰ أن يأتوا بِمثلِ هذا القرآنِ لا يأتونَ بِمثلِهِ وَلَو كانَ بعضُهُم لبعضٍ ظَهيراً** ﴾ [سورة الإسراء الآية : ٨٨] ، وقال ﴿ **فَإن لَمْ تفعلوا وَلَن تَفعلوا فاتَّقُوا النَّارَ التي وقودُها النَّاسُ والحِجَارة** ﴾

[سورة البقرة الآية : ٢٤] .

فانظر أي إلهاب ، وأي استفزاز !

لقد أجهز عليهم بالحكم الباتّ المؤبد في قوله ﴿ **ولن تفعلوا** ﴾ ثم هدَّدهم بالنار ، ثم سواهم بالأحجار . فلعمري لو كان فيهم لسان يتحرك لَما صمتوا عن منافسته وهم الأعداء الألداء ، وأباة الضيم الأعزاء ، وقد أصاب منهم موضع عزتهم وفخارهم . ولكنهم لم يجدوا ثَغرة ينفذون منها إلى معارضته ، ولا سُلَّماً يصعدون به إلى مزاحمته ، بل وجدوا أنفسهم منه أمام طود شامخ ، فما استطاعوا

---

(١) كما في الآية ٣٨ من سورة يونس .
(٢) كما في الآية ٢٣ من سورة البقرة .
(٣) انظر كيف تَنَزَّلَ معهم في هذه المرتبة من طلب المماثل إلى طلب شيء مما يماثل ، كأنه يقول : لا أكلفكم بالمماثلة العامة ، بل حسبكم أن تأتوا بشيء فيه جنس المماثلة ومطلقها ، وبما يكون مثلا على التقريب لا التحديد ، وهذا أقصى ما يمكن من التنزل . ولذا كان هو آخر صيغ التحدي نزولاً ، فلم يجيء التحدي بلفظ (من مثل) إلا في سورة البقرة المدنية . وسائر المراتب بلفظ (مثله) في السور التي نزلت قبل ذلك بمكة : فتأمل هذا الفرق فإنه طريف ، واسأل الله أن يوفقنا وإياك لفهم أسرار كتابه ، والانتفاع بهدايته وآدابه [دراز]

له نقباً[1] .. حتى إذا استيأسوا من قدرتهم واستيقنوا عجزهم ، ما كان جوابهم إلَّا أن ركبوا متن الحتوف ، واستنطقوا السيوف بدل الحروف . وتلك هي الحيلة التي يلجأ إليها كل مغلوب في الحجة والبرهان ، وكل من لا يستطيع دفعاً عن نفسه بالقلم واللسان .

ومضى عصر القرآن والتحدي قائم ليجرب كل امريء نفسه ، وجاء العصر الذي بعده وفي البادية وأطرافِها أقوامٌ لم تختلط أنسابهم ، ولم تنحرف ألسنتهم ، ولم تتغير سليقتهم ، وفيهم من لو استطاعوا أن يأتوا[2] هذا الدين من أساسه ويثبتوا أنهم قادرون من أمر القرآن على ما عجز عنه أوائلهم لفعلوا ، ولكنهم ذَلت أعناقهم له خاضعين ، وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل .

ثم مضت تلك القرون ، وورث هذه اللغةَ عن أهلها الوارثون ، غير أن هؤلاء الذين جاءوا من بعد ، كانوا أشد عجزاً وأقل طمعاً في هذا المطلب العزيز . فكانت شهادتهم على أنفسهم مضافة إلى شهادة التاريخ على أسلافهم ، وكان برهان الإعجاز قائماً أمامهم من طريقين : وجداني وبرهاني .. ولا يزال هذا دأب الناس والقرآن حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

[الشبهة الثالثة : عدم معارضة العرب لأسلوب القرآن ربما كان بسبب انصراف همهم لا بسبب عجزهم]

٣ – فإن قال لنا : نعم ، قد علمتُ أنه لم يأت أحد بشيء في معارضة

---

(١) نَقْباً : ثَقْباً . وقد استعار المؤلف هنا هذه الآية التي يصف فيها الله عز وجل السد الذي بناه ذو القرنين ليمنع يأجوج ومأجوج من الإفساد في الأرض ، وقد وصفه الله عز وجل بصفتين :

أ – أنه لا يرتقى لارتفاعه وملاسته .

ب – أنه لا يخرق لصلابته وسمكه .

(٢) يأتوا : يهدموا ويقلعوا من الأساس .

القرآن . ولكن ليس كل ما لم يفعله الناس يكون خارجاً عن حدود قدرتهم ، فربما ترك الإنسان فعلاً هو من جنس أفعاله الاختيارية لعدم قيام الأسباب التي من شأنها أن تبعث عليه ، أو لأن صارفاً إلٰهيّاً ثبَّطَ همته وصرف إرادته عنه مع توافر الأسباب الداعية إليه . أو لأن عارضاً فجائياً عطَّل آلاته وعاق قدرته عن إحداث ذلك الفعل بعد توجه إرادته نحوه . فعلى الفرضين الأولين يكون عدم معارضة القرآن قلةَ اكتراث بشأنه لا عجزاً عن الإتيان بمثله . وعلى الفرض الأخير يكون تركه عجزاً عنه حقاً ، لكن ليس لمانع فيه من جهة علو طبقته عن مستوى القدرة البشرية ، بل لمانع خارجيٍّ هو حماية[1] القدرة العليا له وصيانتها إياه عن معارضة المعارضين ، ولو أزيل هذا المانع لجاء الناس بمثله .

قلنا له : هذه الفروض كلها لا تنطبق على موضوعنا بحال .

أما الأول : فإن الأسباب الباعثة على المعارضة كانت موفورة متضافرة . وأي شيء أقوى في استثارة حمية خصمك من ذلك التقريع البليغ المتكرر الذي توجهه إليه معلناً فيه عجزه عن مضاهاة عملك ؟ إن هذا التحدي كافٍ وحدَه في إثارة حفيظة الجبان وإشعال همته للدفاع عن نفسه بما تبلغه طاقته . فكيف لو كان الذي تتحداه مجبولاً على الأنفة والحمية ؟ وكيف لو كان العمل الذي تتحداه به هو صناعته التي بها يفاخر ، والتي هو فيها المدرَّب الماهر وكيف لو كنت مع ذلك ترميه بسفاهة الرأي وضلال الطريق ؟ وكيف لو كنت تبتغي من وراء هذه الحرب الجدلية هدْمَ عقائده ، ومحو عوائده ، وقطع الصلة بين ماضيه ومستقبله ؟

---

(١) هذا هو القول بالصِّرْفة ، الذي اشتهر عن النَظَّام من المعتزلة ، وهو وإن كان اعترافاً في الجملة بصحة الإعجاز إلا أنه لا يقول به إلا أعجمي أو شبهه ممن لم يذق للبلاغة طعماً . ولذلك لم يتابعه عليه تلميذه الجاحظ ولا أحد من علماء العربية ، وهو يعد خلاف ما عرفه العرب من أنفسهم كما سنبينه [**دراز**] .

وأما الثاني : فإن هذه الأسباب قد رأيناها آتت بالفعل ثمراتها ، وأيقظت همم المعارضين إلى أبعد حدودها . حتى كان أمرُ محمد والقرآن هو شغلهم الشاغل ، وهمَّهم الناصب ، فلم يدَعوا وسيلة من الوسائل لمقاومته باللطف أو بالعنف إلا استنبطوها وتذرعوا بها :

* أيخادعونه عن دينه لِيَلين لهم ويركن قليلاً إلى دينهم[1] .

* أم يساومونه بالمال والملك ليكف عن دعوته[2] .

---

(١) « **جاء رجال من قريش إلى النبي ﷺ فقالوا له : يا محمد . تعال تمسح بآلهتنا ، أو ألم بآلهتنا وندخل معك في دينك . فنزل قوله تعالى ﴿ وَإن كادُوا ليَفتِنُونكَ عَنِ الذي أوحينا إليك ﴾** [سورة الإسراء الآية : ٧٣] » رواه ابن مردويه بسند جيد [**دراز**] .

– **قلت** : عزاه السيوطي في الدر المنثور ٤ / ٣٥٢ وأسباب النزول ١٢٣ لابن إسحاق وابن أبي حاتم وابن مردويه ، ثم قال في أسباب النزول : هذا أصح ما ورد في سبب نزولها وهو إسناد جيد . أ هـ .

(٢) إيماءً إلى القصة الطويلة التي نزل فيها قوله تعالى ﴿ **وقالوا لَن نؤمِنَ لَكَ حتى تَفْجُرَ لَنا مِنَ الأرضِ يَنبُوعاً** ﴾ [سورة الإسراء الآية : ٩٠] فما فوقها . رواها ابن جرير بسند متصل فيه مبهم ، ولها شاهد مرسل صحيح [**دراز**] .

– **قلت** : حاصل هذه القصة أن أكابر قريش جاءوا إلى رسول الله ﷺ فعرضوا عليه المال إن كان يريد ، أو السؤدد والشرف ، أو المُلْك عليهم ، أو العلاج إن كان به مَسٌّ من الجن ، بشرط أن يترك هذا الدين ، فأجابهم بنفي ما ظنوه به ، وأبلغهم أنه لا يطلب منهم سوى الإسلام . فطلبوا منه أن يسأل ربه أن يبعد عنهم الجبال التي حولهم وأن يبسط بلادهم ويُجري فيها الأنهار ، ويبعث لهم من مضى من آبائهم ، وأن يرسل الله لهم ملائكة ، أو أن يكون للنبي ﷺ قصورٌ وكنوزٌ وجنات ، ثم طلب أحدهم من رسول الله ﷺ أن يتخذ سُلَّماً يرقى فيه إلى السماء ويأتي بنسخة من القرآن وأربعة من الملائكة يشهدون له بالرسالة ... وكل ذلك بالطبع على سبيل السخرية والاستهزاء والعناد لا طلباً للحق .

رواه الطبري ١٥ / ١٦٤ ، وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٤ / ٣٦٧ للطبري وابن إسحاق وابن المنذر وابن أبي حاتم ، وقواه في أسباب النزول ١٢٦ بشاهد مرسل في سنن سعيد بن منصور .

* أم يتواصون بمقاطعته ، وبحبس الزاد عنه وعن عشيرته الأقربين ، حتى يموتوا جوعاً أو يسلموه[1] .
* أم يمنعون صوت القرآن أن يخرج من دور المسلمين خشية أن يسمعه أحد من أبنائهم[2] .
* أم يلقون فيه الشبهات والمطاعن .
* أم يتهمون صاحبه بالسحر والجنون ليصدوا عنه من لا يعرفه من القبائل القادمة في المواسم .
* أم يمكرون[3] به ليُثْبِتوه[4] أو يقتلوه أو يُخْرِجوه[5] .

---

(١) إيماءاً إلى خبر « **الصحيفة الجائرة التي تحالفت فيها قريش وكنانة على بني هاشم وبني المطلب ألا يناكحوهم ولا يبايعوهم حتى يسلموا إليهم رسول الله** » . رواه الشيخان عن الزهري . وفي شأن هذه المحالفة يقول النبي ﷺ في غزوة الفتح وفي حجة الوداع : « **منزلنا غداً إن شاء الله بخَيْف بني كنانة حيث تقاسموا على الكفر** » رواه الشيخان [**دراز**] .
– **قلت** : الحديث الأول : متفق عليه : رواه البخاري في الحج ١٥٩٠ ، ومسلم في الحج ٣٤٤ .
الحديث الثاني : متفق عليه : رواه البخاري في الحج ١٥٨٩ ، ومسلم في الحج ٣٤٣ .
(٢) لم يطق أشراف قريش أن يستعلن أبو بكر بقراءة القرآن في فناء داره ، إذ كانت تهوي إليه أفئدة من أبنائهم ونسائهم وعبيدهم يستمعون لقراءته ، فخشي المشركون أن يفتتنوا . وكان ابن الدَّغِنَة قد أجار أبا بكر ، فأمروه أن يسترد جِوَاره منه إذا أصر على الإعلان بقراءته . وقد فعل . الحديث رواه البخاري [**دراز**] .
– **قلت** : رواه البخاري في الكفالة ٢٢٩٧ ، وبسياق أتم في مناقب الأنصار ٣٩٠٥ .
(٣) إشارة لقول الله عز وجل ﴿ **وَإِذْ يَمكُرُ بِكَ الذينَ كفروا لِيُثْبِتوكَ أَو يَقْتُلوكَ أَو يُخرِجوكَ ويمكرونَ ويَمكُرُ اللهُ واللهُ خيرُ الماكِرين** ﴾ [سورة الأنفال الآية : ٣٠] .
(٤) يثبتوه : يحبسوه أو يجرحوه جراحة لا يقوم معها .
(٥) يخرجوه : أي من مكة .

* قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري ٢٧٨/٧ : ذكر أحمد من حديث ابن عباس بإسناد حسن : « **في قوله تعالى ﴿ وَإِذْ يَمكُرُ بِكَ الذينَ كفروا ... ﴾ الآية قال : تشاورت قريش ليلةً بمكة ، فقال بعضهم : إذا أصبح فأثبتوه بالوثاق – يريدون النبي ﷺ** – =

* أم يخاطرون بمهجهم وأموالهم وأهليهم في محاربته .

أفكان هذا كله تشاغلاً عن القرآن وقلة عناية بشأنه ؟!

ثم لماذا كل هذا وهو قد دلهم على أن الطريق الوحيد لإسكاته هو أن يجيئوه بكلام مثل الذي جاءهم به ؟ ألم يكن ذلك أقرب إليهم وأبقى عليهم لو كان أمره في يدهم ؟ ولكنهم طرقوا الأبواب كلها إلا هذا الباب ، وكان القتل والأسر والفقر والذل كل أولئك أهون عليهم من ركوب هذا الطريق الوعر الذي دلهم عليه . فأي شيء يكون العجز إن لم يكن هذا هو العجز ؟

لا ريب أن هذه الحملات كلها لم تكن موجهة إلى شخص النبي وأصحابه ؛ فقد كانوا من قبلُ تعطِفهم عليهم أرحامُهم ، وتحبِّبهم إليهم مكارم أخلاقهم . كما أنها لم تكن موجهة إلى القرآن في الصدور ولا في داخل البيوت ؛ فقد قبلوا منهم أن يعبدَ امرؤٌ ربَّه في بيته كيف يشاء . إنما كانت مصوَّبة إلى هدف واحد ، ومُقاوِمة لخطر واحد ، هو إعلان[1] هذا القرآن ونشره بين العرب .

ولا يَهْجِسَنَّ في روعك أنهم ما نقَموا من الإعلان بالقرآن إلا أنه دعوة جديدة إلى دين جديد فحسب . كلا ، فقد كان في العرب حُنفاءُ من فحول

= **وقال بعضهم : بل اقتلوه . وقال بعضهم : بل أخرجوه . فأَطْلَعَ الله نبيه ﷺ على ذلك . فبات عليٌّ على فراش النبي ﷺ تلك الليلة وخرج النبي ﷺ حتى لحق بالغار ..»** الحديث أهـ .

– **قلت** : رواه أحمد ١ / ٣٤٨ . وغالب المفسرين على أن هذه الآية نزلت في المدينة تذكيراً لرسول الله ﷺ بنعمة الله عليه إذ أنجاه من كيد المشركين .

(١) وفي ذلك يقول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم حينما كان يعرض نفسه على الناس في الموقف : « **ألا رجل يحملني إلى قومه ؟ فإن قريشاً منعوني أن أبلغ كلام ربي** » رواه أبو داود والترمذي ، فانظر قوله : منعوني أن « **أبلغ** » و لم يقل : منعوني أن « **أتلو** »[**دراز**] .

– **قلت** : الحديث رواه أبو داود في السنة ٤٧٣٤ ، والترمذي في فضائل القرآن ٢٩٢٥ ، وابن ماجه في المقدمة ٢٠١ ، وأحمد ٣ / ٣٢٢ ، ٣٣٩ ، ٣٩٠ . وصححه الألباني في الصحيحة ١٩٤٧ .

الخطباء والشعراء ؛ كقُسٍّ بن ساعدة ، وأُميَّة بن أبي الصَّلْت ، وغيرهما ، وكانت خطبهم وأشعارهم مشحونة بالدعوة إلى ما دعا إليه القرآن من دين الفطرة . فما بالُهم قد أهمَّهم من أمر محمد وقرآنه ما لم يَعنِهم من أمر غيره ؟ ما ذاك إلا أنهم وجدوا له شأناً آخر لا يشبه شأنَ الناس ، وأنهم أحسوا في قرآنه قوة غلابة وتياراً جارفاً ، يريد أن يبسط سلطانه حيث يصل صدى صوته ، وأنهم لم يجدوا سبيلاً لمقاومته من طريق المعارضة الكلامية التي هي هِجِّيراهم[1] ، والتي هي الطريق المباشر الذي تحداهم به . فلا جرم كان الطريق الوحيد عندهم لمقاومته هو الحيلولة بمختلف الوسائل بين هذا القرآن وبين الناس مهما كلفهم ذلك من تضحية . وكذلك فعلوا[2] . وكذلك مضت السنة فيمن بعدهم من أعداء القرآن إلى يومنا هذا .

وأما الثالث : فإنه لو كان عجزهم عن مضاهاة القرآن لِعارض أصابهم حال بينهم وبين شيء في مقدورهم ، لمَا استبان لهم ذلك العَجزُ إلا بعد أن يبسطوا ألسنتهم إليه ، ويجرِّبوا قدرتهم عليه ؛ لأنه ما كان لامريء أن يحسَّ بزوال قدرته عن شيء كان يقدر عليه كقدرته على القيام والقعود إلَّا بعد محاولة وتجربة . ونحن قد علمنا أنهم قعدوا عن هذه التجربة ، ولم يشرع منهم في هذه المحاولة إلا أقلُّهم عدداً وأسفههُم رأياً . فكان ذلك آية على يأسهم الطبيعي من أنفسهم ، وعلى شعورهم بأن عجزهم عنه عجز فطري عتيد ، كعجزهم عن إزالة الجبال ، وعن تناول النجوم من السماء ، وأنهم كانوا في غنى بهذا العلم الضروري عن طلب الدليل عليه بالمحاولات والتجارب .

على أنهم لو كانوا لم يعرفوا عجزهم عنه باديء ذي بدء وإنما أدركهم العجز بعد شعورهم بأنه في مستوى كلامهم ، لكان عجبهم إذاً من أنفسهم :

---

(١) هَجِّيراهم : دأبهم وشأنهم .

(٢) يراجع أثر صلح الحديبية واختلاط المسلمين بالمشركين وسماعهم للقرآن في هامش ص٣٣ .

كيف عَيُوا به وهو منهم على طَرَف الثُّمام[1] ؟ ولجعلوا يتساءلون فيما بينهم أي داء أصابنا فعقد ألسنتنا عن معارضة هذا الكلام الذي هو ككل كلام ؟ أو لرجعوا إلى بيانهم القديم قبل أن يصيبهم العجز فجاءوا بشيء منه في محاذاته . ولكنهم لم يجيئوا فيه بقديم ولا جديد ، وكان القرآنُ نفسهُ هو مَثَارَ عجبهم وإعجابهم ، حتى إنهم كانوا يَخرون سُجَّداً لسماعه من قبل أن تمضي مهلة يوازنون فيها بينه وبين كلامهم[2] ، بل إن منهم من كان يغلبه هذا الشعور فيفيض على لسانه اعترافاً صحيحاً : (ما هذا بقول بشر)[3] .

[الشبهة الرابعة : مَنْ يظن أن إعجاز القرآن ليس من الناحية اللغوية لأنه لم يخرج عن لغة العرب في مفرداته ولا قواعده]

٤ - فإن قال : قد تبينتُ الآن أن سكوت الناس عن معارضة القرآن كان عجزاً ، وأنهم وجدوا في طبيعة القرآن سراً من أسرار الإعجاز يسمو به عن قدرتهم . ولكنني لست أفهم أن ناحيته اللغوية يمكن أن تكون من مظان هذا السر ، لأني أقرأ القرآن فلا أجده يخرج عن معهود العرب في لغتهم العربية : فمن حروفهم رُكِّبَتْ كلماتُه . ومن كلماتهم أُلِّفَتْ جملهُ وآياته ، وعلى

---

(١) على طرف الثُّمام : ما لا يصعب تناوله ، والثمام هو نبت بالبادية لا يطول فيصعب تناوله .

(٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « **سجد النبي ﷺ بالنجم [أي في سورة النجم] وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس** » . رواه البخاري في التفسير ٤٨٦٢ .

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : « **أول سورة أنزلت فيها سجدة ﴿ وَالنَّجْمِ ﴾ ، قال فسجد رسول الله ﷺ وسجد مَنْ خلفه ، إلا رجلاً رأيته أخذ كفاً من تراب فسجد عليه ، فرأيته بعد ذلك قُتِلَ كافراً ، وهو أمية بن خلف** » .

متفق عليه : رواه البخاري في التفسير ٤٨٦٣ ، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة ١٠٥ .

(٣) سيأتي الحديث بتمامه في ص ١١٦ .

مناهجهم في التأليف جاء تأليفه . فأي جديد في مفردات القرآن لم تَعرفْه العرب من موادِّها وأبنيتها ؟ وأي جديد في تركيب القرآن لم تعرفه العرب من طرائقها ولم تأخذ به في مذاهبها ، حتى نقول إنه قد جاءهم بما فوق طاقتهم اللغوية ؟ .

قلنا له : أما أن القرآن الكريم لم يخرج في لغته عن سنن العرب في كلامهم إفراداً وتركيباً فذلك في جملته حق لا ريب فيه . وبذلك كان أدخل في الإعجاز ، وأوضح في قطع الأعذار ﴿ **وَلَو جَعَلْنَاهُ قُرآناً أَعجَمِيّاً لقالُوا لَولاَ فُصِّلَتْ آياتُه أَأَعجَمِيٌّ وَعَرِبِيّ ؟!** ﴾ [سورة فصلت الآية : ٤٤] .

وأما بعد فهل ذهب عنك أن مثل صنعة البيان كمثل صنعة البنيان : فالمهندسون البناءون لا يخلقون مادَّةَ بِناء لم تكن في الأرض ، ولا يخرجون في صنعتهم عن قواعدها العامة ، ولا يعدو ما يصنعونه أن يكون جدراناً مرفوعة ، وسقُفاً موضوعة ، وأبواباً مشرَّعة ولكنهم تتفاضل صناعاتهم وراء ذلك في اختيار أمتن المواد وأبقاها على الدهر ، وأكَنَّها للناس من الحرِّ والقُرِّ ، وفي تعميق الأساس وتطويل البنيان ، وتخفيف المحمول منها على حامله ، والانتفاع بالمساحة اليسيرة في المرافق الكثيرة ، وترتيب الحجُرات والأبهاء بحيث يتخللها الضوء والهواء . فمنهم من يفي بذلك كله أو جله ، ومنهم من يخل بشيء منه أو أشياء .. إلى فنون من الزينة والزخرف يتفاوت الذوق الهندسي فيها تفاوتاً بعيداً .

كذلك ترى أهل اللغة الواحدة يؤدون الغرض الواحد على طرائق شتى يتفاوت حظها في الحسن والقبول ، وما من كلمة من كلامهم ولا وضع من أوضاعهم بخارج عن مواد اللغة وقواعدها في الجملة . ولكنه حسن الاختيار في تلك المواد والأوضاع قد يعلو بالكلام حتى يسترعي سمعَك ، ويثلج صدرك ، ويملك قلبك . وسوء الاختيار في شيء من ذلك قد ينزل به حتى تمجُّه أذنُك ، وتَغثى[1] منه نفسُك ، وينفر منه طبعك .

---

(١) تغثى : تجيش ، كما يحدث قبيل القيء .

ذلك أن اللغة فيها العام والخاص ، والمطلق والمقيد ، والمجمل والمبين ، وفيها العبارة والإشارة والفحوى والإيماء ، وفيها الخبر والإنشاء ، وفيها الجمل الإسمية والفعلية ، وفيها النفي والإثبات ، وفيها الحقيقة والمجاز ، وفيها الإطناب والإيجاز ، وفيها الذكر والحذف ، وفيها الابتداء والعطف ، وفيها التعريف والتنكير ، وفيها التقديم والتأخير وهلم جرّاً .. ومن كل هذه المسالك ينفذ الناس إلى أغراضهم . غير ناكبين بوضعٍ منها عن أوضاع اللغة جملة ، بل هم في شعابها يتفرقون ، وعند حدودها يلتقون .

بيد أنه ليس شيء من هذه المسالك بالذي يجمل في كل موطن ، وليس شيء منها بالذي يقبح في كل موطن . إذاً لهان الأمر على طالبه ، ولأصبحت البلاغة في لسان الناس طعماً واحداً ، وفي سمعهم نَغْمة واحدة . كلا ، فإن الطريق الواحد قد يبلغك مأمنك حيناً ، ويقصِّر بك عن غايتك حيناً آخر ، وربَّ كلمة تراها في موضع ما كالخرزة الضائعة ، ثم تراها بعينها في موضع آخر كالدرة اللامعة . فالشأن إذاً في اختيار هذه الطرق أيها أحق بأن يُسلك في غرضٍ غرض ، وأيها أقرب توصيلاً إلى مقصدٍ مقصد :

* ففي الجدال أيها أقوم بالحجة . وأدحض للشبهة .
* وفي الوصف أيها أدق تمثيلاً للواقع .
* وفي موطن اللين أيها أخف على الأسماع وأرفق بالطباع .
* وفي موطن الشدة أيها أشد اطلاعاً على الأفئدة بتلك النار الموقدة .
* وعلى الجملة أيها أوفى بحاجات البيان وأبقى لطراوته على الزمان .

والأمر في هذا الاختيار عسيرٌ غير يسير ، لأن مجال الاختيار كثير الشُّعَب ، مختلف الألوان في صور المفردات والتراكيب . والناس ليسوا سواء في استعراض هذه الألوان ، فضلاً عن الموازنة بينها ، فضلاً عن حسن الاختيار فيها . فربَّ رجلين يهتدي أحدهما إلى ما غفَلَ عنه صاحبه ، ويغفُل كل منهما عما هُدِيَ

إليه الآخر . وربَّ وجه واحد يفوتك هاهنا يَعدِل وجهين تحصلهما هناك ، أو بالعكس .

وعن جملة الملاحظات التي يلاحظها القائل في قوله ، تتولد صورة خاصةٌ مَثَلُها في هذه المركبات المعنوية مَثَلُ (المِزَاج) في تلك المركبات العنصرية المادية . وهذا (المِزَاج) هو الذي نسمِّيه بالأسلوب أو الطريقة . وعلى حسبه يقع التفاوت في درجات الكلام ، وفي حظه من الحسن والقبول .

فالجديد في لغة القرآن أنه في كل شأن يتناوله من شئون القول يتخير له أشرف الموادِّ ، وأمسَّها رحماً بالمعنى المراد ، وأجمعها للشوارد ، وأقبلها للامتزاج ، ويضع كل مثقال ذرة في موضعها الذي هو أحق بها وهي أحق به : بحيث لا يجد المعنى في لفظه إلا مرآته الناصعة ، وصورته الكاملة ، ولا يجد اللفظ في معناه إلا وطنه الأمين ، وقراره المكين . لا يوماً أو بعض يوم ، بل على أن تذهب العصور وتجيء العصور ، فلا المكان يريد بساكنه بدلاً ، ولا الساكن يبغي عن منزله حِوَلاً .. وعلى الجملة يجيئك من هذا الأسلوب بما هو المثل الأعلى في صناعة البيان .

هذا مطلبٌ له دليله ، وإجمال له تفصيله . وليس من قصدنا أن نُعجِلك الآن بالبحث في أدلته وتفاصيله . وإنما أردنا أن نزيح عنك هذه الشبهة لتعلم أن ليس كلُّ كلام عربي ككلِّ كلام عربي ، وأن هذه الناحية اللغوية جديرةٌ بأن تتفاوت فيها القوى نازلةً إلى حدّ العجز ، أو صاعدةً إلى حدّ الإعجاز .

فإن أحببت أن تعرف للقرآن الكريم سبقَه وبلوغه الغاية في هذا المضمار وأنت بعدُ لم تُرزق قوةَ الفصل بين درجات الكلام فاعلم أنه لا سبيل لك إلى القضاء في هذا الشأن عن حسٍّ وخبرة . وإنما سبيلك أن تأخذ حكمه مسلّماً عن أهله وتقنع فيه بشهادة العارفين به وإذاً يكون من حقك علينا أن نقدم لك مثالاً من شهاداتهم . فخذ الآن هذا المثال :

« جاء الوليد بن المغيرة إلى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، فلما قرأ عليه القرآن كأنه رَقَّ له . فبلغ ذلك أبا جهل . فأتاه فقال له : يا عم . إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالاً ليعطوكه ، فإنك أتيت محمَّداً لتتعرض لما قِبَلَه . قال الوليد : لقد علمتْ قريشٌ أني من أكثرها مالاً . قال : فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك مُنكِرٌ له وكاره . قال : وماذا أقول ؟ فوالله ما فيكم رجلٌ أعلم مني بالشِّعر لا بِرَجَزِه[1] ولا بقصيدِه[2] ولا بأشعار الجنّ . والله ما يشبه الذي يقوله شيئاً من هذا ، ووالله إن لقوله لحلاوة وإن عليه لطُلاوَة[3] ، وإنه لمنيرٌ أعلاه ، مُشرِقٌ أسفَلُه ، وإنه ليعلو ولا يُعْلَى . وإنه ليحطِم ما تحته .. » الحديث[4] رواه الحاكم عن ابن عباس ، وقال صحيح على شرط البخاري[5] .

---

(١) الرَّجَز : ضربٌ من الشعر ، سُمِّيَ رجزاً لاضطرابه ، وزنه سهل في السمع وله وقع في النفس .

(٢) القصيد : جمع قصيدة ، وهي ما زاد على خمسة عشر بيتاً من الشعر .

(٣)الطُلاوَة : الحُسْن والبهجة والقبول .

(٤) للحديث بقية ، وهي : « أن أبا جهل ألحَّ على الوليد وقال له : لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه . فقال الوليد : دعني أفكر . فلما فكر قال : هذا سحر يأثره عن غيره » . وفي ذلك نزل قوله تعالى ﴿ ذَرْنِي ومَن خلقتُ وحيداً * وجعلتُ له مالاً ممدوداً * وبنينَ شُهُوداً * ومهدتُ له تمهيداً * ثم يطمعُ أن أزيد * كلَّا إنه كان لآياتِنا عنيداً * سأرهقُه صَعُوداً * إنه فكَّر وقدَّر * فقُتِلَ كيف قدَّر * ثم قُتِلَ كيف قدَّر * ثم نظر * ثم عَبَسَ وبَسَرَ * ثم أدبرَ واستكبر * فقال إنْ هَذَا إلا سحرٌ يُؤثر * إنْ هَذا إلا قولُ البشرِ ﴾ [سورة المدثر الآيات : ١١ - ٢٥] وما بعدها فانظر تصوير القرآن للجهد العنيف الذي بذله الرجل في إصدار حكمه الثاني حيث يقول : إنه فكر وقدر ، ثم نظر ، ثم عبس وبسر ، ثم أدبر واستكبر . ومعنى هذا كله أنه كان يقاوم فطرته ، ويستكره نفسه على مخالفة وجدانه ، وإنه كان في حيرة وضيق بما يقول ... وأخيراً استطاع أن يقول ما قال نزولاً على إرادة قومه . وانظر الفرق بين هذا الحكم المصطنع وبين حكم البديهة العربية في قوله أول مرة : إنه يعلو وما يعلى وإنه يحطم ما تحته . [دراز] .

(٥) رواه الحاكم ٢ / ٥٠٦ من حديث ابن عباس ، والواحدي في أسباب النزول ٤٤٦ ، وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٦ / ٤٥٤ للحاكم والبيهقي في الدلائل ، وقال عنه في أسباب =

نعم إن كنت لا تفرق بين كلام وكلام فهذه شهادةٌ حسبُك بها من شهادة . وناهيك أنها شهادة أهل اللغة أنفسهم ، بل شهادة الأعداء لعدوِّهم .

وإذا لم ترَ الهلال فسلِّم لأُناس رأوه بالأبصار

وأما إن كنت قد أوتيت حظك من معرفة فروق الكلام والمَيْزِ بين أساليبه فاقرأ ما شئت من خطب العرب وأشعارها ، وحِكَمها وأمثالها ورسائلها ومحاوراتها ، متتبعاً في ذلك عصور الجاهلية والإسلام على اختلاف طبقاتها ، ثم افتح صفحة من هذا الكتاب العزيز وانظر ماذا ترى ؟

أسلوبٌ عجبٌ ، ومنهجٌ من الحديث فَذٌّ مبتكرٌ ، كأن ما سواه من أوضاع الكلام منقول ، وكأنه بينها على حدِّ قول بعض الأدباء (وضعٌ مرتجل) ؛ لا ترى سابقاً جاء بمثاله ، ولا لاحقاً طَبَع على غراره . فلو أن آية منه جاءتك في جمهرة من أقوال البلغاء لدلَّت على مكانها . واستمازت من بينها ، كما يستميز اللحن الحسَّاس بين ضروب الألحان ، أو الفاكهة الجديدة بين ألوان الطعام .

[الشبهة الخامسة :
من يزعم أن عجز الناس عن مجاراة أسلوب القرآن ليس خصوصية للقرآن ، لأن أسلوب كل قائل صورة نفسه ومزاجه ، فلا يستطيع غيره أن يحل محله]

٥ – سيقول السائل إذا انتهى معنا إلى هذا الموضع : لقد أغلقتم عنا بهذا البيان باباً من الشك ، ولكنكم لم تلبثوا أن فتحتم علينا منه باباً جديداً . ألم تقولوا لنا إن هذه الصناعة البيانية ليست في الناس بدرجة واحدة ، وإن القوى تذهب فيه متفاوتة على مراتب شتى فما نرى إذاً علينا من حرج أن نعدَّ الإعجاز

= النزول ٢٠٩ : صحيح على شرط البخاري . وصححه مقبل بن هادي الوادعي في صحيح أسباب النزول ١٦٨ . ورواه الطبري في التفسير ٢٩ / ١٥٦ مرسلاً عن عكرمة .

الذي حدثتمونا عنه أمراً مشاعاً يجري في أساليب الناس كما يجري في القرآن . ألا ترون أن كل قائل أو كاتب إنما يضع في بيانه قطعة من عقله ووجدانه على الصورة التي تهديه إليها فطرته ومواهبه ؟ وأن اختلاف الناس في هذه الوسائل يتبعه البتة اختلاف طرائقهم في التعبير عن أغراضهم ؟ إنكم لتستطيعون أن تحصوا في اللغة العربية صوراً كلامية بعدَّة الناطقين بها ، بحيث لا تجدون كاتباً يكتب كما يكتب كاتبٌ آخر على السواء ، ولا قائلاً كذلك . بل أنتم لا محالة واجدون عند كل واحد منهاجاً خاصاً في الأداء : فليس البدوي كالحضري ، ولا الذكي كالغبي . وليس الطائش كالحليم ، ولا المريض كالسليم . وليس الأدنى في هذا الباب يستطيع الصعود إلى الأعلى ، ولا الأعلى يستطيع النزول إلى الأدنى . بل المتشابهان فطرةً ومزاجاً ، المتساويان تربيةً وتعليماً ، قد يشربان من كأس واحدة ثم لا يتناطقان بالكلام على صورة واحدة . فكيف تأمرون الناس أن يجيئوكم بمثل القرآن وهم لا يقدرون أن يجيء بعضهم بمثل كلام بعض ؟ وكيف تعدُّون عجزهم عنه آية على قدسيته ، وأنتم لا تعدُّون عجز كل امريء عن الإتيان بأسلوب غيره آيةً على أن ذلك الأسلوب صنع إلهي محض لا كسب فيه للذي جرى على لسانه ؟ أليس هذا القياس يسوِّغ لنا أن نفترض القرآن كلاماً بشريّاً كسائر كلام البشر ، غير أنه اختص أسلوبه بصاحبه كما اختص كل امريء بأسلوب نفسه ؟

وجوابنا لهذا القائل أن نقول له : لسنا نماريك في أن كلام المتكلم إنما هو صورة تمليها عليه فطرته ومواهبه ، ولا في أن هذه الفطرة والمواهب لتفاوتها عند أكثر الناس لابدَّ أن تترك أثرها من التفاوت في صور كلامهم ، ولا في أن تلك الفطر والمواهب إن تشابهت عند فريق من الناس فأمْلَتْ عليهم صوراً متشابهة من القول فإنها لا تخرجها في عامة الأمر صورةً واحدةً .

كل هذا نسلمه ولا ننكره . ولكنه لا يضرُّنا ولا يوهن شيئاً من حجتنا . ذلك أننا حين نتحدى الناس بالقرآن لا نطالبهم أن يجيئونا بنفس صورته الكلامية . كلا ، ذلك ما لا نطمع فيه ، ولا ندعو المعارضين إليه . وإنما نطلب

كلاماً أيّاً كان نمطُه ومنهاجُه ، على النحو الذي يحسنه المتكلم أيّاً كانت فطرتُه ومزاجه ، بحيث إذا قيس مع القرآن بمقياس الفضيلة البيانية حاذاه أو قاربه في ذلك المقياس وإن كان على غير صورته الخاصة . فالأمر الذي ندعوهم إل التماثل أو المقاربة فيه هو هذا القدر الذي فيه يتنافس البلغاء ، وفيه يتماثلون أو يتقاربون . وذلك غير المَعارِض والصور المعينة التي لابد من الاختلاف فيها بين متكلم ومتكلم .

فإن عسُر عليك أن تفهم كيف تجيء المماثلة مع هذا الاختلاف ضربنا لك مثلاً : قوماً يستبقون إلى غاية محدودة وقد اتخذوا لذلك مجالاً واسعاً لا يزاحم بعضهم فيه بعضاً ، ولا يضع أحدُهم قدمه على موضع قدم صاحبه، بل جعل كل منهم يذهب في طريقه الخاص به موازياً لِقِرْنه في المبدأ والوجهة . ثم يكون منهم المُجَلِّي[1] والمُصَلِّي[2] ، والمُقَفِّي[3] والتالي[4] ، ويكون منهم من لا حظَّ له في الرهان . ويكون منهم المتكافئون المتعادلون . وهكذا تراهم وهم مختلفو المنازل يقع بينهم التماثل كما يقع بينهم التفاضل ؛ بنسبة ما قطعه كل منهم من طريقه إلى الغاية المشتركة .

فكذلك المتنافسون في حَلبة البيان يعمِد كل منهم إلى الغرض من الطريق التي يرضاها ، وعلى الوجه الذي يستمليه من نفسه ، ثم يقع بينهم التماثل أو التفاضل على قدر ما يوفون من حاجات البيان أو ينقصون منها ، وإن اختلفت المذاهب التي انتحاها كل منهم .

هب إذاً المدعوِّين لمعارضة القرآن فيهم الأكفاء والأنداد لنبيِّ القرآن في الفطرة والسليقة العربية ، أو مَن هم أكمل منه فيها ، أو هبْهم جميعاً دونه في

---

(١) المُجَلِّي : السابق الأول ، في سباق الخيل . (انظر اللسان : مادة صلى ، وفقه اللغة ٢٠٢) .
(٢) المُصَلِّي : السابق الثاني .
(٣) المُقَفِّي : السابق الثالث .
(٤) التالي : السابق الرابع .

تلك المنزلة . فأما الأعلون فسيجيئون على وفق سليقتهم بقول أحسن من قوله . وأما الأنداد فسيجيئون بشيء مثله . وأما الآخرون فلن يكبُر عليهم أن يقاربوا ويجيئوا بشيء من مثله[1] وشيءٌ من هذه المراتب الثلاث[2] لو تمَّ لكان كافياً في رد الحجة وإبطال التحدي .

ستقول : بل أختارُ الواقع ، وهو أن العرب على اختلاف مراتبهم في البيان لم يرتفعوا إلى طبقة البلاغة المحمدية ، وأزعم أن هذا القصور الذاتي الذي قعد بهم عن مجاراته في عامة كلامه هو الذي قعد بهم عن معارضة قرآنه . وإذاً لا يكون هذا العجز حجة لكم على قدسية الأسلوب القرآني كما لم يكن حجة عندكم على قدسية الأسلوب النبوي .

فنجيب : أما أن محمداً صلى الله عليه وعلى آله وسلم كان هو أفصح العرب[3] ، وكان له في هذه الفضيلة البيانية المقامُ الأول بينهم غير مزاحم فذلك مالا نماري - بل لا نمتري - فيه نحن ولا أحد ممن يعرف العربية ، غير أننا نسأل ما مبلغ هذا التفاوت الذي كان بينهم وبينه ؟ أكان مما يتفق مثله في مجاري العادات بين بعض الناس وبعض في حدود القوة البشرية ، أم كان أمراً شاذاً خارقاً للعادة بالكلية ؟

---

(١) لا تنس ما قررناه في الفرق بين هذه الطبقة والتي قبلها ص ١٠٥ [**دراز**] .

(٢) غير أن المرتبة الأولى مسكوت عنها في القرآن الكريم استقصاراً لهممهم واكتفاءً بتعجيزهم عما بعدها [**دراز**] .

(٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه : « **أن رسول الله ﷺ قال : بُعِثتُ بجوامِع الكَلِم ونُصِرتُ بالرعب . وبينا أنا نائم رأيتني أُتيتُ بمفاتيح خزائن الأرض فوُضِعت في يدي** » .

رواه البخاري في التعبير ٧٠١٣ ، وفي الاعتصام بالكتاب والسنة ٧٢٧٣ .

وقال الزهري فيما نقله عنه البخاري ١٢ / ٤١٨ : بلغني أن جوامع الكلم أن الله يجمع الأمور الكثيرة التي كانت تكتب في الكتب قبله في الأمر الواحد والأمرين أو نحو ذلك أ هـ .

وقال الحافظ في الفتح ١٣ / ٢٦١ : وتقدم تفسير جوامع الكلم ... وفيه تفسيرها =

فأما إن كان كما نعهد شبيهاً بما يكون في العادة بين البليغ والأبلغ ، وبين الحسن والأحسن ، فلا شك أن هذا النحو من العلوِّ إن حال بينهم وبين المجيء بمثل كلامه كله لم يكن ليحول بينهم وبين قطعة واحدة منه ، ولئن أعجزهم هذا القدر اليسير أن يحتذوه على التمام لم يكن ليعجزهم أن ينزلوا منه بمكان قريب . ألا وإننا قد أرخينا لهم العِنان في معارضة القرآن بهذا أو ذاك ، وأغمضنا لهم فيما يجيئوننا أن يكون كلاً أو بعضاً ، وكثيراً أو يسيراً ، ومماثلاً أو قريباً من المماثل ، فكان عجزهم عن ذلك كله سواء .

وأما إن قيل إنَّ التفاوت بينه وعليه السلام وبين سائر البلغاء كان إلى حد انقطاع صلتهم به جملة ، لاختصاصه من بين العرب ومن بين الناس بفطرة شاذة لا تنتسب إلى سائر الفطر في قليل ولا كثير إلا كما تنتسب القدرة إلى العجز ، أو الإمكان إلى الاستحالة فلا شك أن القول بذلك هو أخو القول بأن من الإنسان ما ليس بإنسان ، أو هو التسليم بأن ما يجيء به هذا الإنسان لا يكون من عمل الإنسان . ذلك أن الطبيعة الإنسانية العامة واحدة . والطبائع الشخصية

= عن الزهري وحاصله : أنه ﷺ كان يتكلم بالقول الموجز القليل اللفظ الكثير المعاني . وجزم غير الزهري بأن المراد بجوامع الكلم : القرآن؛ بقرينة قوله « **بعثت** » ، والقرآن هو الغاية في إيجاز اللفظ واتساع المعاني ... ومن أمثله جوامع الكلم من الأحاديث النبوية :

* حديث عائشة « **كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد** » .
* وحديث « **كل شرط ليس في كتاب الله فهو باطل** » . متفق عليهما .
* وحديث أبي هريرة « **إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم** » .
* وحديث المقدام « **ما ملأ ابن آدم وعاءً شراً من بطنه** » . أخرجه الأربعة وصححه ابن حبان والحاكم أهـ .

وقال صاحب لسان العرب ١ / ٦٧٩ : وفي صفته ﷺ : أنه كان يتكلم بجوامع الكلم ، أي أنه كان كثير المعاني قليل الألفاظ . وفي الحديث : كان يستحب الجوامع من الدعاء ؛ هي التي تجمع الأغراض الصالحة والمقاصد الصحيحة ، أو تجمع الثناء على الله تعالى وآداب المسألة أ هـ .

تقع فيها الأشباه والأمثال في الشيء بعد الشيء وفي الواحد بعد الواحد ؛ إن لم يكن ذلك في كل عصر ففي عصور متطاولة ، وإن لم يكن في كل فنون الكلام ففي بعض فنونه . وكائنْ رأينا من أناس كثيرة تتشابه قلوبهم وعقولهم وألسنتهم فتتوافق خواطرهم وعباراتهم حيناً ، وتتقارب أحياناً ، حتى لقد يخيل إليك أن الروح الساري في القولين روح واحد ، وأن النَفس ها هنا هو النفس هناك . وكذلك رأينا من الأدباء المتأخرين من يكتب بأسلوب ابن المقفّع وعبد الحميد ، ومن يكتب بأسلوب الهمذاني والخوارزمي ، وهلم جرّاً .

فلو كان أسلوب القرآن من عمل صاحبه الإنسان لكان خليقاً أن يجيء بشيء من مثله من كان أشبه بهذا الإنسان مزاجاً ؛ وأقرب إليه هدياً وسمتاً ، وألصق به رحماً ، وأكثر عنه أخذاً وتعلماً . أو لكان جديراً بأصحابه الذين نزل القرآن بين أظهرهم فقرأوه واستظهروه ؛ وتذوقوا معناه وتمثلوه ؛ وترسموا خطواته واغترفوا من مناهله أن يدنوا أسلوبهم شيئاً من أسلوبه على ما تقضي به غريزة التأسي ، وشيمةُ نقلِ الطباع من الطباع . ولكن شيئاً من ذلك كله لم يكن ؛ وإنما كان قُصارى فضل البليغ فيهم كما هو جهد البليغ فينا : أن يظفر بشيء يقتبسه منه في تضاعيف مقالته ليزيدها به علوّاً ونباهة شأن[1].

بل نقول لو كان الأسلوب القرآني صورة لتلك الفطرة المحمدية لوجب على قياس ما أصَّلته من المقدِّمات أن ينطبع من هذه الصورة على سائر الكلام المحمَّديِّ ما انطبع منها على أسلوب القرآن ، لأن الفطرة الواحدة لا تكون

---

(١) بل ومنهم من كان من فحول الشعراء مثل لبيد ، أحد أصحاب المُعلَّقات في الجاهلية ، لما سمع القرآن أسلم واستبدل شعره بالقرآن ، وكان من أخباره أن عمر بن الخطاب كتب إلي عامِلِه بالكوفة : سَلْ لبيداً والأغلب [شاعر آخر] ما أحدثا من الشعر في الإسلام ؟ فقال لبيد : قد أبدلني الله بالشعر سورة البقرة وآل عمران . فزاد عمر في عطائِه [العطاء : هو حق وفريضة كانت تفرض للمسلمين في بيت المال حسب مراتبهم] فبلغ به ألفين . (طبقات فحول الشعر ١٣٥ ، الإصابة ٦ / ٤) .

فطرتين ، والنَّفس الواحدة لا تكون نفسين[1] ونحن نرى الأسلوب القرآنيَّ

---

(١) هنا موضع سؤال فكأننا بقائل يقول لنا : إنه ليس بدعاً من الأمر أن يكون للرجل البليغ ضربان من الكلام : أحدهما يجيئه على البديهة فيرسله إرسالاً غير معني بتهذيبه وتحبيره ، والآخر يتأنى له بالروية ويحتفل به احتفالاً يجعل بينه وبين الضرب الأول بعداً شاسعاً يخيل للسامع أنه قول شخص آخر مع صدور القولين عن قائل واحد . فهلا طبقتم هذا المثل على الكلام المحمدي فجعلتم حديثه من الضرب الأول وقرآنه من الضرب الثاني ؟

والجواب : أن توزيع هذين الضربين على الحديث والقرآن توزيع لا يتفق والواقع في شيء ، فقد كان أكثر الوحي القرآني يجيء إلى النبي ﷺ في شأن لم يسبق له عهد به ، ولم يتقدم منه تفكير فيه ، بل كان يفاجئه من فوره على غير توقع وانتظار ، جواباً لسؤال سائل ، أو فتياً في حادثة نزلت ، أو قصصاً عن أمة مضت ، أو ما إلى ذلك . وقليلاً ما كان يجيئه بعد تشوف وتلبث تمكن فيه الروية ، كما في مسألة الإفك ومسألة تحويل القبلة . وقد رأينا أسلوبه في كلتا الحالين فإذا نسقه هو نسقه ونظامه هو نظامه . وكذلك نقول إن كلامه النبوي كانت تختلف عليه هذه الظروف ويتحد فيها أسلوبه . فقد كان يتكلم أحياناً بعد تفكير طويل وروية وتشاور مع أصحابه كما رأينا من حديثه في مسألة الإفك (ص ٢٣) وكما نرى من حديثه بعد التشاور في شئون الحرب والصلح ونحوها . وأحياناً بعد تلبثٍ يسيرٍ انتظاراً للوحي كما في قصة « **الرجل الذي جاء في الجعرانة سنة ثمان ، فسأل عن العمرة وهو متضمخ بالطيب وعليه جبة . فنظر إليه النبي ساعة ثم سكت حتى جاءه الوحي ، فلما سرى عنه قال : أين السائل عن العمرة ؟ فجيء به ، فقال ﷺ : أما الطيب الذي بك فاغسله ثلاث مرات ، وأما الجبة فانزعها ، واصنع في عمرتك ما تصنع في حجك** » رواه الشيخان . وأخرى كان يتكلم على البديهة فيما لا يشكل عليه أمره مما سبقت به قضية العقل أو الدين . وهو في كل ذلك يجري كما ترى على نمط واحد ، لا تستطيع أن تميز في أسلوبه بين ما كان معناه مدبراً بالرأي ، وما كان معناه معلماً بالوحي . ولا بين ما يرسله إرسالاً في حديثه مع أهل وأصحابه ، وما يحتفل به احتفالاً في الجموع المحشودة والأيام المشهودة . فتبين بطلان ما اعتمده السائل من تفرقة بين القرآن والحديث على هذا النحو . بل إننا لو ذهبنا إلى أبعد من ذلك وافترضنا جدلاً صحة هذا التقسيم لما صلح أساساً يقوم عليه بنيان الشبهة ، لأن انقسام الكلام إلى المرسل على البديهة والمزور بالروية ما كان يتفاوت به منهج الكلام عند العرب الخلص هذا التفاوت البعيد الذي يظن فيه أنه قول قائلَيْن . وإنما ظهر هذا التفاوت منذ انقرض أهل السليقة العربية ، ونبتت نابتة المولدين الذين أخذوا هذه اللغة عن غير أمهاتهم ، فكانت لغتهم التي بها يتكلمون غير اللغة التي =

= بها يكتبون ، وهكذا أمكن أن يكون لكل منهم أسلوبان متباينان : ينزل بأحدهما إلى العامية الطبيعية ، ويصعد بالآخر إلى العربية المكسوبة . أما العربي القح فإنه في عامة أمره ما كان يزيده التفكير والتقدير والروية إلا استيعاباً لأطراف الحديث واستكمالاً لمقاصده ، ولم يكن ذلك ليخرجه عن أسلوبه وطريقته ولغته الخاصة التي يألفها طبعه وتفيض بها سجيته ، وهي اللغة التي يحتذيها أهل الفن منا بعد محاولة ومعالجة . ولئن كان فيهم قليل ممن يريد القول على غير سجيته ويتعمل له ما ليس من عادته في كلامه ، لقد كان هذا التكلف غير مخرج له عن حدود مذهبه جملةً . بل كان يترك في غضون حديثه ما ينم على روحه ومشربه . على أن الكلام بعد تلك المعاناة لم يكن ليزداد فصاحة وحسناً ؛ بل كان ينزل في هذا الباب بقدر ما يحسب الحاسب أنه يصعد فيه . ومن هنا كانت العرب تتمادح بالأمر يجيء طبعاً لا تكلفاً . ولم يكن النبي ﷺ في شيءٍ ما من المتكلفين ، بل كان أشد الناس كراهية للتكلف في الكلام وغيره . وكان يقول : « **هلك المتنطعون** » رواه مسلم وأبو داود . والتنطع في الكلام : التعمق فيه والتفاصح . وانظر ذَمّه للرجل الهذلي حين خاصم في دية الجنين فقال : « **يا رسول الله . كيف أغرم دية من لا شرب ولا أكل ، ولا نطق ولا استهل ؟ فمثل ذلك يُطَلُّ – أي يهدر دمه – فقال رسول الله ﷺ : إنما هذا من إخوان الكهان** » من أجل سجعه الذي سجع . رواه الشيخان وغيرهما . وفي رواية : « **أسجع كسجع الأعراب ؟** » وفي أخرى : « **أسجع الجاهلية وكهانتها ؟** » فذم هذا النوع من السجع وهو ما كان كسجع الكهان مصنوعاً غير مطبوع . وكان المعنى فيه تابعاً للفظ وليس اللفظ تابعاً للمعنى [**دراز**] .

– **قلت** : * حديث الرجل الذي جاء النبي ﷺ بالجعرانة : سبق تخريجه في ص ٨٨ برقم هامش ٢ .

* حديث « **هلك المتنطعون** » : رواه مسلم في العلم ٧ ، وأبو داود في السنة ٤٦٠٨ ، وأحمد ١ / ٣٨٦ كلهم عن عبد الله بن مسعود .

* حديث السجع متفق عليه من حديث أبي هريرة : رواه البخاري في الطب ٥٧٥٨ ، ومسلم في القسامة ٣٦ ، ولفظه عندهما « ... **إخوان الكهان** » ، وعند مسلم في القسامة ٣٧ ، ٣٨ من حديث المغيرة بن شعبة ولفظه هناك : « ... **أسجعٌ كسجع الأعراب ؟** » ، وعند أبي داود في السنة ٧٥٧٤ من حديث ابن عباس ولفظه : « **أسجعُ الجاهلية وكهانتها ؟** » وهو عند النسائي كذلك من حديث ابن عباس ٨ / ٥١ ، ٥٢ ولفظه : « **أسجعٌ كسجع الجاهلية وكهانتها ؟** » .

فنراه ضرباً وحده ، ونرى الأسلوب النبويَّ فنراه ضرباً وحده لا يجري مع القرآن في ميدان إلا كما تجري محلِّقاتُ الطير في جو السماء لا تستطيع إليها صعوداً . ثم نرى أساليب الناس فنراها على اختلافها ضرباً واحداً لا تعلو عن سطح الأرض فمنها ما يحبو حبواً ، ومنها ما يشتد عدواً . ونسبة أقواها إلى القرآن كنسبة هذه (السيارات[1] الأرضية) إلى تلك (السيارات السماوية[2]!) .

نعم لقد تقرأ القطعة من الكلام النبوي فتطمع في اقتناصها ومجاراتها كما تطمع في اقتناص الطائر أو مجاراته ؛ ولقد تقرأ الكلمة من الحكمة فيشتبه عليك أمرها : أمِن كلمات النبوة هي أم من كلمات الصحابة أو التابعين ؟ ذلك على ما علمت من امتياز الأسلوب النبوي بمزيد الفصاحة ونقاء الديباجة وإحكام السَّرد . ولكنه امتيازٌ قد يدقُّ على غير المنتهين في هذا الفن . وقد يقصر الذوق وحده عن إدراكه ، فيلجأ إلى النقل يستعينه في تمييز بعض الحديث المرفوع من الحديث الموقوف أو المقطوع[3] .

أما الأسلوب القرآني فإنه يحمل طابعاً لا يلتبس معه بغيره ، ولا يجعل طامعاً يطمع أن يحوم حول حماه ؛ بل يدع الأعناق تشرئبُّ إليه ثم يردُّها ناكسة الأذقان على الصدور .

كلُّ من يَرى بعينين أو يسمع بأذنين إذا وضع القرآن بإزاء غير القرآن في كفتي ميزان ، ثم نظر بإحدى عينيه أو استمع بإحدى أذنيه إلى أسلوب القرآن ، وبالأخرى إلى أسلوب الحديث النبوي وأساليب سائر الناس ، وكان

---

(١) السيارات : القوافل والجماعات لغةً ، ويمكن أن يقصد بها هنا أيضاً المركبات المعروفة الآن .

(٢) السيارات السماوية : النجوم والكواكب المتحركة في السماء .

(٣) ألقاب اصطلح عليها علماء الرواية : يعنون من المرفوع ما نسب إلى النبي ، والموقوف ما نسب إلى الصحابة ، والمقطوع ما نسب إلى التابعين [دراز] .

قد رزق حظّاً ما من الحاسَّة البيانية والذوق اللغوي ، فإنه لا محالة سيؤمن معنا بهذه الحقيقة الجليَّة ، وهي أن أسلوب القرآن لا يدانيه شيء من هذه الأساليب كلها . ونحسب أنه بعد الإيمان بهذه الحقيقة لن يسعه إلَّا الإيمان بتاليتها .. استدلالاً بصنعةٍ (ليس كمثلها شيء) على صانع ﴿ **ليسَ كمِثلِهِ شيءٌ وهوَ السميعُ البصيرُ** ﴾ [سورة الشورى الآية : ١١] .

[الشبهة السادسة : مَنْ سَلَّمَ بإعجاز القرآن ولكنه لا يدري ما أسراره وأسبابه]

٦ - فإنْ كان السائل من طلاب الحق كما وصفْنا ، وانتهى من بحثه إلى حيث أشرنا ، فأبصر وسمع ، وقايسَ ووازن ، وذاق ووجَد فسوف يتقدم إلينا بكلمته الأخيرة قائلاً :- نعم لقد نثلتُ كنانة الكلام بين يديَّ وعجمتُ سهامها فما وجدتُ كالقرآنِ أصلبَ عوداً ، ولقد وردت مناهل القول وتذوَّقتُ طعومَها فما وجدتُ كالقرآن أعذب مورداً . والآن آمنتُ أنه كما وصفتموه نسيج وحده ، وأنه يعلو وما يُعْلَى ، وأنه يحطم ما تحته . غير أنني وقد أدركت من قوة الأسلوب القرآني وحلاوته ما أدركت - لم يزل الذي أحسُّ به من ذلك معنًى يتجمجم[1] في الصدر لا أحسنُ تفسيره ولا أملك تعليله . ومازالت النفس بعد هذا وذاك نزَّاعةً إلى درس تلك الخصائص والمزايا التي استأثر القرآن بها عن سائر الكلام ، وكان فيها سر إعجازه اللغوي . فهل من سبيل إلى عرض شيء من ذلك علينا لتطمئن به قلوبنا ، ونزداد إيماناً إلى إيماننا ؟

نقول : أما الآن فقد والله طلبت منا جسيماً ، وكلَّفتَنا مراماً بعيداً، لمثله انتدَبَ العلماءُ والأدباءُ من قبلنا وفي عصرنا ، فحَفِيتْ[2] من دونه أقلامُهم ، ولم يزيدوا إلا أن ضربوا له الأمثال ، واعترفوا بأن ما خفي عليهم منه أكثر

---

(١) يتجمجم : يتردد في الصدر ، والجمجمة هي عدم بيان الكلام .
(٢) حَفِيَتْ : رَقَّت ، أي من كثرة الكتابة .

مما فَطِنوا له ، وأن الذي وصفوه مما أدركوه أقل مما ضاقت به عباراتهم ، ولم تقف به إشاراتهم .

ونحن وقد أفضتْ إلينا النوبةُ من بعدهم ، هل تحسب أننا سنسلك سبيلاً غير سبيلهم فنزعم أننا في هذه العُجالة سنُبرِز لك سرَّ الإعجاز جملة ؟ كلا ، ولا استقراء ما كشفه الناس من جوانبه ، كلا ، ولا استقصاء ما نحسُّه نحن من تلك الجوانب . وإنما نريد أن نصوِّر لك بعض تلك الخصائص التي تُلاقينا من كتاب الله كلما سمعناه أو تلوناه وتدبرناه . لعلك واجدٌ في القليل منها ما لا تجده في الكثير مما يعدُّه الناس . فإن زادك الناس من ذلك أنواعاً ، رجونا أن نزيدك من النوع الواحد إقناعاً وانتفاعاً .

* * *

[نظرتان في القشرة السطحية للفظ القرآن :]

[١ - الجمال التوقيعي في توزيع الحركات والسكنات ، والمدّات والغُنَّات ، والاتصالات والسكتات]

أوَّل ما يفجؤك :

أول ما يلاقيك ويستدعي انتباهك من أسلوب القرآن الكريم خاصيةُ تأليفه الصوتي في شكله وجوهره .

دع القاريء المجوِّد يقرأ القرآن يرتِّله حق ترتيله نازلاً بنَفَسِه على هوى القرآن ، وليس نازلاً بالقرآن على هوى نفسه . ثم انتبذْ منه مكاناً قصيّاً لا تسمعُ فيه جرْس حروفه ، ولكن تسمع حركاتها وسكناتها ، ومدَّاتها[1] وغنَّاتها[2] ،

(١) جمع مَدَّة : وهي إطالة الصوت بحرف المد ، وحروف المد هي : الألف ، والواو المضموم ما قبلها ، والياء المكسور ما قبلها .

(٢) جمع غُنَّة : وهي جريان الكلام في اللهاة وخروجه بصوت رقيق من الخيشوم .

واتصالاتها وسكتاتها ، ثم ألق سمعك إلى هذه المجموعة الصوتية وقد جرِّدَتْ تجريداً وأُرسِلَت ساذجة في الهواء . فستجد نفسك منها بإزاء لحن غريب عجيب لا تجده في كلام آخر لو جرِّد هذا التجريد ، وجوِّد هذا التجويد .

ستجد اتساقاً وائتلافاً يسترعي من سمعك ما تسترعيه الموسيقى والشعر . على أنه ليس بأنغام الموسيقى ولا بأوزان الشعر . وستجد شيئاً آخر لا تجده في الموسيقى ولا في الشعر . ذلك أنك تسمع القصيدة من الشعر فإذا هي تتحد الأوزان فيها بيتاً بيتاً ، وشطراً شطراً ، وتسمع القطعة من الموسيقى[1] فإذا هي تتشابه أهواؤها وتذهب مذهباً متقارباً . فلا يلبث سمعك إن يمُجَّها ، وطبعك أن يملَّها ، إذا أعيدت وكررت عليك بتوقيع واحد . بينما أنت من القرآن

---

(١) هذه الإشارة إلى الموسيقى لعل المؤلف رحمه الله ذكرها تقريباً للأمر ، وتوضيحاً للمقصود من الجرس والتناغم الصوتي المتجدد في القرآن ، أما الموسيقى فحكمها الشرعي معروف تماماً عند أهل العلم بل وطلبته بل وكثير من العوام كذلك . وانظر حكم الإسلام فيها :

* قال عبد الرحمن بن غنم الأشعري : حدثني أبو عامر أو أبو مالك الأشعري – والله ما كذبني – : سمع النبي ﷺ يقول : « **ليكوننّ من أمتي أقوام يستحلّون الحِر [الفَرْج ، والمقصود : الزنا] والحرير والخمر والمعازف** » رواه البخاري تعليقاً في الأشربة ٥٥٩٠ .
* وشرح الحافظ ابن حجر في فتح الباري ١٠ / ٥٧ المعاوف بأنها : جمع معزفة ، وهي آلات الملاهي ، وفي صحاح الجوهري أنها آلات اللهو ، وقيل أصوات الملاهي أهـ .
* وقال الإمام ابن القيم في إغاثة اللهفان ١ / ٢٦٠ وما بعدها :

ووجه الدلالة منه : أن المعازف هي آلات اللهو كلها ، لا خلاف بين أهل اللغة في ذلك . ولو كانت حلالاً لما ذَمَّهم على استحلالها ، ولَمَا قَرَن استحلالها باستحلال الخمر والحرير والفروج الحرام أهـ [باختصار وتصرف يسير] .

– **قلت** : وهذا الحديث هو أقوى الأحاديث الواردة في إثبات حكم التحريم الواضح للمعازف وآلات الموسيقى ؛ إذ أن رسول الله ﷺ عندما يقول « **يستحلّون** » فهذا حكم واضح في أن هذا محرمٌ تماماً . ثم دلالة اقتران المعازف مع الخمر مع الحرير مع الزنا تبين الحكم تماماً لمن لا يكابر ولا يتكبر .

والذي ينظر إلى الأحاديث الأخرى الواردة مثل حديث عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ قال : « **في هذه الأمة خسفٌ ومسخٌ وقذفٌ . فقال رجل من المسلمين : يا رسول الله** =

= **ومتى ذاك ؟ قال : إذا ظهر القينات [المغنيات] والمعازف وشُرِبَت الخمور »** .

رواه الترمذي في الفتن ٢٢١٢ ، وصححه الألباني لطرقه في الصحيحة ٢٢٠٣ ، وحسنه عبد القادر الأرناءوط في جامع الأصول ٧٩٣٣ .

* وقد وصف الله عزّ وجلّ ورسوله ﷺ والصحابة والتابعون والأئمة هذا الغناء بعدة أوصاف كلها قبيحٌ منفرٌ لأهل الإيمان :

– اللهو ولهو الحديث : ﴿ **ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً . أولئك لهم عذاب مهين** ﴾ قال ابن عباس وابن مسعود ومجاهد وعكرمة : هو الغناء .

– الزور ، اللغو : ﴿ **والذين لا يشهدون الزور ، وإذا مروا باللغو مروا كراماً** ﴾ .

– الباطل : فتوى ابن عباس والقاسم بن محمد .

– المُكاء والتَصْدِية : ﴿ **وما كان صلاتهم عند البيت إلا مُكَاءً وتَصْدِيَة** ﴾ قال ابن عباس وابن عمر وعطية ومجاهد والضحاك والحسن وقتادة : (المكاء : الصفير ، والتصدية : التصفيق) .

– رُقية الزنا [أي داعية الزنا] : كما قال يزيد بن الوليد وغيره .

– مُنْبِت النفاق : كما قال ابن مسعود (الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء الزرع) .

وقال ابن القيم : القرآن والغناء لا يجتمعان في القلب أبداً لما بينهما من التضاد ، فإن القرآن ينهى عن اتباع الهوى ، ويأمر بالعفة ومجانبة شهوات النفوس وأسباب الغي ، وينهى عن اتباع خطوات الشيطان ، والغناء يأمر بضد ذلك كله ، ويحسنه ويهيج النفوس إلى شهوات الغيّ فيثير كامنها ويزعج قاطنها ويحركها إلى كل قبيح ... وأيضاً ، فمن علامات النفاق : قلة ذكر الله ، والكسل عند القيام إلى الصلاة ، ونَقْر الصلاة ، وقلّ أن تجد مفتوناً بالغناء إلا وهذا وصفه .

– قرآن الشيطان : روي عن أبي أمامة وقتادة .

– الصوت الأحمق والصوت الفاجر : وهي تسمية رسول الله ﷺ في حديث الترمذي **« إنما نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين : صوت عند نغمة : لهو ولعبٍ ومزامير شيطان ، وصوت عند مصيبة : خمش وجوهٍ ، وشقّ جيوبٍ ، ورنةٍ »** رواه الترمذي في الجنائز ١٠٠٥ بنحوه ، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي ٨٠٤ .

– صوت الشيطان : في قول الله تعالى للشيطان : ﴿ **اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاءاً موفوراً * واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك** =

= ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً ﴾ .
قال ابن عباس : ﴿ بصوتك ﴾ : كل داعٍ إلى معصية .
وقال ابن القيم : ومن المعلوم أن الغناء من أعظم الدواعي إلى المعصية .
وعن مجاهد قال : وصوته الغناء والباطل والمزامير .
– مزمور الشيطان : من حديث أبي بكر في الصحيحين عندما دخل على رسول الله ﷺ وعند السيدة عائشة جاريتان تغنيان بغناء بُعاث [أي الأشعار التي قيلت في حرب بُعاث بين الأوس والخزرج في الجاهلية] فقال أبو بكر : مزمار الشيطان عند النبي ﷺ ...
– السُمُود : في قوله تعالى ﴿ أفمن هذا الحديث تعجبون * وتضحكون ولا تبكون * وأنتم سامدون ﴾ قال ابن عباس: (السمود : الغناء في لغة حِمْيَر) ، وعن أبي عبيدة وعكرمة بنحوه .
* وأقوال الأئمة الأربعة ونظرائهم في الغناء والمعازف متواترة معروفة :
أ – **المذهب الحنفي** : وهو من أشد المذاهب فيها فكان أبو حنيفة يكره الغناء ويجعله من الذنوب ، وكذلك مذهب أهل الكوفة مثل : سفيان وحماد وإبراهيم والشعبي وغيرهم لا اختلاف بينهم في ذلك ، وكذلك أهل البصرة لا خلاف بينهم في المنع منه . وقد صرح أصحاب أبي حنيفة بتحريم سماع الملاهي كلها ... وصرحوا بأنه معصية ، يوجب الفسق ، وتُرَدُّ به الشهادة .
ب – **المذهب المالكي** : نهى الإمام مالك عن الغناء وعن استماعه حتى إنه أفتى : (إذا اشترى – أي الرجل – جاريةً فوجدها مغنية كان له أن يردها بالعيب) . وعندما سئل عن الغناء قال : (إنما يفعله عندنا الفساق) .
جـ – **المذهب الشافعي** : قال الشافعي في كتابه أدب القضاء : (إن الغناء لهو مكروه ، يشبه الباطل والمحال ، ومن استكثر منه فهو سفيه ترد شهادته) .
وصرح أصحابه العارفون بمذهبه بتحريمه ، مثل أبي إسحاق في التنبيه : (ولا تصح – أي الإجارة – على منفعة محرمة ، كالغناء والزمر وحمل الخمر) ولم يذكر فيه خلافاً . وكذلك النووي في الروضة : (القسم الثاني : أن يغني ببعض آلات الغناء ، بما هو من شعار شاربي الخمر وهو مطرب كالطنبور والعود والصَّنْج وسائر المعازف والأوتار : يحرم استعماله واستماعه) .
د – **المذهب الحنبلي** : قال الإمام أحمد : (الغناء ينبت النفاق في القلب ، لا يعجبني) ، ونصّ على كسر آلات اللهو كالطنبور وغيره إذا رآها مكشوفة وأمكنه كسرها .

أبداً في لحن متنوّع متجدد ، تنتقل فيه بين أسباب وأوتاد وفواصل[1] ، على أوضاع مختلفة يأخذ منها كل وتر من أوتار قلبك بنصيب سواء . فلا يعروك منه على كثرة ترداده ملالة ولا سأم . بل لا تفتأ تطلب منه المزيد .

هذا الجمال التوقيقعي في لغة القرآن لا يخفى على أحد ممن يسمع القرآن ، حتى الذين لا يعرفون لغة العرب . فكيف يخفى على العرب أنفسهم ؟

وترى الناس قد يتساءلون : ***لماذا كانت العرب إذا اختصمت في القرآن قارنت بينه وبين شِعرٍ نفياً وإثباتاً ، ولم تعرِض لسائر كلامها من الخطابة وغيرها ؟***

وأنت فهل تبينتَ هاهنا الجواب . وهديتَ إلى السر الذي فطنت له العرب ، ولم يفطن له المستعربون ؟

إن أوّل شيء أحسَّته تلك الأُذن العربية في نظم القرآن هو ذلك النظام الصوتي البديع الذي قُسّمت فيه الحركة والسكون تقسيماً منوَّعاً يجدد نشاط السامع لسماعه ، ووزعت في تضاعيفه حروف المدّ والغُنَّة توزيعاً بالقسط يساعد على ترجيع الصوت به وتهادي النَفس فيه آناً بعد آن ، إلى أن يصل إلى الفاصلة الأخرى فيجد عندها راحته العظمى . وهذا النحو من التنظيم الصوتي إذا كانت العرب قد عمَدت إلى شيء منه في أشعارها فذهبت فيها إلى حدّ الإسراف في الاستهواء ثم إلى حدّ الإملال في التكرير . فإنها ما كانت تعهده قط ولا كان يتهيأ لها بتلك السهولة في منثور كلامها سواء منه المرسل

---

(١) هل أنت بحاجة إلى معرفة مسميات هذه الألقاب ؟ الحرف المتحرك يتلوه حرف ساكن يقال لهما (سبب خفيف) . والحرفان المتحركان يتلوهما ساكن (وتد مجموع) والحرفان المتحركان لا يتلوهما ساكن (سبب ثقيل) والحرفان المتحركان يتوسطهما ساكن (وتد مفروق) وثلاثة أحرف متحركة يعقبها ساكن (فاصلة صغيرة) وأربعة أحرف متحركة يعقبها ساكن (فاصلة كبيرة) [دراز] .

والمسجوع ؛ بل كان يقع لها في أجود نثرها عيوبٌ تغض من سلاسة تركيبه ولا يمكن معها إجادة ترتيله إلَّا بإدخال شيء عليه أو حذف شيء منه .

لا عجب إذاً أن يكون أدنى الألقاب إلى القرآن في خيال العرب أنه شعر ؛ لأنها وجدت في توقيعه هزة لا تجد شيئاً منها إلَّا في الشعر . ولا عجب أن نرجع إلى أنفسها ، فتقول : ما هو بشعر ؛ لأنه - كما قال الوليد[1] - ليس على أعاريض[2] الشعر في رَجَزه ولا في قَصيدِه . ثم لا عجب أن تجعل مَردَّ هذه الحيرة أخيراً إلى أنه ضرب من السِّحر ؛ لأنه جمع بين طرفي الإطلاق والتقييد في حدٍّ وسط : فكان له من النثر جلاله وروعته ، ومن الشعر جماله ومتعته .

[٢ - الجمال التنسيقي في رصف حروفه وتأليفها من مجموعات مؤتلفة مختلفة]

فإذا ما اقتربتَ بأذنك قليلاً قليلاً ، فطرقتْ سمعكَ جواهرُ حروفه خارجة من مخارجها الصحيحة . فاجأتك منه لذة أخرى في نظم تلك الحروف ورصفها وترتيب أوضاعها فيما بينها : هذا ينقر وذاك يصفر ، وثالث يهمس ورابع يجهر ، وآخر ينزلق عليه النَفس . وآخر يحتبس عنده النفس . وهلمَّ جرّاً . فترى الجمال اللغوي ماثلاً أمامك في مجموعة مختلفة مؤتلفة[3] : لا كركرة[4] ولا ثرثرة[5] ....

(١) تقدمت كلمة الوليد في ذلك (ص ١١٦) [دراز] .

(٢) أعاريض : أوزان .

(٣) من وقف على صفات الحروف ومخارجها ازداد بهذا المعنى علماً . وإن شئت فارجع إلى ما كتبه الأديب الرافعي عن هذه الناحية في كتابه الموسوم (إعجاز القرآن) فقد أطال نفسه فيها وأجاد [دراز] .

(٤) كركرة : إعادة الشيء مرة بعد أخرى .

(٥) ثرثرة : كثرة الكلام في ترديد وتخليط .

ولا رخاوة[1] ولا معاظلة[2] . ولا تناكر ولا تنافر[3] . وهكذا ترى كلاماً ليس بالحضري الفاتر ، ولا بالبدويِّ الخشن ، بل تراه وقد امتزجت فيه جزالة البادية وفخامتها برقَّة الحاضرة وسلاستها ، وقُدِّر فيه الأمر تقديراً أن لا يبغي بعضهما على بعض . فإذا مزيجٌ منهما كأنما هو عصارة اللغتين وسلالتهما ، أو كأنما هو نقطة الاتصال بين القبائل ، عندها تلتقي أذواقهم ، وعليها تأتلف قلوبهم .

من هذه الخصوصية والتي قبلها تتألف القشرة السطحية للجمال القرآني : وليس الشأن في هذا الغلاف إلَّا كشأن الأصداف مما تحويه من اللآلىء النفيسة ، فإنه جلَّت قدرته قد أجرى سنته في نظام هذا العالم أن يُغَشِّي جلائل أسراره بأستار لا تخلو من متعة وجمال ، ليكون ذلك من عوامل حفظها وبقائها بتنافس المتنافسين فيها وحرصهم عليها . أنظر كيف جعل باعثة الغذاء ورابطة المحبة قِوَاماً لبقاء الإنسان فرداً وجماعة . فكذلك لمَّا سبقت كلمتُه أن يصون علينا نفائس العلوم التي أودعها هذا الكتاب الكريم؛ قضت حكمته أن يختار لها صِواناً يحببها إلى الناس بعذوبته ، ويُغريهم عليها بطلاوته ، ويكون بمنزلة (الحُداء) يستحث النفوس على السير إليها . ويهوِّن عليها وعثاء السفر في طلب كمالها ، لا جرم اصطفى لها من هذا اللسان العربي المبين ذلك القالَب العذب الجميل . ومن أجل ذلك سيبقى صوت القرآن أبداً في أفواه الناس وآذانهم مادامت فيهم حاسةٌ تذوقُ وحاسةٌ تَسمع ، وإن لم يَكن لأكثرهم قلوب يفقهون بها حقيقة سرِّه ، وينفذون بها إلى بعيد غَوْره ﴿ **إنَّا نحنُ نَزَّلنا الذِّكْرَ وإنَّا لهُ لحافِظونَ** ﴾ [سورة الحجر الآية : ٩] .

---

(١) رخاوة : استرخاء ولين ومباعدة .

(٢) معاظلة : تعقيد الكلام وموالاته بعضه فوق بعض .

(٣) تنافر : هو تنافر ما بين الحروف ، كما في الحروف التي تتجاور مخارجها تماماً . مثال : الهُعْخُع .

هل عرفت أن نظم القرآن الكريم يجمع إلى الجمال عِزَّةً وغرابةً ؟ وهل عرفت أن هذا الجمال كان قوةً إلٰهيةً حُفِظَ بها القرآن من الفقد والضياع ؟

فاعرف الآن أن هذه الغرابة كانت قوة أخرى قامت بها حجة القرآن في التحدي والإعجاز ، واعتصم بها من أيدي المعارضين والمبدِّلين ، وأن ذلك الجمال ما كان ليكفي وحده في كفِّ أيديهم عنه ، بل كان أجدر أن يغريهم به ؛ ذلك أن الناس - كما يقول الباقلاني[1] - إذا استحسنوا شيئاً اتَّبعوه ، وتنافسوا في محاكاته بباعث الجِبِلَّة[2] . وكذلك رأينا أصحاب هذه الصناعة يتبع بعضهم بعضاً فيما يستجيدونه من الأساليب ، وربما أدرك اللاحق فيهم شأو السابق أو أربَى عليه ، كما صنع ابن العميد بأسلوب الجاحظ ، وكما يصنع الكتاب والخطباء اليوم في اقتداء بعضهم ببعض . وما أساليب الناس على اختلاف طرائقها في النثر والشعر إلَّا مناهل موروده ، ومسالك معبَّدة ، تؤخذ بالتعلم ، وتُراضُ الألسنة والأقلام عليها بالمَرانة ، كسائر الصناعات .

فما الذي منع الناس أن يُخضعوا أسلوب القرآن لألسنتهم وأقلامهم ، وهم شَرْعٌ[3] في استحسان طريقته ، وأكثرهم الطالبون لإبطال حجته ؟

ما ذاك إلَّا أن فيه مَنَعةً طبيعية كفَّت ولا تزال تكفُّ أيديهم عنه ، ولا ريب أن أول ما تلاقيك هذه المناعة فيما صوَّرناه لك من غريب تأليفه في بنيته ، وما اتخذه في رصف حروفه وكلماته ، وجمله وآياته ، من نظام له سمتٌ وحده ، وطابعٌ خاص به ، خرج فيه عن هيئة كل نظم تعاطاه الناس أو يتعاطَونه . فلا جرم لم يجدوا له مثالاً يحاذونه به ، ولا سبيلاً يسلكونه إلى تذليل منهجه . وآية ذلك أن أحداً لو حاول أن يُدخل عليه شيئاً من كلام الناس ، من السابقين منهم أو اللاحقين ، من الحكماء أو البلغاء أو النبيين والمرسلين ، لأفسد بذلك

---

(١) في كتابه (إعجاز القرآن) [دراز] .

(٢) الجِبِلَّة : الخِلْقَة والطبيعة .   (٣) شَرْعٌ : سواء .

مزاجَه في فم كل قاريء ، ولجعل نظامه يضطرب في أذن كل سامع ، وإذاً لنادى الداخل على نفسه بأنه واغِل دخيل ، ولنفاه القرآن عن نفسه كما ينفي الكيرُ خبَثَ الحديد ﴿ **وإنه لكِتَابٌ عزيزٌ لا يأتيه البَاطِلُ مِن بَينِ يَدَيْهِ ولا مِنْ خَلْفِهِ * تنزيلٌ مِنْ حكيمٍ حميدٍ** ﴾ [سورة فصلت الآيتان : ٤١ ، ٤٢] .

* * *

[نظرات في البيان القرآني وخصائصه التي امتاز بها عن سائر الكلام]

فإذا أنت لم يُلهك جمال الغطاء عما تحته من الكنز الدفين ، ولم تحجبك بهجة الأستار عما وراءها من السرِّ المصون ، بل فَليتَ[1] القشرة عن لُبِّها[2] ، وكشفت الصَّدَفة عن دُرِّها ، فنفذتَ من هذا النظام اللفظي إلى ذلك النظام المعنوي ، تجلَّى لك ما هو أبهى وأبهر ، ولقيك منه ما هو أروع وأبدع .

لا نريد أن نحدثك هاهنا عن معاني القرآن وما حوته من العلوم الخارجة عن متناول البشر ، فإن لهذا الحديث موضعاً يجيء إن شاء الله تعالى في بحث الإعجاز (العلمي) وحديثنا كما ترى لا يزال في شأن الإعجاز (اللغوي) وإنما اللغة ألفاظ .

بيد أن هذه الألفاظ ينظر فيها (تارةً) من حيث هي أبنيةٌ صوتيةٌ مادتها الحروف وصورتها الحركات والسكنات ، من غير نظر إلى دلالتها . وهذه الناحية قد مضى لنا القول فيها آنفاً . و (تارةً) من حيث هي أداة لتصوير المعاني ونقلها من نفس المتكلم إلى نفس المخاطب بها ، وهذه هي الناحية التي سنعالجها الآن ، ولا شك أنها هي أعظم الناحيتين أثراً في الإعجاز اللغوي الذي نحن بصدده ، إذ اللغات تتفاضل من حيث هي بيان ، أكثرَ مِن تفاضلها من حيث هي أجراس

(١) فَلَيْتَ : شققتَ وكشفتَ .

(٢) لُبِّها : قلبها .

وأنغام .

أما النظر في المعاني القرآنية من جهة ما فيها من العلوم العجيبة فتلك خطوة أخرى ونظرة خارجة عن البحث اللغوي جملة ، إذ الفضيلة البيانية إنما تعتمد دقة التصوير وإجادة التعبير عن المعنى كما هو ، سواءٌ عندها أن يكون ذلك المعنى من جنس ما تتناوله عقول الناس أو لا يكون ، بل سواء عندها أن يكون ذلك المعنى حقيقةً أو خيالاً ؛ وأن يكون هدىً أو ضلالاً[1] ؛ عكس الفضيلة العلمية ، فإنها عائدة إلى المعنى في نفسه على أي صورة أخرجته ، وبأي لغة عبرت عنه .

نعم قد تتفاوت اللغات في الوفاء بحق المعنى فيكون التعبير الجيد مما يزيد في قيمته العلمية ، لكن النظر ههنا في قيمة البيان لا في قيمة المبيَّن . فلا تعجل علينا بتلك النظرة العلمية حتى نفرغ من هذه النظرة اللغوية .

والآن فلنبدأ وصفنا لبعض **خصائص القرآن البيانية** . ولنرتبها على أربع مراتب :

١ – القرآن في قطعةٍ قطعةٍ[2] منه .

---

(١) ولذلك كانت حكايات القرآن لأقوال المبطلين لا تقصر في بلاغتها عن سائر كلامه ، لأنها تصف ما في أنفسهم على أتم وجه [**دراز**] .

(٢) نريد منها ما يؤدي معنى تاماً كالذي يؤدى عادة في بضع آيات . وقد يؤدى في آية طويلة ، أو سورة قصيرة ، وهو الحد الأدنى الذي تنزل إليه التحدي أخيراً إذ قال : ﴿ **فَأْتوا بسورةٍ** ﴾ [سورة البقرة الآية : ٢٣] ولم يقل بسورة من طواله أو أوساطه ، بل أطلق إطلاقاً ، فتناول ذلك سور المفصل الذي كان قد نزل أكثره بمكة قبل أن ينزل هذا التحدي الأخير ، حتى سورة العصر والكوثر .

وبعض الناس – كذا نقله الألوسي في مقدمة كتابه روح المعاني عن قائل مجهول – يذهب إلى أن التحدي لم يقع بمطلق سورة ، بل بسورة (تبلغ مبلغاً يتبين فيه رتب ذوي البلاغة) كأنه رأى أن هذه الرتب لا تتبين في مقدار ثلاث آيات مثلاً ، وهذا وإن =

٢ – القرآن في سورة سورة منه .
٣ – القرآن فيما بين بعض السور وبعض .
٤ – القرآن في جملته .



= لم يكن قادحاً في إعجاز القرآن ، ولا مبطلاً لحجته – إذ يكفي ثبوت إعجازه ولو في قدر سورة البقرة،أو سورة يونس ، أو سورة هود ، أو سورة الإسراء ، أو سورة الطور ، وهي السور التي ورد فيها ذكر التحدي – إلا أننا نحسب أن صاحب هذا القول حين ذهب إليه إنما ظَنَّ ظناً لم يستيقنه ، واستبعد استبعاداً أن تكون هذه السور القصار معجزةً في بيانها ، لأنه لم يدرك غرابة في نظمها فلم يفقه سر هذا الإعجاز فيها . ولكن هلا جعل ذلك حجة على قلة بضاعته في هذه الصناعة ، ولم يجعل جهله بقيمتها حجة على عدم إعجازها .

فالنجم تستصغر الأبصار رؤيته والذنب للطرف لا للنجم في الصغر

وهلا فكر أن العرب الذين قامت الحجة بعجزهم قد استوت قَدْرهم أمام طواله وقصاره فلم يعارضوا هذه ولا تلك . فهذا وحده حاسم لشبهته إن كان يكفيه البرهان . فإن أراد العيان قيل له : اعمد إلى واحدة من تلك السور فحصل معانيها في نفسك ، ثم جيء لها بكلام من عندك . فسوف ترى أنك بين أمرين : إما ألا تؤديها على وجهها في مثل هذا القدر وبمثل هذا النظم . وإما أن تعيد عين ألفاظها ؛ لا ثالث . وحينذاك تتبين أن سر الإعجاز في القصير من سور القرآن مثله في الطويل ، كما أن سر الإعجاز في خلق النملة مثله في خلق الفيل . عرف ذلك من عرفه ، وجهله من جهله . قال ابن عطية رحمه الله : (ونحن تتبين لنا البراعة في أكثره ويخفى علينا وجهها في مواضع ، لقصورنا عن رتبة العرب يومئذ في سلامة الذوق وجودة القريحة . وقد قامت الحجة على العالم بالعرب ، لانتهائهم إلى غاية الفصاحة البشرية) أهـ عن الإتقان . نقول : ومن سار على الدرب وصل . فإن لم يدرك كل ما تمنى دله ما علم على ما جهل . . والله المستعان [**دراز**] .

- ١ -

القرآن في قطعة قطعة منه

لسنا ندري والله ماذا نقول لك في أسلوب معجز في وصفه ، كما هو معجزٌ في نفسه ؟ غير أننا نقول كلمة هي جملة القول فيه . وهي أنه ***(تلتقي عنده نهايات الفضيلة كلها . على تباعد ما بين أطرافها)*** .

هذه كلمة تحتاج تفسيراً طويلاً ، يمتلىء به الصدر ولا ينطلق به اللسان . وكل ما سنحاوله أن نفسر لك جانباً منها بقدر الطاقة . غير أننا قبل أن نحدثك في هذا الجانب عن القرآن سنحدثك عن كلام الناس حديثاً يفهمه كل من عالج صنعة البيان بنفسه ، لتعرف من وجوه النقص هاهنا وجوه الكمال هناك ، ومن أبواب العجز هاهنا أسباب الإعجاز هناك :

أ - ب : (القصد في اللفظ) و (الوفاء بحق المعنى) :

نهايتان كل من حاول أن يجمع بينهما وقف منهما موقف الزوج بين ضرتين لا يستطيع أن يعدل بينهما دون ميلٍ ما إلى إحداهما :

فالذي يعمد إلى ادخار لفظه وعدم الإنفاق منه إلا على حدِّ الضرورة لا ينفك من أن يحيف على المعنى قليلاً أو كثيراً . ذلك أنه إما أن يؤدي لك مراده جملة لا تفصيلاً ، فيكون سبيله سبيل من يقول في باب المحاجة : (صدقوا ، أو كذبوا) وفي باب الوصف : (حسن ، أو قبيح) وفي باب الإخبار : (كان ، أو لم يكن) وفي باب الطلب : (افعل ، أو لا تفعل) لا زائد على ذلك . وإما أن يذهب فيه إلى شيء من التفصيل ، ولكنه إذ يأخذه الحذر من الإكثار والإسراف ، يبذل جهده في ضم أطرافه وحذف ما استطاع من أدوات

التمهيد والتشويق ، ووسائل التقرير والتثبيت ، وما إلى ذلك مما تمس إليه حاجة النَفْس في البيان ، حتى يخرجه ثوباً متقلِّصاً يقصر عن غايته ، أو هيكلاً من العظم لا يكسوه لحم ولا عصب . ورب حرف واحد ينقص من الكلام يذهب بمائه ورونقه ، ويكشف شمس فصاحته . ورب اختصار يطوي الكلام طيّاً يزُهق روحه ويعمِّي طريقه ؛ ويردُّ إيجازه عِيّاً وإلغازاً .

والذي يعمد إلى الوفاء بحق المعنى وتحليله إلى عناصره؛ وإبراز كل دقائقه (بقدر ما يحيط به علمه وما يؤديه إليه إلهامه) لا يجد له بُدّاً من أن يمدَّ في نفسه مدّاً ، لأنه لا يجد في القليل من اللفظ ما يشفي صدره ، ويؤدي عن نفسه رسالتها كاملة . فإذا أعطى نفسه حظها من ذلك لا يلبث أن يباعد ما بين أطراف كلامه ، ويبطيء بك في الوصول إلى غايته ، فتحسُّ بقوة نشاطك وباعثة إقبالك آخذتين في التضاؤل والاضمحلال .

عامةُ من نعرفهم من الفصحاء قُدامَى ومُحدَثين يُؤتَون من هذا الجانب غالباً ، أعني جانب الإملال والإسراف ، لا جانب الإخلال والإجحاف . وأكثرهم تجمح بهم شهوة البيان إلى أبعد من هذا الحد :

* فمنهم من يذهب إلى التكلف والتفصح باستعمال الغريب من المفردات والتراكيب ، فيكلفك أن تبدي وتعيد وتقبل وتدبر حتى تهتدي إلى وجه مراده . وهكذا لا يزداد كلامه بالبسط إلا ضيقاً عن الفهم .

* ومنهم من يُلقي حول المعنى رُكاماً من الحشو والفضول ينوء بحمله ، أو يُلبسه ثوباً فَضفاضاً من المترادف والمتقارب يتعثر في أذياله . يحسب أنه يُوفِّي لك المعنى ويحدده ، وفي الحق إنما ينشره ويبدِّده . ولعل أمثل هؤلاء طريقةً مَن لو حذفت شطر كلامه لأغناك عنه ثاني شطريه .

ذلك على أن البلغاء مهما أوجَفوا مِن رِكابهم ، ومهما أجلبوا بخيلهم ورَجِلِهم لا يبلغُ الواحدُ منهم بعمله غايةَ أمله ، وإنما يصل كما قلنا إلى كمال

نسبي (بقدر ما يحيط به علمه ، وما يؤديه إليه إلهامه في الحال) أما الوفاء بالمعنى حق وفائه بحيث لا يخطئه عنصرٌ منه ولا حِليةٌ من حِلاه ولا ينضاف إليه عَرَضٌ غريب عنه يُعَدُّ رقعة في ثوبه ، ولا ينقلب فيه وضعٌ من أوضاعه يَغُضُّ من حسن تقويمه ، وبحيث لا سبيل فيه إلى نقض أو اقتراح جديد ؛ فذلك أمرٌ لا يستطيع أن ينتحله رجلٌ اكتوى بنار البيان ، فضلاً عن أن ينحله لإنسان غيره .

وآية ذلك أنك تراه حين يتعقب كلام نفسه في الفَيْنة[1] بعد الفَينة يجد فيه زائداً يمحوه ، وناقصاً يثبته ، ويجد فيه ما يهذب ويبدل ، وما يقدم أو يؤخر ، حتى يسلك سبيله إلى النفس سوياً . ولعله لو رجع إليه سبعين[2] مرة لكان له في كل مرة نظرة . وكلما كان أنفذ بصراً وأدق حساً ، كان أقل في ذلك قناعة وأبعدَ همّاً ، إذ يرى وراء جهده غايةً هي المثل الأعلى الذي يطمح إليه ولا يطاوعه ، والكمال البياني الذي يتعلق به خيالُه ولا يناله ﴿ **كباسِطِ كفَّيْهِ إلى الماءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هوَ بِبَالِغِهِ** ﴾ [سورة الرعد الآية : ١٤] .

هذا حظ الكلام البليغ عند قائله . فما ظنك بناقديه ومنافسيه ؟

وهذا وهو إنما يعمد إلى غاية واحدة . فكيف لو عمد معها إلى الغاية الأخرى ، وحاول أن يضع هذه الثروة المعنوية في لفظ قاصد ؟ وأنَّى يكون له ذلك وهو سجين هذه الفطرة الإنسانية التي لا تقرب به من أحد طرفي الطريق إلا بمقدار ما تبعد به عن الطرف الآخر ؟

ولئن ظفرت بأحد وُفِّق لتقريب تينك الغايتين إلى حدٍّ ما في جملة أو جملتين ، فتربصْ به كيف يكون أمره بعد ذلك . وانظر كيف يدركه الكلال

---

(١) الفينة : الساعة ، الحين .

(٢) كما يروى عن زهير في تهذيب قصائده التي كان يسميها (الحوليات) [**دراز**] .

والإعياء وفترة[1] الطبع الإنساني ، فينحلُّ من عقدة كلامه ما كان وثيقاً ، ويذبل من زهرته ما كان غضاً طرياً ، ثم لا يعود إلى قوته إلا في الشيء بعد الشيء ، كما تصادف في التراب قطعة من التِّبر هاهنا وقطعة هنالك . فتقول : هذا نفيس جيد ، وهذا أنفس وأجود ، وهذا هو واسِطة العقد[2] وبيت القصيد[3] .

سل العلماء بنقد الشعر والكلام : (هل رأيتم قصيدة أو رسالة كلَّها أو جُلَّها معنى ناصع ، ولفظ جامع ، ونظم رائع ؟) – لقد أجمعت كلمتهم على أن أبرع الشعراء لم يبلغوا مرتبة الإجادة إلا في أبيات محدودة ، من قصائد معدودة ، وكان لهم من وراء ذلك المتوسطُ والرديء والغَث والمستكرَه . وكذلك قالوا في الكتاب والخطباء ، والأمر فيهم أبين .

فإن سرك أن ترى كيف تجتمع هاتان الغايتان على تمامهما بغير فترة ولا انقطاع ، فانظر حيث شئت من القرآن الكريم ، تجد بياناً قد قُدِّرَ على حاجة النفس أحسن تقدير ، فلا تحس فيه بتخمة الإسراف ولا بمخمصة التقتير . يؤدي لك من كل معنى صورة نقية وافية : (نقية) لا يشوبها شيء مما هو غريب عنها ، (وافية) لا يشذ عنها شيء من عناصرها الأصلية ولواحقها الكمالية . كل ذلك في أوجز لفظ وأنقاه . ففي كل جملة منه جهازٌ من أجهزة المعنى ، وفي كل كلمة منه عضو من أعضائه ، وفي كل حرف منه جزء بقدره ، وفي أوضاع كلماته من جمله ، وأوضاع جمله من آياته سر الحياة الذي ينتظم المعنى

---

(١) فترة : ضعف وخفوت .

(٢) واسِطة العقد : الدُرَّة التي توضع في وسط العِقْد أو القِلادة ، وهي أجودُ وأنْفَسُ ما فيه .

(٣) بيت القصيد : قال ابن جني : أصل ق ص د ومواقعها في كلام العرب : الاعتزام والتوجه والنهود والنهوض نحو الشيء [لسان العرب ٣٦٤٣] ، وهي هنا تعني عين الهدف وأعظمه .

بأداته . وبالجملة ترى كما يقول الباقلاني : (محاسن متوالية[1] ، وبدائع تَتْرا) .

ضع يدك حيث شئت من المصحف ، وعد ما أحصته كفّك من الكلمات عدّاً ، ثم أحص عدتها من أبلغ كلام تختاره خارجاً[2] عن الدفتين وانظر نسبة ما حواه هذا الكلام من المعاني إلى ذاك . ثم انظر : كم كلمةً تستطيع أن تسقطها أو تبدلها من هذا الكلام دون إخلال بغرض قائله ؟ وأي كلمة تستطيع أن تسقطها أو تبدلها هناك ؟ فكتاب الله تعالى - كما يقول ابن عطيـة - (لو نُزعت منه لفظة ، ثم أدير لسان العرب على لفظة أحسن منها لم توجد)[3] . بل هو كما وصفه الله ﴿ **كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثمَّ فُصِّلَتْ مِن لَدُنْ حكيمٍ خبيرٍ** ﴾[4]

[سورة هود الآية : ١] .

جـ - د : (خطاب العامة) و (خطاب الخاصة) :

وهاتان غايتان أخريان متباعدتان عند الناس . فلو أنك خاطبت الأذكياء بالواضح المكشوف الذي تخاطب به الأغبياء ، لنزلت بهم إلى مستوى لا يرضونه

---

(١) أصل الكلمة (تتوالى) هكذا في كتاب إعجاز القرآن للباقلاني ولكننا نقلناها بالمعنى ، ولم ننقلها قصداً لإصلاح خطأ مشهور بين المبتدئين ، إذ يظنون كلمة (تترا) فعلاً مضارعاً ، وإنما هي اسم منصوب أصله وتراً ، أي متتابعاً . ولا يخفى أن جعل القرينة الأولى فعلًا مضارعاً من شأنه أن يقرر هذا الوهم في نفس الطالب فآثرنا تعديلها على هذا الوجه مع التنبيه على ذلك [**دراز**] .

(٢) وكلام النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وإن كان - لما أُشْرِبه من روح الوحي - أوجز وأفصح كلام تكلم به الناس ، لا يبلغ في وجازته واكتنازه وامتلائه بتلك الثروة المعنوية معشار ما تجده من ذلك في القرآن الكريم [**دراز**] .

(٣) عن الإتقان [**دراز**] .

(٤) وأنت فأنعم النظر في هذه الآية الكريمة تجدها قد جمعت كل ما بسطناه في هذا الفصل بكلمتي (الإحكام) و (التفصيل) وأي إحكام وتفصيل ؟ إحكام من (حكيمٍ) متقنٍ لا خلل في صناعته ، وتفصيل من (خبيرٍ) عالمٍ بدقائق الأمور وتفاصيلها على ما هي عليه [**دراز**] .

لأنفسهم في الخطاب . ولو أنك خاطبت العامة باللمحة والإشارة التي تخاطب بها الأذكياء لجئتهم من ذلك بما لا تطيقه عقولهم ، فلا غنى لك – إن أردت أن تعطي كلتا الطائفتين حظها كاملاً من بيانك – أن تخاطب كل واحدة منهما بغير ما تخاطب به الأخرى ؛ كما تخاطب الأطفال بغير ما تخاطب به الرجال . فأما أن جملة واحدة تُلقَى إلى العلماء والجهلاء ، وإلى الأذكياء والأغبياء ، وإلى السوقة[1] والملوك ، فيراها كل منهم مُقَدَّرةً على مقياس عقله وعلى وفق حاجته فذلك ما لا تجده على أَتَمِّهِ إلا في القرآن الكريم . فهو قرآن واحد يراه البلغاء أوفى كلام بلطائف التعبير ، ويراه العامة أحسن كلام وأقربه إلى عقولهم ، لا يلتوي على أفهامهم ، ولا يحتاجون فيه إلى ترجمان وراء وضع اللغة . فهو متعة العامة والخاصة على السواء . مُيَسَّرٌ لكل من أراد ﴿ **وَلَقَدْ يَسَّرْنا القرآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُدَّكِرٍ ؟** ﴾ [سورة القمر الآيات : ١٧ ، ٢٢ ، ٣٢ ، ٤٠] .

هـ – و : (إقناع العقل) و (إمتاع العاطفة) :

وفي النفس الإنسانية قوتان : قوة تفكير ، وقوة وجدان . وحاجة كل واحدة منهما غير حاجة أختها . فأما إحداهما فتنقب عن الحق لمعرفته ، وعن الخير للعمل به ، وأما الأخرى فتسجل إحساسها بما في الأشياء من لذة وألم . والبيان التام هو الذي يوفّي لك هاتين الحاجتين ويطير إلى نفسك بهذين الجناحين ، فيؤتيها حظها من الفائدة العقلية والمتعة الوِجدانية معاً .

فهل رأيت هذا التمام في كلام الناس ؟

لقد عرفنا كلام العلماء والحكماء ، وعرفنا كلام الأدباء والشعراء ، فما وَجدنا من هؤلاء ولا هؤلاء إلا غُلُوّاً في جانب ، وقصوراً في جانب :

* فأما الحكماء فإنما يؤدون إليك ثمار عقولهم غذاءً لعقلك ، ولا تتوجه نفوسهم إلى استهواء نفسك واختلاب عاطفتك ، فتراهم حين يقدِّمون إليك

---

(١) السُوقَة : الرَّعِيَّة .

حقائق العلوم لا يأبهون لما فيها من جفافٍ وعريٍ ونَبْوٍ[1] عن الطباع .

* وأما الشعراء فإنما يسعون إلى استثارة وجدانك ، وتحريك أوتار الشعور من نفسك . فلا يبالون بما صوَّروه لك أن يكون غَيّاً أو رشداً ؛ وأن يكون حقيقة أو تخيلاً ، فتراهم جادّين وهم هازلون . يستبكون وإن كانوا لا يبكون ، ويُطربون وإن كانوا لا يَطربون ﴿ **والشُّعَراءُ يَتَّبِعُهُمُ الغاوُون * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وادٍ يَهيمُون * وَأَنهُمْ يقولونَ مَا لا يَفعَلونَ** ﴾

[سورة الشعراء الآيات : ٢٢٤ – ٢٢٦] .

وكل امريء حين يفكر فإنما هو فيلسوف صغير . وكل امريء حين يحس ويشعر فإنما هو شاعر صغير ، فسلْ علماء النفس : (هل رأيتم أحداً تتكافأُ فيه قوة التفكير وقوة الوجدان وسائر القوى النفسية على سواء ؟ ولو مالت هذه القوى إلى شيء من التعادل عند قليل من الناس ، فهل ترونها تعمل في النفس دفعةً، وبنسبةٍ واحدة ؟) يجيبوك بلسانٍ واحدٍ : (كلا ، بل لا تعمل إلا مناوبةً في حال بعد حال ، وكلما تسلطت واحدة منهن اضمحلت الأخرى وكاد ينمحي أثرها) . فالذي ينهمك في التفكير تتناقص قوة وجدانه ، والذي يقع تحت تأثير لذة أو ألم يضعف تفكيره . وهكذا لا تقصد النفس الإنسانية إلى هاتين الغايتين قصداً واحداً ، وإلا لكانت مقبلة مدبرة معاً . وصدق الله : ﴿ **ما جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ** ﴾ [سورة الأحزاب الآية : ٤] .

فكيف تطمع من إنسان في أن يهب لك هاتين الطلبتين على سواء ، وهو لم يجمعهما في نفسه على سواء ؟ وما كلام المتكلم إلا صورة الحال الغالبة عليه من بين تلك الأحوال .

هذا مقياس تستطيع أن تتبين به في كل لسان وقلم أي القوتين كان خاضعاً

---

(١) نَبْوٍ : بُعْدٍ وقُبْحٍ .

لها حين قال أو كتب :

* فإذا رأيته يتجه إلى تقرير حقيقة نظرية أو وصف طريقة عملية قلت : هذا ثمرة الفكرة .

* وإذا رأيته يعمد إلى تحريض النفس أو تنفيرها ، وقبضها أو بسطها ، واستثارة كوامن لذتها أو ألمها ، قلت : هذا ثمرة العاطفة .

* وإذا رأيته قد انتقل من أحد هذين الضربين إلى الآخر فتفرَّغ له بعد ما قضى وطره من سابقه ، كما ينتقل من غرض إلى غرض ، عرفت بذلك تعاقب التفكير والشعور على نفسه .

وأما إنَّ أسلوباً واحداً يتجه اتجاهاً واحداً ويجمع في يديك هذين الطرفين معاً ، كما يحمل الغصن الواحد من الشجرة أوراقاً وأزهاراً وأثماراً معاً ، أو كما يسري الروح في الجسد والماء في العود الأخضر ، فذلك ما لا تظفر به في كلام بشر ، ولا هو من سنن الله في النفس الإنسانية .

فمن لك إذاً بهذا الكلام الواحد الذي يجيء من الحقيقة البرهانية الصارمة بما يُرضي حتى أولئك الفلاسفة المتعمقين . ومن المتعة الوجدانية الطيبة بما يُرضي حتى هؤلاء الشعراء المَرِحين ؟

ذلك الله رب العالمين . فهو الذي لا يشغله شأن عن شأن . وهو القادر على أن يخاطب العقل والقلب معاً بلسان . وأن يمزج الحق والجمال معاً يلتقيان ولا يبغيان . وأن يخرج من بينهما شراباً خالصاً سائغاً للشاربين ، وهذا هو ما تجده في كتابه الكريم حيثما توجهت :

* ألا تراه في فسحة قصصه وأخباره[1] لا ينسى حق العقل من حكمة وعبرة ؟

---

(١) اقرأ مثلاً سورة القصص وسورة يوسف عليه السلام [دراز] .

* أوَ لا تراه في معمعة براهينه[1] وأحكامه[2] لا ينسى حظ القلب من تشويقٍ وترقيقٍ ، وتحذيرٍ وتنفيرٍ ، وتهويلٍ وتعجيبٍ ، وتبكيتٍ وتأنيبٍ ؟ يبث ذلك في مطالع آياته ومقاطعها وتضاعيفها ﴿ **تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلودُ الَّذِين يَخْشَوْنَ رَبَّهمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلودُهم وَقُلوبُهم إلى ذِكرِ اللهِ** ﴾ [سورة الزمر الآية : ٢٣] و ﴿ **إنَّه لَقَوْلٌ فَصْلٌ * وَمَا هوَ بِالهَزْلِ** ﴾ [سورة الطارق الآيتان : ١٣ ، ١٤] .

ز - ح : (البيان) و (الإجمال) :

وهذه عجيبة أخرى تجدها في القرآن ولا تجدها فيما سواه . ذلك أن الناس

---

(١) اقرأ مثلاً قوله تعالى ﴿ **لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون** ﴾ [سورة الأنبياء الآية : ٢٢] وانظر كيف اجتمع الاستدلال والتهويل والاستعظام في هذه الكلمات القليلة . بل الدليل نفسه جامع بين عمق المقدمات اليقينية ووضوح المقدمات المسلمة ، ودقة التصوير لما يعقب التنازع من (الفساد) الرهيب . فهو برهاني خطابي شعري معاً . هل تجد مثل هذا في كتاب من كتب الحكمة النظرية ؟ [**دراز**] .

(٢) اقرأ مثلاً قوله تعالى ﴿ **يأيها الذين آمنوا كُتِبَ عليكم القصاص في القتلى : الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى فمن عُفِيَ له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم** ﴾ [سورة البقرة الآية : ١٧٨] وانظر :

* الاستدراج إلى الطاعة في افتتاح الآية بقوله : ﴿ **يأيها الذين آمنوا** ﴾ .
* وترقيق العاطفة بين الواترين والموتورين في قوله ﴿ **أخيه** ﴾ وقوله : ﴿ **بالمعروف** ﴾ وقوله ﴿ **بإحسان** ﴾ .
* والامتنان في قوله : ﴿ **تخفيف من ربكم ورحمة** ﴾ .
* والتهديد في ختام الآية ...

ثم انظر في أي شأن يتكلم ؟ أليس في فريضة مفصلة وفي مسألة دموية ؟ وتتبع هذا المعنى في سائر آيات الأحكام حتى أحكام الإيلاء والظهار . ففي أي كتاب من كتب التشريع تجد مثل هذا الروح ؟ بل في أي لسان تجد هذا المزاج العجيب ؟ تالله لو أن أحداً حاول أن يجمع في بيانه بين هذين الطرفين ففرق همه ووزع أجزاء نفسه ، لجاء بالأضداد المتنافرة ولخرج بثوب بيانه رقعاً ممزعة [**دراز**] .

إذا عمدوا إلى تحديد أغراضهم لم تتسع لتأويل . وإذا أجملوها ذهبوا إلى الإبهام أو الإلباس . أو إلى اللغو الذي لا يفيد . ولا يكاد يجتمع لهم هذان الطرفان في كلام واحد .

وتقرأ القطعة من القرآن فتجد في ألفاظها من الشفوف ، والملاسة والإحكام ، والخلو من كل غريب عن الغرض ، ما يتسابق به مغزاها إلى نفسك دون كدّ خاطر ولا استعادة حديث . كأنك لا تسمع كلاماً ولغات بل ترى صوراً وحقائق ماثلة . وهكذا يخيل إليك أنك قد أحطت به خُبراً ووقفت على معناه محدوداً ... هذا ولو رجعت إليه كرة أخرى لرأيتَك منه بإزاء معنى جديد ، غير الذي سبق إلى فهمك أول مرة . وكذلك .. حتى ترى للجملة الواحدة أو الكلمة الواحدة[1] وجوهاً عِدَّةً ، كلها صحيح أو محتمل للصحة ، كأنما هي فصٌّ من الماس يعطيك كلّ ضِلْع منه شعاعاً فإذا نظرت إلى أضلاعه جملةً بهرتك بألوان الطيف كلها ، فلا تدري ماذا تأخذ عينُك وماذا تدَع . ولعلّك

---

(١) هذا مثل صغير : اقرأ قوله تعالى : ﴿ واللهُ يرزقُ من يشاءُ بغيرِ حسابٍ ﴾ [سورة البقرة الآية : ٢١٢] وانظر هل ترى كلاماً أبين من هذا في عقول الناس . ثم انظر كم في هذه الكلمة من مرونة . فإنك لو قلت في معناها :

١ – إنه سبحانه يرزق من يشاء بغير محاسب يحاسبه ولا سائل يسأله لماذا يبسط الرزق لهؤلاء ويقدره على هؤلاء ، أصبت .

٢ – ولو قلت : إنه يرزق بغير تقتير ولا محاسبة لنفسه عند الإنفاق خوف النفاد ، أصبت .

٣ – ولو قلت : إنه يرزق من يشاء من حيث لا ينتظر ولا يحتسب ، أصبت .

٤ – ولو قلت : إنه يرزقه بغير معاتبة ومناقشة له على عمله ، أصبت .

٥ – ولو قلت : يرزقه رزقاً كثيراً لا يدخل تحت حصر وحساب ، أصبت .

فعلى الأول يكون الكلام تقريراً لقاعدة الأرزاق في الدنيا ، وأن نظامها لا يجري على حسب ما عند المرزوق من استحقاق بعلمه أو عمله ، بل تجري وفقاً لمشيئته وحكمته سبحانه في الابتلاء ، وفي ذلك ما فيه من التسلية لفقراء المؤمنين ، ومن الهضم لنفوس المغرورين من المترفين . وعلى الثاني يكون تنبيهاً على سعة خزائنه وبسطة يده جل شأنه . وعلى =

لو وكلت النظر فيها إلى غيرك لرأى منها أكثر مما رأيت . وهكذا تجد كتاباً مفتوحاً مع الزمان يأخذ كلّ منه ما يُسِّرَ له ؛ بلْ ترى محيطاً مترامي الأطراف لا تحدّه عقول الأفراد ولا الأجيال .

ألم تر كيف وَسِع الفرق الإسلامية على اختلاف منازعها في الأصول والفروع ؟ وكيف وسع الآراء العلمية على اختلاف وسائلها في القديم والحديث ؟ وهو على لِينه للعقول والأفهام صُلْبٌ متين ، لا يتناقض ولا يتبدَّل . يحتج به كل فريق لرأيه ، ويدَّعيه لنفسه ، وهو في سموّه فوق الجميع يُطِلّ على معاركهم حوله ، وكأن لسان حاله يقول لهؤلاء وهؤلاء : ﴿ **كلّ يعملُ على شاكِلَتِه فرَبُّكُمْ أَعْلمُ بِمَنْ هوَ أهدَى سبيلًا** ﴾ [سورة الإسراء الآية : ٨٤] .

* * *

ها نحن أولاء قد عرضنا لك جانباً من تلك العجائب البيانية التي لا تنال مثلها أيدي الناس . وها قد أعطيناك في حاشيةِ كلٍّ منها نموذجاً صغيراً يفتح لك الباب إلى إحتذائه في سائر القرآن . فهل ترى في هذا وفاءً بما وعدناك ، وبما عوَّدناك ، من التقفية على آثار التفصيل بشيء من التطبيق والتمثيل ؟ أم لا تزال بحاجة إلى المزيد من هذه الأمثلة ؟

سنزيدك . وسنوجّه نظرك بنوع خاص إلى دقة التعبير القرآني ومتانة نظمه ، وعجيب تصرفه حتى يؤدي لك المعنى الوافر الثريَّ ، في اللفظ القاصد النقيّ ؛ إذ كانت هذه الخاصة الأولى – من الخواص التي ذكرناها – أحوج

= الثالث يكون تلويحاً للمؤمنين بما سيفتح الله لهم من أبواب النصر والظفر حتى يبدل عسرهم يسراً وفقرهم غنى من حيث لا يظنون . وعلى الرابع والخامس يكون وعداً للصالحين : إما بدخولهم الجنة بغير حساب ، وإما بمضاعفة أجورهم أضعافاً كثيرة لا يحصرها العدّ . ومن وقف على علم التأويل واطلع على معترك أفهام العلماء في آية رأى من ذلك العجب العاجب [**دراز**] .

إلى التوقيف والإرشاد .

[تطبيق على آية كريمة]

ولا تحسبن أننا سنضرب لك الأمثال بتلك الآيات الكريمة التي وقع اختيار الناس عليها وتواصفوا الإعجاب بها . كقوله تعالى : ﴿ **وقيلَ يا أرضُ ابْلَعِي مَاءَكِ** ... ﴾[1] الآية [سورة هود الآية : ٤٤] وقوله ﴿ **وَلَكُمْ فِي القِصاصِ حياةٌ** ﴾[2] [سورة البقرة الآية : ١٧٩] وأشباههما . بل نريد أن نجيئك بمثال من عُرض القرآن في معنى لا يأبه له الناس ولا يقع اختيارهم على مثله عادة ، ليكون دليلاً على ما وراءه .

يقول الله تعالى في ذكر حِجَاج اليهود : ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ : (آمِنُوا بما أنزلَ اللهُ) قالوا : (نُؤْمنُ بما أُنزِل علينا). ويكفُرون بما وراءَه وهوَ الحقُّ مُصَدِّقاً لِما مَعَهمْ . قُلْ : فلِمَ تَقْتُلونَ أنبياءَ اللهِ مِن قَبلُ إن كُنتمْ مُؤمنين ؟ * [ولقدْ جاءكُم موسى بالبيناتِ ثمَ اتخذتمُ العِجْل مِن بعدِهِ وأنتمْ ظالمون * وَإذْ أخذنا ميثاقكمْ ورَفَعْنا فوَقكمُ الطورَ خُذُوا ما آتيناكُمْ بقُوةٍ واسمعوا . قالوا سَمِعْنا وَعَصَينا وَأُشْرِبوا في قلوبِهِمُ العِجْلَ بكُفْرِهِم . قُلْ بِئْسَمَا يأمُرُكم بِهِ إيمانُكمْ إن كُنتُم مُؤمنينَ]** ﴾ [سورة البقرة الآيات : ٩١ – ٩٣] .

هذه قطعة من فصل من قصة بني إسرائيل . والعناصرُ الأصلية التي تبرزها لنا هذه الكلمات القليلة تتلخص فيما يلي :

(١) مقالة ينصح بها الناصح لليهود ، إذ يدعوهم إلى الإيمان بالقرآن .

---

(١) اقرأ إن شئت ما كتبه السكاكي عن هذه الآية في كتابه (مفتاح العلوم) بعد تعريف البلاغة والفصاحة في آخر علم البيان [**دراز**] .

(٢) اقرأ ما كتبه عنها المفسرون وما كتبه صاحب (الإتقان) في بحث الإيجاز والإطناب [**دراز**] .

(٢) إجابتهم لهذا الناصح بمقالة تنطوي على مقصدين .

(٣) الرد على هذا الجواب بركنيه ، من عدة وجوه .

وأُقسِمُ لو أن محامياً بليغاً وُكلت إليه الخصومة بلسان القرآن في هذه القضية ، ثم هُدِيَ إلى استنباط هذه المعاني التي تختلج في نفس الداعي والمدعو لَما وَسِعَه في أدائها أضعاف أضعاف هذه الكلمات . ولعله بعد ذلك لا يفي بما حولها من إشارات واحتراسات وآداب وأخلاق .

قال الناصح لليهود : آمنوا بالقرآن كما آمنتم بالتوراة ؛ ألستم قد آمنتم بالتوراة التي جاء بها موسى لأنها أنزلها الله ؛ فالقرآن الذي جاء به محمد أنزله الله ، فآمنوا به كما آمنتم بها .

فانظر كيف جمع القرآن هذا المعنى الكثير في هذا اللفظ الوجيز ﴿ **آمِنوا بما أنزلَ اللهُ** ﴾ . وسرّ ذلك أنه عدل بالكلام عن صريح اسم القرآن إلى كنايته فجعل دعاءهم إلى الإيمان به دعاءً إلى الشيء بحجته ، وبذلك أخرج الدليل والدعوة في لفظ واحد .

ثم انظر كيف طوى ذكر المُنزَل عليه فلم يقل : آمنوا بما أنزل الله (على محمد) مع أن هذا جزء متمم لوصف القرآن المقصود بالدعوة . أتدري لم ذلك ؟ .. لأنه لو ذُكر لكان في نظر الحكمة البيانية زائداً ، وفي نظر الحكمة الإرشادية مفسداً . أما الأول فلأن هذه الخصوصية لا مدخل لها في الإلزام ، فأُدير الأمرُ على القدر المشترك[1] وعلى الحد الأوسط الذي هو عمود الدليل . وأما الثاني فلأن إلقاء هذا الاسم على مسامع الأعداء من شأنه أن يُخرج أضغانهم ويثير أحقادهم فيؤدي إلى عكس ما قصده الداعي من التأليف والإصلاح .

ذلك إلى ما في هذا الحذف من الإشارة إلى طابع الإسلام وهو أنه ليس دين تفريق وخصومة ، بل هو جامع ما فرَّقه الناس من الأديان ، داعٍ إلى الإيمان

---

(١) وهو ما أنزله الله .

بالكتب كلها على سواء : بما أُنزِلَ على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم . لا نفرق بين شيء من كتبه ، كما لا نفرق بين أحد من رسله .

كان جواب اليهود أن قالوا : إن الذي دعانا للإيمان بالتوراة ليس هو كونها أنزلها الله فحسب ، بل إننا آمنا بها لأن الله أنزلها علينا ، والقرآن لم ينزله علينا ، فلكم قرآنكم ولنا توراتنا . ولكل أمة شرعةٌ ومنهاج .

هذا هو المعنى الذي أوجزه القرآن في قوله : ﴿ **نؤمنُ بما أُنزِلَ علينا** ﴾ وهذا هو المقصد الأول . وقد زاد في إيجاز هذه العبارة أن حُذف منها فاعل الإنزال وهو لفظ الجلالة ، لأنه تقدم ذكره في نظيرتها .

من البين أن اقتصارهم على الإيمان بما أُنزِلَ عليهم يوميء إلى كفرانهم بما أُنزِلَ على غيرهم ، وهذا هو المقصد الثاني . ولكنهم تحاشوا التصريح به لما فيه من شناعة التسجيل على أنفسهم بالكفر . فأراد القرآن أن يبرزه . انظر كيف أبرزه ؟ إنه لم يجعل لازِمَ مذهبهم مذهباً لهم ، و لم يدخل مضمون قولهم في جملة ما نقله من كلامهم ؛ بل أخرجه في معرض الشرح والتعليق على مقالتهم . فقال : ﴿ **ويكفرونَ بِمَا وراءَه** ﴾ أليس ذلك هو غاية الأمانة في النقل !

ثم انظر إلى التعبير عن القرآن بلفظ ﴿ **مَا وراءَه** ﴾ فإن لهذه الكلمة وجهاً تعمّ به غير القرآن ووجهاً تخُصُّ به هذا العموم ، ذلك أنهم كما كفروا بالقرآن المنزل على محمد ، كفروا بالإنجيل المنزل على عيسى ، وكلاهما وراء التوراة ، أي جاء بعدها . ولكنهم لم يكفروا بما قبل التوراة من صحف إبراهيم مثلاً . وهكذا تراه قد حدَّد الجريمة تمام التحديد باستعمال هذا اللفظ الجامع المانع . وهذا هو غاية الإنصاف وتحرّى الصدق في الاتهام .

جاء دور الردّ والمناقشة فيما أعلنوه وما أسرّوه .

فتراه لا يبدأ بمحاورتهم في دعوى إيمانهم بكتابهم ، بل يتركها مؤقتاً كأنها مُسلَّمةٌ ليبني عليها وجوب الإيمان بغيره من الكتب ، فيقول : كيف يكون إيمانهم بكتابهم باعثاً على الكفر بما هو حق مثله ؟ - لا ، بل ﴿ **هُوَ الحَقُّ** ﴾ كله[1] - وهل يعارِضُ الحقَّ حتى يكونَ الإيمان بأحدهما موجباً للكفر بالآخر ؟!

ثم يترقى فيقول : وليس الأمر بين هذا الكتاب الجديد وبين الكتب السابقة عليه كالأمر بين كل حقٍ وحقٍ ؛ فقد يكون الشيء حقاً وغيره حقاً فلا يتكاذبان ، ولكنهما في شأنين مختلفين فلا يشهد بعضهما لبعض . أما هذا الكتاب فإنه جاء شاهداً و ﴿ **مُصَدِّقاً** ﴾ لما بين يديه من الكتب . فأنّى يكذِّب به من يؤمن بها ؟!

ثم يستمر في إكمال هذا الوجه قائلاً : ولو أن التحريف أو الضياع الذي نال من هذه الكتب قد ذهب بمعالم الحق فيها جملةً ، لكان لهم بعض العذر في تكذيبهم بالقرآن ؛ إذ يحق لهم أن يقولوا : (إن البقية المحفوظة من هذه الكتب في عصرنا ليس بينها وبين القرآن هذا التطابق والتصادق ، فليس الإيمان بها موجباً للإيمان به) .. بل لو أن هذه البقية ليست عندهم ولكنهم كانوا عن دراستها غافلين ، لكان لهم مثل ذلك العذر .أمّا وهذا القرآن مصدِّق لما هو قائم من الكتاب في زمنهم وبأيديهم ويدرسونه بينهم فبماذا يعتذرون وأنّى يذهبون ؟! هذا المعنى كله يؤديه لنا القرآن بكلمة ﴿ **لِمَا مَعَهُم** ﴾ .

فانظر إلى الإحكام في صنعة البيان : إنما هي كلمةٌ رُفعت[2] وأخرى وُضعت[3] في مكانها عند الحاجة إليها ؛ فكانت هذه الكلمة حسماً لكل

---

(١) فإن ما سواه إن خالفه كان شاهداً على نفسه بالبطلان ، وإلا كان صحيحاً أو محتملاً للصحة . فهو إذاً معيار الحق وميزانه [**دراز**] .

(٢) ،(٣) ذلك أنه كان مقتضى السياق أن يقال : (مصدقاً لما أنزل عليهم) ولكنه لأمرٍ ما نحّى عن كتابهم ذلك اللقب القديم ، وألبسه هذا العنوان الجديد ولو بدلت أحد اللقبين مكان الآخر لما صلح أحدهما في موضع صاحبه ، بل لو جئت بلقب آخر فقلت (مصدقاً =

عذر ، وسداً لكل باب من أبواب الهرب ؛ بل كانت هذه الكلمة وحدها بمثابة حركة تطويق للخَصْم أُتِمَّت في خطوة واحدة ، وفي غير ما جَلَبَة ولا طنطنة .

ولمّا قضى وطر النفس من هذا الجانب المطويّ الذي ساقه مساق الاعتراض والاستطراد ، استوى إلى الردّ على المقصد الأصلي الذي تبجحوا بإعلانه والافتخار به ، وهو دعواهم الإيمان بما أنزل عليهم ، فأوسعهم إكذاباً وتفنيداً ، وبيّن أن داء الجحود فيهم داءٌ قديم ، قد أشربوه في قلوبهم ومضت عليه القرون حتى أصبح مرضاً مزمناً . وأن الذي أتوه اليوم من الكفر بما أنزل على محمد ، ما هو إلا حلْقة متصلة بسلسلة كفرهم بما أنزل عليهم ؛ وساق على ذلك الشواهد التاريخية المُفظِعة التي لا سبيل لإنكارها ، في جهلهم بالله ، وانتهاكهم لحرمة أنبيائه ، وتمّردهم على أوامره : ﴿ **قُلْ فَلِمَ تَقْتُلونَ أنبياءَ اللهِ مِنْ قَبْلُ إن كُنتُم مُؤمِنينَ ؟ ..** ﴾ .

(١) تأمّل كيف أن هذا الانتقال كانت النفس قد استعدَّتْ له في آخر المرحلة السابقة ؛ إذ يفهم السامع من تكذيبهم بما يصدِّق كتابهم أنهم صاروا مكذبين بكتابهم نفسه ؛ وهل الذي يكذِّب مَن يُصدِّقك يبقى مصدّقاً لك ؟!

غير أن هذا المعنى إنما أُخذ استنباطاً من أقوالهم ، وإلزاماً لهم بمآل مذهبهم ، ولم يؤخذ بطريق مباشرٍ مِن واقع أحوالهم . فكانت هذه هي مهمة الرد الجديد .

وهكذا كانت كلمة ﴿ **مُصَدِّقاً لِما مَعَهُم** ﴾ مِغلاقاً لما قبلها مفتاحاً لما بعدها . وكانت آخرُ درجة في سُلَّم الغَرض الأول هي أوّلَ درجة في سُلَّم الغرض الثاني . فما أوثق هذا الالتحام بين أجزاء الكلام ! وما أرشد هذه القيادة للنفس بزمام البيان ، تدريجاً له على مدارجها ، وتنزيلاً له على قدر حاجتها ، وفي وقت تلك الحاجة ! فما هو إلا أن آنس تطلّع النفس واستشرافها من

= لما هو باقٍ في زمنهم) أو (مصدقاً لما عندهم) لما تم الإلزام وهذا من عجيب شأن القرآن : لا تبديل لكلماته [**دراز**] .

تلك الكلمة إلى غاية ، إذا هو قد استوى بها إلى تلك الغاية ووقفها عليها تامة كاملة .

(٢) وانظر كيف عدل بالإسناد[١] عن وضعه الأصلي وأعرض عن ذكر الكاسب الحقيقي لتلك الجرائم ، فلم يقل : (فلِم قَتل آباؤكم أنبياءَ الله ، واتخذوا العجل ، وقالوا سمعنا وعصينا ؟) ؛ إذ كان القول على هذا الوضع حجةً داحضةً في باديء الرأي . مثلها كمثل مُحَاجَّة الذئب للحَمَل في الأسطورة المشهورة[٢] فكان يحق لهم في جوابها أن يقولوا : (وما لنا ولآبائنا ؟ تلك أمة قد خلت ، ولا تزر وازرةٌ وزر أخرى) .

ولو زاد مثلاً : (وأنتم مثلهم ، قد تشابهت قلوبكم وقلوبهم) لجاء هذا التدارك بعد فوات الوقت ، ولَتراخى حبل الكلام وفترت قوته .

فكان اختصار الكلام على ما ترى – بوقفهم باديء ذي بدء في موقف الاتهام – إسراعاً بتسديد[٣] سهم الحجة إلى هدفها ، وتنبيهاً في الوقت نفسه على أنهم ذرية بعضها من بعض ، وأنهم سواسية في الجرم ، فعلى أيِّهم وضعت يدك فقد وضعتها على الجاني الأثيم ؛ لأنهم لا ينفكون عن الاستنان بسنة أسلافهم ، أو الرضى عن أفاعيلهم ، أو الانطواء على مثل مقاصدهم .

---

(١) الإسناد : هو في علم المعاني انضمام كلمة إلى أخرى على وجه يفيد الحكم بأحداهما (المُسْنَد) على الأخرى (المُسْنَد إليه) ثبوتاً أو نفياً ، نحو : زيد قائم – أفاد الحكم بالقيام على زيد ، ونحو : ليس محمد بكاذب – أفاد نفي الكذب عن محمد . وهنا في هذا الموضع لم يُسند الله جريمة قتل الأنبياء إلى أصحابها الحقيقيين وهم أجداد هؤلاء اليهود المخاطبون في عهد النبوة .

(٢) التي تزعم أن ذئباً عدا على حمل صغير بحجة أن أخاه أو أباه كان قد عكر عليه ماء القناة وهو يشرب منذ عام مضى . وهي تمثل عدوان القوي على الضعيف استناداً لأوهن الأسباب [دراز].

(٣) وهذا هو ما يسمى في المناظرة (بالتقريب) بين الدليل والمطلوب [دراز] .

(٣) وانظر كيف زاد هذا المعنى ترشيحاً[١] بإخراج الجريمة الأولى وهي جريمة القتل في صيغة الفعل المضارع تصويراً لها بصورة الأمر الواقع الآن ، كأنه بذلك يعرض علينا هؤلاء القوم أنفسهم وأيديهم ملوثة بتلك الدماء الزكية .

(٤) ولقد كان التعبير بهذه الصيغة مع ذكر الأنبياء بلفظ عام مما يفتح باباً من الإيحاش لقلب النبي العربي الكريم . وباباً من الإطماع لأعدائه في نجح تدابيرهم ومحاولاتهم لقتله[٢] . فانظر كيف أسعفنا بالاحتراس عن ذلك كله بقوله ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ فقطع بهذه الكلمة أطماعهم وثَبَّتَ بها قلب حبيبه ؛ إذ كانت بمثابة وعده إياه بعصمته من الناس . ذلك إلى ما فيها من تنبيه على أصل وضع الكلام وعلى ما صُنع به من التجوز المذكور آنفاً في الإسناد وفي الصيغة .

---

(١) ترشيحاً : تقويةً وإظهاراً .

(٢) وقد تعددت محاولات اليهود لاغتيال أو قتل رسول الله ﷺ ، فاقرأ في السيرة مثلاً :

* محاولة بني النضير إلقاء حجر رحى فوق رسول الله ﷺ حينما استند إلى جدار من جدرانهم ، وتآمرهم بذلك وسعيهم فيه دون أن يشعر أحد الصحابة ممن رافق رسول الله ﷺ بذلك ، فينزل الوحي على رسول الله ﷺ بالخبر ، فيقوم الرسول ﷺ كأنه يريد الغائط فيرجع إلى المدينة ويخبر المسلمين بذلك . مما يتسبب في إجلاء بني النضير جميعاً من المدينة بعد شفاعة ابن سلول فيهم .
* تآمر قريظة مع المشركين لفتح المدينة لهم كي يدخلوها ويبيدوا المسلمين ، ويظفروا برسول الله ﷺ ، هذا في غزوة الخندق . ولكن الله نصر المؤمنين على أحزاب المشركين ، وعذّب اليهود من قريظة بالقتل وسبي الذرية كما هو معروف .
* حتى نساء اليهود حاولن قتل رسول الله ﷺ ، ففي غزوة خيبر وبعد أن استقرّ فتحها بسيف المسلمين ، أهدت امرأة تدعى زينب شاةً مطبوخة لرسول الله ﷺ ، ووضعت فيها السمّ وأكثرت منه في ذراع الشاة ، لسماعها بحب رسول الله ﷺ لهذا الجزء من الشاة . وعندما همّ الرسول ﷺ بأكلها توقف وقال : إن هذه الذراع تخبرني بأنها مسمومة . وأقرت المرأة بذلك .

وغير هذه الحوادث كثير مما تفيض به كتب السيرة عن مواقف اليهود ضد الرسول ﷺ والمسلمين عموماً كما في : .... =

(٥) وانظر كيف جيء بالأفعال في الجرائم التالية على صيغة الماضي بعد أن وطّأ لها بهذه الكلمة : ﴿ **مِن قَبْلُ** ﴾ فاستقام التاريخ على وضعه الطبيعي حين لم تبق هناك حاجة إلى مثل التعبير الأول .

(٦) وانظر إلى الآداب العالية في عَرض الجريمة الثانية وهي جريمة الشرك ؛ فإنها لمّا كانت أغلظ من سابقتها وأشدَّ نُكراً في العقول ، نبّه على ذلك ألطف تنبيه بحذف أحد ركنيها ، فلم يقل اتخذتم العجل إلٰهاً ، بل طوى هذا المفعول الثاني استبشاعاً للتصريح به في صحبة الأول ، وبياناً لما بينهما من مفارقة .. وكم في هذا الحذف من تعبير وتهويل !! فربَّ صمت هو أنطق بالحكم ، وأنكى في الخصم .

(٧) ثم انظر إلى النواحي التي أوثر فيها الإجمال على التفصيل ، إعراضاً عن كل زيادة لا تمس إليها حاجة البيان في الحال ، فقد قال إن القرآن مصدق لما معهم ، ولم يبيّن مدى هذا التصديق : أفي أصول الدين فحسب ، أم في الأصول والفروع جميعاً ، أم في الأصول وبعض الفروع وإلى أي حد ؟ ذلك أن هذا كلام الملوك لا يتنزّل إلا بقدر معلوم . وماذا يَعني الداعي إلى أصل الإيمان أن يمتد التطابق بين الأديان إلى فروعها أو لا يمتد ؟ فليبحث علماء التشريع !

= * غزوة بني قينقاع ، وإيذائهم للمسلمين بالقول والفعل .
* تحريض قريش بعد بدر ، ورثاء كعب بن الأشرف وغيره لقتلى المشركين .
* التشبيب والغزل بنساء المسلمين في الأشعار .
* شاس بن قيس وفتنته بين الأوس والخزرج ، حتى كادوا أن يقتتلوا .
* إيواء سلام بن مشكم اليهودي لأبي سفيان ، ودلالته على عورات المسلمين في غزوة السويق .
* دور الوفد اليهودي في تأليب قريش وقبائل كنانة وغطفان وغيرها لغزو المسلمين في وقعة الخندق .
* الإيذاء من شياطين اليهود : كعب بن الأشرف – سلام بن أبي الحقيق – أبو عفك وغيرهم .

وقال إنهم يقتلون أنبياء الله . فمن هم أولئك الأنبياء ؟ ... ليبحث علماء التاريخ !

وقال إن موسى جاءهم بالبينات . فكم هي ؟ وما هي ؟

وقال إنه أخذ عليهم ميثاقهم . فعلى أي شيء كان الميثاق ؟

إن حكمة البيان القرآني لأجلّ من أن تعرض لهذه التفاصيل في مثل هذا الموضع . ولو ذُكرت هاهنا لكان مثلها مثل من يُسأل : لِم ضربتَ عبدك ؟ فيقول : لأنه ضرب غلاماً اسمه كذا واسم أبيه كذا وحِليتهِ كذا وولد في عام كذا . ألا ترى أن هذا زائد وكثير[1] ؟ .

(٨) ولو ذهبنا نتتبع سائر ما في هذه القطعة من اللطائف لخرجنا عن حد التمثيل والتنبيه الذي قصدنا إليه . فلنكتف بتوجيه نظرك فيها إلى سر دقيق لا تراه في كلام الناس . ذلك أن المرء إذا أهمه أمرٌ من الدفاع أو الإقناع أو غيرهما ، بدت على كلامه مَسحة الانفعال بأغراضه ، وكأن تأثيره بها في نفسك على قدر تأثره هو ، طبعاً أو تطبعاً ، فتكاد تحس بما يخالجه من المسرة في ظفره ومن الامتعاض في إخفاقه . بل تراه يكاد يهلك أسفاً لو أعرض الناس عن هداه إذا كان مؤمناً بقضيته ، مخلصاً في دعوته ، كما هو شأن الأنبياء عليهم السلام . أما هنا فإنك تلمح وراء الكلام قوة أعلى من أن تنفعل بهذه الأغراض ، قوة تؤثر ولا تتأثر ، تصف لك الحقائق خيرها وشرها في عِزّةِ مَن لا ينفعه خير ،

(١) ومن هنا عِيبَ على امرىء القيس تفصيله في غير موضع التفصيل – وذلك فيما هو معدود من أجود شعره – قوله :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل	بسقط اللوى بين الدخول فحومل
فتوضح فالمقراة	....

لم يقنع في وصف المنزل بقوله (بسقط اللوى) حتى حده بحدود أربعة . قال الباقلاني : (كأنه يريد بيع المنزل ، فيخشى إن أخلّ بحدٍ منه ، أن يكون بيعه فاسداً أو شرطه باطلًا !) [دراز] .

واقتدار من لا يضره شر .

هذا الطابَع من الكبرياء والعظمة تراه جلياً من خلال هذا الأسلوب المقتصد في حِجَاجه أخذاً ورداً ، المقتصد في وصفه مدحاً وقدحاً .

انظر إليه حين يجادل عن القرآن فلا يزيد في وصفه على هذه الكلمة :﴿ **هو الحق** ﴾. نعم إنها كلمة تملأ النفس ، ولكن هل تُشبعك أيها الإنسان تلك الكلمة إذا أردت أن تصف حقيقة من الحقائق التي تقتنع بها وتحب أن تُقنع بها الناس ؟

وانظر إليه بعد أن سجّل علي بني إسرائيل أفحش الفحش ، وهو وضعهم البقر الذي هو مثلٌ في البلادة موضع المعبود الأقدس ، وبعد أن وصف قسوة قلوبهم في تأبّيهم على أوامر الله مع حملهم عليها بالآيات الرهيبة ؛ فتراه لا يزيد على أن يقول في الأولى : إن هذا (ظلم) وفي الثانية : ﴿ **بئسما** ﴾صنعتم . أذلك كل ما تقابل به هذه الشناعات ؟ نعم إنهما كلمتان وافيتان بمقدار الجريمة لو فُهمتا على وجههما ، ولكن أين الألم وحرارة الاندفاع في الانتقام ؟ بل أين الإقذاع[1] والتشنيع ؟ وأين الإسراف والفجور الذي تراه في كلام الناس إذ أُحفِظوا بالنَّيل من مقامهم ؟

لِلَّه ما أعفَّ هذه الخصومة ! وما أعزَّ هذا الجناب وأغناه عن شكر الشاكرين وكفر الكافرين ! وتالله إن هذا كلام لا يصدر عن نفس بشر !

* * *

[القرآن إيجاز كله ، سواء مواضع إجماله ومواضع تفصيله]

قلنا إنَّ القرآن الكريم يستثمر دائماً برفقٍ أقلَّ ما يمكن من اللفظ في توليد أكثر ما يمكن من المعاني . أجل ؛ تلك ظاهرةٌ بارزةٌ فيه كله ؛ يستوي فيها مواضع

---

(١) الإقذاع : الفحش والسوء .

إجماله التي يسميها الناس مقام الإيجاز ، ومواضع تفصيله التي يسمونها مقام الإطناب . ولذلك نسميه إيجازاً كله[1] ؛ لأننا نراه في كلا المقامين لا يجاوز سبيل القصد ، ولا يميل إلى الإسراف ميلاً ما ، ونرى أن مراميه في كلا المقامين لا يمكن تأديتها كاملة العناصر والحلى بأقل من ألفاظه ولا بما يساويها . فليس فيه كلمة إلا هي مفتاحٌ لفائدة جليلة ، وليس فيه حرفٌ إلا جاء لمعنى .

---

(١) لما كان هذا اصطلاحاً جديداً نخالف به مصطلح القوم لم نر بداً من إيضاح سبب المخالفة : قسم علماء البلاغة الكلام إلى (مُساوٍ) و (مُوجز) و (مُطنب) . وعرفوا المساواة بأنها أداء المعنى بلفظٍ على قَدره ، والإيجاز بأنه أداء المعنى بلفظٍ ناقص عنه وافٍ به ، والإطناب بأنه أداء المعنى بلفظٍ زائدٍ عنه لفائدة . وجعلوا المقياس الذي يضبط به هذا التقسيم أمراً عرفياً أو وضعياً : فاعتبر السكاكي المقدار الذي يتكلم به أوساط الناس في محاوراتهم ومتعارف خطابهم ، هو ضابط المساواة . وهو القدر الذي لا يحمد منهم ولا يذم في باب البلاغة . فما نقص عنه مع الوفاء به فهو الإيجاز ، وما زاد عنه مع الإفادة فهو الإطناب . والكلام البليغ إنما يقع في هذين الطرفين . هذا محصول كلام السكاكي . وقد وافقه الذين جاءوا من بعده على هذا التقسيم ، إلا أن بعضهم رأى أن البناء على العرف فيه رد إلى الجهالة ، فجعل حد المساواة هو المقدار الذي يؤدي المعاني الأولية بالوضع من غير رعاية للمناسبات الزائدة على أصل المعنى .

وقد فهمنا من وضعهم التقسيم على هذا الأساس ، واعتبارهم المساواة بأحد هذين المقياسين المتحدين في المآل ، أنهم ظنوا أن العبارة التي تؤدى بها المعاني الأولية في لسان العوام تقع دائماً بين الإطالة والاختصار . وهذا ما لا دليل عليه في العرف ولا في الوضع ، أما الأول فإن العوام يتكلمون في المعنى الواحد باللفظ المطول تارة وبالمختصر تارة أخرى ، وإن لم يتحروا إصابة المحز في كل منها ، وأما الثاني فلأن اللفظ الذي وضع في اللغة لتأدية المعنى الأول مختلف ، فمنه ما يؤديه بوجه مجمل ، ومنه ما يؤديه بلفظ مفصل . وكل من الإجمال والتفصيل يتفاوت في نفسه تفاوتاً كثيراً ، فلا ينضبط منهما قدر يرجع إليه في معرفة الإيجاز والإطناب ، إذ ما من كلام وجيز إلا ويمكن تأدية معناه الإجمالي بأقل من لفظه أو بما يساويه وإن لم يغن غناءه ولم يوف وفاءه ، حتى المثل الذي عدوه علماً في الإيجاز وهو قوله تعالى ﴿ **ولكم في القصاص حياة** ... ﴾ [سورة البقرة الآية : ١٧٩] يمكن تأدية أصل معناه بقولك (انتقم تسلم) أو (اقتص تحيا) أو بالاكتفاء بكلمتين منه (القصاص حياة) ، بل فاتحة الكتاب الكريم التي جمعت مقاصد القرآن كلها في سبع آيات ، يمكن أداء =

= معانيها الأصلية في خمس كلمات : (نحمدك اللهم ونعبدك ، ونستعينك ونستهديك) وإن شئت ففي أقل من ذلك .

وكذلك يقال : ما من كلام مطنب إلا ويمكن تأدية معناه الوضعي مفصلاً في لفظ أطول منه ، فقوله تعالى : ﴿ **والحرمات قصاص ...** ﴾ [سورة البقرة الآية : ١٩٤] إيجاز ، وقد جاء بسطه في قوله تعالى : ﴿ **وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص** ﴾ [سورة المائدة الآية : ٤٥] وهذا الكلام على طوله يعد موجزاً إذا قيس إلى قولك في مثل معناه : (من قتل نفساً قُتل بها ، ومن فقأ عيناً فُقئت عينه ، ومن جدع أنفاً جُدع أنفه ، ومن جدع أذناً جُدعت أذنه ، ومن كسر سناً كُسرت سنه .. وإن شئت زدت : واليد باليد ، والإصبع بالإصبع ، والآمة بالآمة ، والموضحة بالموضحة .. وهلم جرّاً) . وقوله تعالى ﴿ **آمنّا باللهِ وما أُنزِلَ إلينا ومَا أُنزِلَ مِن قبل ...** ﴾ [سورة المائدة الآية : ٥٩] جاء معناه مبسوطاً في قوله ﴿ **آمنّا باللهِ ومَا أُنزِلَ إلينا وَمَا أُنزِلَ إلى إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاق ويعقوبَ والأسباطِ ومَا أُوتِيَ موسى وعيسى وما أُوتِيَ النبيونَ مِن رَبِّهم ...** ﴾ [سورة البقرة الآية : ١٣٦] وهذا المعنى يؤدى عادة بقولك : آمنا بالله وبالقرآن الذي أنزله الله إلينا ، وبالتوراة التي أنزلها الله على موسى ، وبالإنجيل الذي أنزله الله على عيسى ، وبالزبور الذي آتاه الله لداود ، وبالصحف التي آتاها الله لإبراهيم ... ولو شئت عددت الأسباط سبطاً سبطاً ، وذكرت سائر من قص الله علينا من النبيين في غير هذا الموضع . بل لو شاء الله لقص علينا من أنباء سائر الرسل ما لم يقصه علينا .

والقوم معترفون ضمناً بوجود هاتين المرتبتين في كلام العوام ، إذ قالوا إن مرتبتي الاختصار المخل والتطويل الممل ليستا من البلاغة في شيء . فإذا لم تكونا من كلام البلغاء ، كانتا البتة من كلام غير البلغاء . وإلا فكلام من تكونان ؟ وإذاً فلا تصلح المعاني الأولية ولا العبارات العامية مقياساً منضبطاً للوسط المفروض .

هذا وقد نشأ من قياسهم التوسط بالمقدار الذي تؤدى به المعاني الأولية في لسان العوام – بعد تسليم كونه وسطاً – أن جعلوا الفضيلة البيانية في هذا الباب مائلة أبداً إلى طرف النقص أو طرف الزيادة . وذلك عكس ما بنيت عليه قاعدة الفضائل من تبوئها مكاناً وسطاً بين الأطراف (ولقد تعجب إذا رأيتهم يرجعون ، فيدخلون المساواة في كلام الرجل البليغ إذا دعاه إليها داع ، كأن يكون كلامه مع العامة . ثم تزداد عجباً إذا رأيتهم يدخلونها في القرآن نفسه ، وهو كما علمت خطاب للعامة وللخاصة على السواء ، ويمثلونها بقوله =

....

= تعالى ﴿ **ولا يحيقُ المكرُ السيءُ إلا بأهلِهِ ..** ﴾ الآية [سورة فاطر الآية : ٤٣] على أن في هذه الكلمة إيجازاً بالحذف على اصطلاحهم نفسه ، إذ المعنى لا يحيق ضرر المكر وعاقبته) .

لهذا كله رأينا أن نضع للتقسيم وضعاً آخر نرد فيه الفضيلة إلى نصابها من الحد الوسط ، ونرجع فيه الذم إلى الطرفين . وذلك بجعل المقياس هو المقدار الذي يؤدى به المعنى بأكمله ، بأصله وحليته على حسب ما يدعو إليه المقام من إجمال أو تفصيل ؛ بغير إجحاف ولا إسراف . هذا القدر – الذي من نقص عنه أو زاد ، عده البلغاء حائداً عن الجادة بقدر ما نقص أو زاد – هو الميزان الصحيح الذي لك أن تسمي طرفيه بحق تقصيراً أو تطويلاً ، وأن تسميه هو بالمساواة أو القصد أو التوسط أو التقدير أو ما شئت فسمه . ونحن قد سميناه أيضاً باسم (الإيجاز) مطمئنين إلى صحة هذه التسمية ، إذ رأينا حد الإيجاز ينطبق عليه ، فما الإيجاز إلا السرعة والتخفيف في بلوغ الحاجة بالقدر الممكن ، فالذي يسرع فوق الطاقة لا يبلغك حاجتك فيكون مجحفاً مخلاً ، والذي يبطيء حيث تمكن السرعة لا يكون إلا مسرفاً مملاً . ورأينا الناس مازالوا يتواصون بهذه الوجازة في البيان ويجعلون خير الكلام ما قلّ ودلّ ، حتى رُوي عن سيد البلغاء صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله أنه قال لجرير بن عبد الله البجلي : « **يا جرير إذا قلت فأوجز ، وإذا بلغت حاجتك فلا تتكلف** » هكذا أحفظه ولا يحضرني الآن تخريجه . وما سمعنا أحداً يوصي بهذا الإطناب الذي عده المؤلفون فضيلة ثانية تقابل الإيجاز ، وإنما هو إحدي شعبتيه : الاختصار المفهم أو الإطناب المفخم . ولو سميناه فضيلة ثانية تقابله لخشينا أن تكون هذه المقابلة وحدها رخصة في التحلل من قيوده وتسامحاً في الإكثار الذي جاء ذمه بكل لسان ، حتى قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم : « ... **وإن أبغضكم إليّ وأبعدكم مني مجالس يوم القيامة أساوئكم أخلاقاً الثرثارون المتشدقون المتفيهقون** » رواه أحمد وابن حبان وغيرهما عن أبي ثعلبة . فلا وربك إنما هي فضيلة واحدة تطلب من المتكلم في كل مقام ، ويؤخذ بها في سعة التفصيل كما يؤخذ بها في ضيق الإجمال . بل لعلها في مقام التفصيل آكد طلباً وأصعب منالاً . فالكلام الطويل إن حوى كل جزء منه فائدة تمس إليها الحاجة في الموضع ، ولا يسهل أداء تلك الفائدة بأقل منه كان هو عين الإيجاز المطلوب ، وإن أمكن أداء الأغراض فيه كاملة بحذف شيء منه أو بإبداله بعبارة أخصر منه كان هو حشواً أو تطويلاً معيباً . والكلام القصير إن وفى بالمقاصد الأصلية والتكميلية المناسبة في الحال كان هو التوسط المطلوب ، وإلا كان بتراً أو تقصيراً معيباً .

وليس الإيجاز قاصراً على جانب الإجمال كما زعموا حتى بنوا عليه ما بنوا . وحتى =

[خلو القرآن من الكلمات المقحمة ، والحروف الزائدة]

دَعْ عنك قول الذي يقول في بعض الكلمات القرآنية إنها (مُقحَمة) وفي بعض حروفه إنها (زائدة) زيادة معنوية . ودعْ عنك قول الذي يستخف كلمة (التأكيد) فيرمي بها في كل موطن يظن فيه الزيادة ، لا يبالي أن تكون تلك الزيادة فيها معنى المزيد عليه فتصلحَ لتأكيده أوْ لا تكون ، ولا يبالي أن يكون بالموضع حاجةٌ إلى هذا التأكيد أوْ لا حاجة له به .

أجلْ ، دع عنك هذا وذاك ؛ فإن الحكم في القرآن بهذا الضرب من الزيادة

= أخرجوا منه مثل قوله تعالى : ﴿ **إنَّ في خلقِ السماواتِ والأرضِ واختلافِ الليلِ والنهارِ والفلكِ التي تجري في البحرِ ...** ﴾ [سورة البقرة الآية : ١٦٤] وجعلوها من باب الإطناب بحجة أنه يمكن إيجازها بهذه العبارة : (إن في ترجيح وقوع أي ممكنٍ كان على لا وقوعه لآيات للعقلاء – مفتاح العلوم) . وأنت فهل عهدت عربياً قط بليغاً أو غير بليغ تكلم بهذا التعبير الفلسفي الجاف القلق الذي افترضه السكاكي مقياساً للمساواة في معنى الآية .. كلا ، إنك لو رجعت إلى ما تكلم به الناس في آيات الله الكونية تفصيلاً أو إجمالاً لرأيت كلاماً عربياً صحيحاً أطول من هذا أو أقصر ، ولرأيت الآية الكريمة هي أوجز كلام وأحكم نظام في بابها من التفصيل ، كما أن قوله تعالى : ﴿ **قل انظروا ماذا في السماوات والأرض ...** ﴾ [سورة يونس الآية : ١١٠] هو أوجز كلام في بابه من الإجمال .

قلنا إن فضيلة الإيجاز بمعناه الصحيح هي الوسط المعتدل ، وهي الفضيلة الوحيدة التي تواصى بها البلغاء في كل مقام بحسبه . غير أنه ليس للإنسان ما تمنى فالمثل الكامل وإن تطاولت إليه أعناق الناس وتفاوتوا في طلبه قرباً وبعداً ، لا يستطيع أحد منهم أن يأتي على غايته . وإنما أتى عليها القرآن الحكيم ، فهو المثل الأعلى في حسن الإيجاز . كيف لا وهو حد الإعجاز [**دراز**] .

– **قلت** : حديث جرير : « **يا جرير إذا قلت ...** » لم أجده فيما تحت يدي من المراجع .

أما حديث « **إن أبغضكم إليّ ...** » فرواه أحمد ٤ / ١٩٣ ، ١٩٤ ، موارد الظمآن ١٩١٧ ، الإحسان ٤٨٢ ، وقد رواه الترمذي في البر والصلة ٢٠١٨ من حديث جابر ، وحسنه الألباني في الصحيحة ٢ / ٣٩٠ لشواهده ، وصححه الأرناءوط لشواهده أيضاً في الإحسان ٢ / ٢٣٢ .

أو شبهها إنما هو ضربٌ من الجهل - مستوراً أو مكشوفاً - بدقة الميزان الذي وُضِعَ عليه أسلوب القرآن .

وخذ نفسك أنت بالغوص في طلب أسراره البيانية على ضوء هذا المصباح . فإن عُمِّيَ عليك وجه الحكمة في كلمة منه أو حرف ، فإياك أن تعجل كما يعجل هؤلاء الظانون ؛ ولكن قل قولاً سديداً هو أدنى إلى الأمانة والإنصاف . قل : (اللهُ أعلم بأسرار كلامه ، ولا علم لنا إلا بتعليمه) . ثم إياك أن تركن إلى راحة اليأس فتقعد عن استجلاء تلك الأسرار قائلاً : أين أنا من فلان وفلان ؟ .. كلا ، فربَّ صغير مفضول قد فطن إلى ما لم يفطن له الكبير الفاضل . ألا ترى إلى قصة ابن عمر في الأُحْجِيَّة[1] المشهورة[2] ؟ فجِدَّ في الطلب وقل : رَبِّ زدني علماً ؛ فعسى اللهُ أن يفتح لك باباً من الفهم تكشف به شيئاً مما عُمِّيَ على غيرك . واللهُ وليّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور .

[سر الكاف في قوله تعالى: ﴿ ليس كمثله شيء ﴾]

ولنضرب لك مثلاً . قوله تعالى : ﴿ ليسَ كمِثْلِهِ شيءٌ ﴾

[سورة الشورى الآية : ١١] .

---

(١) الأُحْجِيَّة : السؤال أو الأغلوطة مما يحتاج إلى فطنة المستمع ليعرف الجواب الصائب .

(٢) « **قرأ النبي ﷺ قوله تعالى ﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة ... ﴾** [سورة إبراهيم الآية : ٢٤] **وقال : إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها ، وإنها مثل المسلم فحدثوني ما هي ؟ فخفي على القوم علمها ، وجعلوا يذكرون أنواعاً من شجر البادية . وفهم ابن عمر أنها النخلة ، وكان عاشر عشرة هو أحدثهم سناً وفيهم أبو بكر وعمر . فقال ﷺ : هي النخلة** » الحديث رواه الشيخان . وفي القرآن **﴿ ففهمناها سليمان ... ﴾** الآية [سورة الأنبياء الآية : ٧٩] [**دراز**] .

- **قلت** : رواه البخاري في العلم ٦١ ، ٦٢ وفي التفسير ٤٦٩٨ ، ومسلم في صفات المنافقين وأحكامهم ٦٣ ، ٦٤ ، ولم ترد في الصحيحين قراءة الآية في بداية الحديث ، ولكن ذكر الحافظ في الفتح ١ / ١٧٧ أنها عند البزار .

(أكثر) أهل العلم قد ترادفت كلمتهم على زيادة الكاف ، بل على وجوب زيادتها في هذه الجملة ، فراراً من المحال العقلي الذي يُفضي إليه بقاؤها على معناها الأصلي من التشبيه ؛ إذ رأوا أنها حينئذ تكون نافيةَ الشبيه عن مِثل الله ، فتكون تسليماً بثبوت المِثْل له سبحانه ، أو على الأقل محتملة لثبوته وانتفائه ؛ لأن السالبة – كما يقول علماء المنطق – تَصْدُق بعدم الموضوع . أو[1] لأن النفي – كما يقول علماء النحو – قد يوجَّه إلى المقيَّد وقيده جميعاً . تقول : (ليس لفلان ولدٌ يعاونه) إذا لم يكن له ولد قط أو كان له ولد لا يعاونه . وتقول : (ليس محمداً أخاً لعلي) إذا كان أخاً لغير علي أو لم يكن أخاً لأحد .

(وقليل منهم) من ذهب إلى أنه لا بأس ببقائها على أصلها ؛ إذ رأى أنها لا تؤدي إلى ذلك المحال لا نصّاً ولا احتمالاً . لأن نفي مثل المثل يتبعه في العقل نفي المثل أيضاً .

وذلك أنه لو كان هناك مثلٌ لله لكان لهذا المثل مثلٌ قطعاً وهو الإِلٰه الحق نفسه ، فإن كل متماثلين يُعَدُّ كلاهما مِثلاً لصاحبه . وإذاً لا يتم انتفاء مِثل المِثل إلا بانتفاء المِثل وهو المطلوب .

وقصارى هذا التوجيه – لو تأملته – أنه مُصحِّح لا مُرجِّح ، أي أنه ينفي الضرر عن هذا الحرف ، ولكنه لا يثبت فائدته ولا يبين مسيس الحاجة إليه ؛ ألست ترى أن مؤدى الكلام معه كمؤداه بدونه سواء ، وأنه إن كان قد ازداد به شيئاً ، فإنما ازداد شيئاً من التكلف والدوران ، وضرباً من التعمية والتعقيد . وهل سبيله إلَّا سبيل الذي أراد أن يقول : (هذا فلان) ، فقال : (هذا ابنُ أختِ خالةِ فلان) ؟ فمآله إذاً إلى القول بالزيادة التي يسترونها باسم

---

(١) هذا الترديد مبني على اعتبار مضمون الجملة أو منطوقها . فعلى الأول يقع المثل موضوعاً ، لأنها في قوة قولنا : (مثله ليس له مثل) . وعلى الثاني يبقى في المحمول لأنه واقع في خبر ليس [دراز] .

التأكيد ، ذلك الاسم الذي لا تعرف له مسمى هاهنا ؛ فإن تأكيد المماثلة ليس مقصوداً ألبتة ، وتأكيد النفي بحرف يدل على التشبيه هو من الإحالة بمكان .

ولو رجعت إلى نفسك قليلاً لرأيت هذا الحرف في موقعه محتفظاً بقوة دلالته ، قائماً بقسط جليل من المعنى المقصود في جملته ، وأنه لو سقط منها لسقطت معه دعامة المعنى أو لَتهدم ركن من أركانه . ونحن نبين لك هذا من طريقين ، أحدهما أدق مسلكاً من الآخر :

(**الطريق الأول**) : وهو أدني الطريقين إلى فهم الجمهور ، أنه لو قيل (ليس مثله شيء) لكان ذلك نفياً للمثل المكافيء ، وهو المثل التامّ المماثلةِ فحسب ؛ إذ أن هذا المعنى هو الذي ينساق إليه الفهم من لفظ المثل عند إطلاقه . وإذاً لدبَّ إلى النفس دبيب الوساوس والأوهام : أنْ لعلّ هنالك رتبةً لا تضارع رتبة الألوهية ولكنها تليها ، وأنْ عسى أن تكون هذه المنزلة للملائكة والأنبياء ، أو للكواكب وقوى الطبيعة ، أو للجن والأوثان والكهان . فيكون لهم بالإلٰه الحقّ شبهٌ ما في قدرته أو علمه ، وشركٌ ما في خلقه أو أمره .. فكان وضعُ هذا الحرف في الكلام إقصاءً للعالم كله عن المماثلة وعما يشبه المماثلة وما يدنو منها ، كأنه قيل : ليس هناك شيء يشبه أن يكون مِثلاً لله ، فضلاً عن أن يكون مِثلاً له على الحقيقة . وهذا باب من التنبيه بالأدنى على الأعلى ، على حد قوله تعالى : ﴿ **فَلا تَقُل لَهُما أُفٍّ ولاَ تَنْهَرْهُمَا** ﴾ [سورة الإسراء الآية : ٢٣] نهياً عن يسير الأذى صريحاً ، وعما فوق اليسير بطريق الأحرى .

(**الطريق الثاني**) : وهو أدقهما مسلكاً ، أن المقصود الأوَّلي مِن هذه الجملة وهو نفي الشبيه ، وإن كان يكفي لأدائه أن يقال : (ليس كالله شيء) أو (ليس مثلَه شيء) ، لكن هذا القدر ليس هو كلَّ ما ترمي إليه الآية الكريمة ، بل إنها كما تريد أن تعطيك هذا الحكم تريد في الوقت نفسه أن تَلفتك إلى وجه حجته وطريقِ برهانه العقلي .

ألا ترى أنك إذا أردت أن تنفي عن امريء نقيصةً في خُلقه فقلت:(فلان لا يكذب ولا يبخل) أخرجت كلامك عنه مخرج الدعوى المجردة عن دليلها . فإذا زدت فيه كلمة فقلت : (مثل فلان لا يكذب ولا يبخل) لم تكن بذلك مشيراً إلى شخص آخر يماثله مبرأ من تلك النقائص ، بل كان هذا تبرئة له هو ببرهان كلي ، وهو أن من يكون على مثل صفاته وشيَمِه الكريمة لا يكون كذلك ؛ لوجود التنافي بين طبيعة هذه الصفات وبين ذلك النقص الموهوم .

على هذا المنهج البليغ وضعت الآية الحكيمة قائلة : (مثله تعالى لا يكون له مثل) . تعني أن من كانت له تلك الصفات الحسنى وذلك المَثل الأعلى لا يمكن أن يكون له شبيه ، ولا يتسع الوجود لاثنين من جنسه . فلا جَرَم جيء فيها بلفظين كل واحد منهما يؤدي معنى المماثلة ؛ ليقوم أحدهما ركناً في الدعوى ، والآخر دعامةً لها وبرهاناً . فالتشبيه المدلول عليه (بالكاف) لمّا تَصَوَّبَ إليه النفي تأدّى به أصل التوحيد المطلوب ؛ ولفظ (المثل) المصرح به في مقام لفظ الجلالة أو ضميره نبّه على برهان ذلك المطلوب .

واعلم أن البرهان الذي ترشد إليه الآية على هذه الوجه برهانٌ طريف في إثبات وحدة الصانع لا نعلم أحداً من علماء الكلام حام حوله ؛ فكل براهينهم في الوحدانية قائمة على إبطال التعدد بإبطال لوازمه وآثاره العملية . حسبما أرشد إليه قوله تعالى : ﴿ **لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا** ﴾[1]

[سورة الأنبياء الآية : ٢٢] .

أما آية الشورى المذكورة فإنها ناظرةٌ إلى معنى وراء ذلك ينقض فرض التعدد من أساسه ، ويقرّر استحالته الذاتية في نفسه بقطع النظر عن تلك الآثار فكأننا بها تقول لنا : —

---

(١) ونحن نلخص لك هنا وجوه استدلالهم في نسق واحد ، لتتبين أنها كلها قائمة على أساس المعنى المستنبط من هذه الآية ، وهو أن تعدد الآلهة المستجمعة لشرائط الإلٰهية =

= يقتضي :

* إما عدم وجود شيء من المخلوقات ، وذلك هو فسادها في آن الإيجاد .

* وإما وجودها على وجه التفاوت والاختلاف المؤدي إلى فسادها غِبّ الإيجاد .

ذلك أنه لو توجهت إرادة الإلهين إلى شيء واحد لتعذر عليهما إحداثه ، لاستحالة صدور أثر واحد عن مؤثرين . والقول بصدوره عن قدرة أحدهما مع استوائهما في القدرة وفي توجه القصد ترجيح بلا مرجح . ولو توجهت إرادة أحدهما إلى شيء وإرادة الآخر إلى نقيضه لم يمكن إحداثهما ، وإلا لاجتمع النقيضان . وإحداث أحدهما دون الآخر يلزمه الرجحان المذكور . ولو توجهت إرادة أحدهما إلى بعض الخلق والآخر إلى بعضه ، إذاً لذهب كل إله بما خلق ، ولكان هناك عالمان مختلفا النظام فلا يلبث أن يطغى بعضهما على بعض حتى يتماحقا . وكل أولئك باطل بالمشاهدة ، إذ نرى العالم قد وُجِدَ غير فاسد واستمر غير فاسد ، ونراه بجميع أجزائه وعلى اختلاف عناصره وأوضاعه علواً وسفلاً وخيراً وشراً ، يؤدي وظيفة جسم واحد تتعاون أعضاؤه بوظائفها المختلفة على تحصيل غرض واحد . وهذه الوحدة في نظام الأفعال دليل على وحدة الفاعل المنظم لها جل شأنه [دراز] .

تعليق لابد منه لبيان إفساد

الفلسفة والمنطق والكلام لسماحة الإسلام ويسره

مما يؤلم النفس ويضيق به الصدر ، أن كثيراً من علماء هذه الأمة – بدلاً من توجيه جلّ وقتهم وأعظم جهدهم إلى القرآن الكريم والتفكر في آياته واستنباط معانيها المكنونة وفهم أمثالها المضروبة لأولي الألباب ، واستخراج قواعد العقيدة من القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة – قد انصرفوا إلى الفلسفة والمنطق اليوناني ، وحاولوا تسخيرها لخدمة الإسلام – بزعمهم – ورغم أن هذا قد كان منهم بنيةٍ حسنة غالباً ، إلا أن دخول الفلسفة والمنطق اليوناني إلى علم التوحيد ، وتبني هؤلاء العلماء للدفاع عن الإسلام بهذه البراهين المنطقية المبنية على منطق اليونان قد جرّ الوبال على الأمة من عدة نواحٍ ، أهمها :

١ – صرف النفوس عن الاهتمام بالتوحيد الذي أُرسِلت به جميع الرسل : وهو توحيد الله بالعبادة ونبذ كل ما يعبد من دونه ، والكفر بالطواغيت والآلهة التي عبدها الكفار والمشركون من دون الله . فمن تتبع كلام المتكلمين والفلاسفة وجد أنهم يصرفون كل جهودهم لإثبات وجود الخالق . ولا يعيرون اهتماماً لتوحيد العبادة هذا برغم أنه هو الذي بُعِثَ به جميع الرسل . وقد أهلك الله الأمم السابقة =

= ممن كابروا وعاندوا رسلهم عندما دعوهم لعبادة الله وحده ، وأما إثبات وجود الخالق ، فلم يكن فيه منازعة حتى عند عباد الأوثان من العرب الذين قال الله فيهم : ﴿ **ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله** .. ﴾ [سورة العنكبوت الآية : ٦١] وإنما كان شركهم اتخاذ الوسائط لتقربهم إلى الله بزعمهم . وهذه القضية لا تكاد تجد لها أثراً في كتابات المتكلمين .

٢ - صرف النظر عن البراهين القرآنية سهلة المداخل إلى النفوس ، والانصراف إلى التكلفات المنطقية عويصة الفهم مما أثر في تعقيد العقيدة الإسلامية . ولله در ابن تيمية حيث يقول : (إدخال صناعة المنطق في العلوم الصحيحة يطَوِّل العبارة ويبعد الإشارة ، ويجعل القريب من العلم بعيداً ، واليسير منه عسيراً . ولهذا تجد من أدخله في الخلاف والكلام وأصول الفقه وغير ذلك ، لم يفد إلا كثرة الكلام والتشقيق ، مع قلة العلم والتحقيق) . نقض المنطق ص ١٦٩ ، مجموع الفتاوى ٩ / ٢٤ . وقال أيضاً رحمه الله : (المنطق اليوناني لا يحتاج إليه الذكي ، ولا ينتفع به البليد) مجموع الفتاوى ٩ / ٨٢ .

٣ - ابتعاد كثير من طلبة العلم والعلماء عن الاستقاء المباشر من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، والتماس الهدى في منطق اليونان الذين لم ينزل عليهم وحي إلٰهي ولم يستضيئوا بنور النبوة .

٤ - تفريق الأمة الإسلامية : حيث إن غالب البدع والضلالات والأهواء التي ظهرت في تاريخ الإسلام كانت بسبب الفلسفة ومنطق اليونان ، إما ابتداعاً وإما تثبيتاً وتقعيداً ، وبسبب محاولة أصحاب الأهواء للجمع بين الإسلام وهذه السخافات . مما أدى لتفريق الأمة وإراقة الدماء وهياج الفتن . وهذا أبو حامد الغزالي يشهد بما تولد من (فتح باب الخوض في الكلام ، من التعصبات الفاحشة والخصومات الفاشية ، المفضية إلى إهراق الدم وتخريب البلاد) أهـ . إحياء علوم الدين ١/٧١ .

٥ - تحويل دين الله وخاصة العقيدة إلى مجموعة من الطلاسم والألغاز لا يفهمها إلا من انكب عليها دارساً لمنطق اليونان . مما أدى لتفلسف كثير من العلماء وغوصهم في المنطق اليوناني ، مما أثر على كتاباتهم وكلماتهم فأصبحت سقيمة ثقيلة معقدة ممجوجة ، وهذا بدوره أدى إلى انفصال العلماء عن عوام المسلمين ممن لا شأن لهم بالمنطق ، وبعد أن كان الجميع يفهم كلام الله وكلام رسوله ﷺ ، اقتصر العلم على العلماء المتخصصين المناطقة ، وأصبح العلماء يكتبون ويدرسون لأنفسهم ، وعوام =

= المسلمين في وادٍ آخر لا شأن لهم بهم إطلاقاً مما زاد الجهل عند الأمة .

٦ – تبديد الجهود فيما لا طائل منه إيمانياً ، والانصراف عن التزكية والعمل الصالح ونشر الكتاب والسنة ، كما كان دأب سلف الأمة ، واستبدالها بالقياسات والخلافات والفلسفات وخبط العشواء في تيه الضلالات المسمى بالفلسفة ، بلا هدي من نور الوحي الإلـهي .

٧ – مخالفة نصيحة الأئمة بالابتعاد عن الكلام والأهواء :

قال الإمام الشافعي :

* لقد اطلعت من أهل الكلام على شيء والله ما توهمته قط ، ولأن يُبتلى المرء بجميع ما نهى الله عنه ما خلا الشرك بالله ، خيرٌ من أن يبتليه الله بالكلام .
* كل متكلم على الكتاب والسنة فهو الحدّ الذي يجب ، وكل متكلم على غير أصل كتاب ولا سنة فهو هذيان .
* حكمي في أهل الكلام أن يُضربوا بالجريد ، ويُحملوا على الإبل ، ويُطاف بهم في العشائر والقبائل ، ويُنادى عليهم : هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على الكلام . (مناقب الشافعي : البيهقي ١ / ٤٥٢ – ٤٧٠) .

وقال الإمام أحمد :

من أحب الكلام لم يفلح ، لأنه يئول أمرهم إلى حيرة ، عليكم بالسنة والحديث ، وإياكم والخوض في الجدال والمراء . أدركنا الناس وما يعرفون هذا الكلام . عاقبة الكلام لا تئول إلى خير . (سير أعلام النبلاء ١١ / ٢٩١) .

وقال الغزالي (في حكم تعلم الجدل والكلام) :

وإلى التحريم ذهب الشافعي ومالك وأحمد بن حنبل وسفيان وجميع أهل الحديث من السلف ... ولا ينحصر ما نقل عنهم من التشديدات فيه [ثم ذكر حجة القائلين بحمد الكلام ثم قال] إن فيه منفعة وفيه مضرة ، فهو باعتبار منفعته في وقت الانتفاع حلال أو مندوب إليه أو واجب كما يقتضيه الحال ، وهو باعتبار مضرته في وقت الاستضرار ومحله حرام . أما مضرته فإثارة الشبهات وتحريك العقائد وإزالتها عن الجزم والتصميم ، فذلك مما يحصل في الابتداء [أي ابتداء تعلم الكلام] ، ورجوعها [أي العقائد] بالدليل مشكوك فيه ، ويختلف فيه الأشخاص . فهذا ضرره في الاعتقاد الحق . وله ضرر آخر في تأكيد اعتقاد المبتدعة للبدعة ، وتثبيته في صدورهم ، بحيث تنبعث دواعيهم ويشتد حرصهم على الإصرار عليه ... وأما منفعته فقد يُظَن أن فائدته كشف الحقائق ومعرفتها على ما هي =

= عليه ، وهيهات ، فليس في الكلام وفاء بهذا المطلب الشريف ، ولعل التخبيط والتضليل فيه أكثر من الكشف والتعريف ... فاسمع هذا ممن خَبَرَ الكلام ثم قلاه بعد حقيقة الخبرة وبعد التغلل فيه إلى منتهى درجة المتكلمين (إحياء علوم الدين ١ / ١٦٣ وما بعدها) .
- **قلت** : وكفى بهذه النصيحة ممن يُعد من أساطين علم الكلام وأحد أذكياء العالم .
* وقال العلامة ابن أبي العز [عقب نقل كلام الغزالي السابق] :
وسبب الإضلال : الإعراض عن تدبر كلام الله وكلام رسوله ، والاشتغال بكلام اليونان والآراء المختلفة ، وإنما سُمِّي هؤلاء : أهل الكلام ، لأنهم لم يفيدوا علماً لم يكن معروفاً ، وإنما أتوا بزيادة كلام قد لا يفيد ، وهو ما يضربونه من القياس لإيضاح ما عُلِمَ بالحِسّ (الطحاوية ٢٠٧) .
وأخيراً فإن الناظر أو الدارس لمذهب أو طائفة ، عليه أن ينظر إلى هديهم في أنفسهم ، وآثارهم في غيرهم ، فلو تأملنا بعض كلمات هؤلاء المتكلمين والفلاسفة لرأينا العجب فمن صفاتهم باعترافاتهم على أنفسهم :

أ - التحير والاضطراب والتخبط ، وعدم تحصيل شيء من العلم النافع :

* قال أبو عبد الله الشهرستاني : إنه لم يجد عند الفلاسفة والمتكلمين إلا الحيرة والندم ، حيث قال :

لعمري لقد طفت المعاهد كلها ... وسيرت طرفي بين تلك المعالم
فلم أرَ إلا واضعاً كفَّ حائرٍ ... على ذقنٍ أو قارعاً سنَّ نادم

(الطحاوية ٢٠٩) .

* وقال الرازي :

نهاية إقدام العقول عقال ... وغاية سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسومنا ... وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أن جمعنا فيه: قيل وقالوا

(الطحاوية ٢٠٨) .

* وقال شمس الدين الخسروشاهي [وهو من أجلّ تلامذة الرازي] :
وسأل بعضَ الفضلاء ممن دخل عليه : ما تعتقده ؟ قال : ما يعتقده المسلمون ، فقال : وأنت منشرح الصدر لذلك مستيقن به ؟ فقال : نعم . فقال : اشكر الله على هذه النعمة ، لكني والله ما أدري ما أعتقد . والله ما أدري ما أعتقد . والله ما أدري ما أعتقد . =

= وبكى حتى أخضل لحيته (الطحاوية ٢٠٩) .
* وقال الخونجي عند موته :
ما عرفت مما حصلته شيئاً سوى أن الممكن يفتقر إلى المرجح ، ثم قال : الافتقار وصف سلبي ، أموت وما عرفت شيئاً (الطحاوية ٢٠٩) .
* وقال ابن واصل الحموي [وكان من أبرعهم في الفلسفة والكلام] :
أستلقي على قفاي ، وأضع الملحفة على نصف وجهي ، ثم أذكر المقالات ، وحجج هؤلاء وهؤلاء ، واعتراض هؤلاء وهؤلاء ، حتى يطلع الفجر ولم يترجح عندي شيء . (نقض المنطق ٢٦) .
– فقال ابن أبي العز الحنفي رحمه الله تعليقاً على هذا : ومن يصل إلى مثل هذه الحال ، إن لم يتداركه الله برحمته وإلا تزندق ، كما قال أبو يوسف : من طلب الدين بالكلام تزندق (الطحاوية ٢٠٩) .

ب – ضعف اليقين ، ووهن العقيدة ، والشك عند الموت :

* قال الغزالي :
– أكثر الناس شكاً عند الموت : أهل الكلام (نقض المنطق ٢٥) .
– الإيمان المستفاد من الدليل الكلامي ضعيف جداً ، مشرف على التزاول بكل شبهة . (الغزالي والتصوف ٥٣) .
– فَقِسْ عقيدة أهل الصلاح والتقى من عوام الناس بعقيدة المتكلمين والمجادلين ، فترى اعتقاد العامي في الثبات كالطود الشامخ لا تحركه الدواهي والصواعق . وعقيدة المتكلم الحارسِ اعتقادَه بتقسيمات الجدل كخيطٍ مُرسَلٍ في الهواء تُفَيِّئُه [تميله] الرياح مرةً هكذا ومرةً هكذا . (إحياء علوم الدين ١ / ١٦٢) .

ج – الندم على تضييع العمر في الكلام والفلسفة :

وقد يتدارك الله برحمته منهم من يشاء ، فيعودون قبيل وفاتهم إلى الإسلام السمح ، وينطلقون محذرين تلاميذهم وإخوانهم ، صارخين فيهم مثلما :
* قال أبو المعالي الجويني [أستاذ الغزالي] :
يا أصحابنا لا تشتغلوا بالكلام ، فلو عرفت أن الكلام يبلغ بي إلى ما بلغ ما اشتغلت به أهـ . وقال عند موته : لقد خضت البحر الخضم ، وخليت أهل الإسلام وعلومهم ، ودخلت في الذي نهوني عنه ، والآن فإن لم يتداركني ربي برحمته فالويل لابن الجويني ، =

إن حقيقة الإلٰه ليست من تلك الحقائق التي تقبل التعدد والاشتراك والتماثل في مفهومها . كلا ، فإن الذي يقبل ذلك إنما هو الكمال الإضافي الناقص ، أما الكمال التام المطلق – الذي هو قوام معنى الإلٰهية – فإن حقيقته تأبى على العقل أن يقبل فيها المشابهة والاثْنَيْنِيّة ؛ لأنك مهما حققتَ معنى الإلٰهية حققت تقدّماً على كل شيء وإنشاءً لكل شيء : ﴿ **فَاطِرِ السماوات والأرضِ** ﴾ [سورة الشورى الآية : ١١] ، وحققتَ سلطاناً على كل شيء وعلوّاً فوق كل شيء :﴿ **لَهُ مَقالِيدُ السماوات والأرضِ** ﴾ [سورة الشورى الآية : ١٢] . فلو ذهبت تفترض

= وها أنا ذا أموت على عقيدة أمي – أو قال : على عقيدة عجائز نيسابور .
(الطحاوية ٢٠٩ ، صون المنطق والكلام ٢٣٦ ، ٢٣٧) .
* وقال الرازي [صاحب الأبيات المتقدمة] :
... لقد تأملت الطرق الكلامية ، والمناهج الفلسفية ، فما رأيتها تشفي عليلاً ، ولا تُروي غليلاً ، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن ، أقرأ في الإثبات : ﴿ **الرحمن على العرش استوى** ﴾ [سورة طه الآية : ٥] ، ﴿ **إليه يصعد الكلم الطيب** ﴾ [سورة فاطر الآية : ١٠] ، واقرأ في النفي : ﴿ **ليس كمثله شيء** ﴾ [سورة الشورى الآية : ١١] ، ﴿ **ولا يحيطون به علماً** ﴾ [سورة طه الآية : ١١٠] ... ومن جرب مثل تجربتي ، عرف مثل معرفتي .
(الطحاوية ٢٠٨ ، سير أعلام النبلاء ٢١ / ٥٠١ ، البداية والنهاية ١٣ / ٦١) .
* وكذلك نُقِل عن الغزالي في آخر عمره .
قال تلميذه عبد الغافر الفارسي : (وكانت خاتمة أمره : إقباله على حديث المصطفى ومجالسة أهله ، ومطالعة الصحيحين – البخاري ومسلم – اللذين هما حجة الإسلام) .
(الغزالي والتصوف ص ٤٢٨) .
وكذلك قال ابن تيمية عنه (.. ومال إلى طريقة أهل الحديث ، فمات وهو يشتغل بالبخاري ومسلم) (الغزالي والتصوف ص ٤٣٠) .
– وبالطبع فإن هذه الكلمات غنية عن التعليق ، فهي صادرة ممن خاض التجربة القاسية ، وخَبَرَ الكلام والفلسفة ، فإن زهد فيها وقلاها لم يكن بمتهم في نفسه ولا علمه ، ولا يُظن به عجز عن هذا المنطق الملتوي ، فكلهم من أساطين الكلام وعظماء المتكلمين ، فليست هذه الكلمات بل الصرخات منهم إلا نصيحة إيمانية لإخوانهم وتلاميذهم ... وكفى بها وأنعم من نصيحة ... يا ليتها وجدت آذاناً صاغية وقلوباً واعية .

اثنين يشتركان في هذه الصفات لتناقضتَ ؛ إذ تجعل كل واحد منهما سابقاً مسبوقاً ، مُنشِئاً مُنشَئاً . ومستعلياً مستعلىً عليه . أوْ لأحلت الكمال المطلق إلى كمال مقيد فيهما ؛ إذ تجعل كل واحد منهما بالإضافة إلى صاحبه ليس سابقاً ولا مستعلياً . فأنّى يكون كلٌّ منهما إلٰهاً وللإلٰه المَثَلُ الأعلى ؟!

أرأيت كم أفدنا من هذه (الكاف) وجوهاً من المعاني كلُّها شافٍ كافٍ ؟

فاحفظ هذا المثال وتعرَّف به دقة الميزان الذي وُضع عليه النظم الحكيم حرفاً حرفاً .

* * *

[الإيجاز بالحذف مع الوضوح والطلاوة]

وبعد فإن سرَّ الإيجاز في القرآن لا يقف عند الحدّ الذي أشرنا إليه ، من اجتناب الحشو والفضول بَتَّةً ، وانتقاء الألفاظ الجامعة المانعة التي هي – بطبيعتها اللغوية – أتم تحديداً للغرض ، وأعظم اتساعاً لمعانيه المناسبة . لا ؛ بل إنه كثيراً ما يسلك في إيجازه سبيلاً أعز وأعجب .

فلقد تراه يعمد – بعد حذف فضول الكلام وزوائده – إلى حذف شيء من أصوله وأركانه التي لا يتم الكلام في العادة بدونها ، ولا يستقيم المعنى إلا بها ، ولقد يتناول بهذ الحذف كلماتٍ وجملاً كثيرة متلاحقة ومتفرقة في القطعة الواحدة ، ثم تراه في الوقت نفسه يستثمر تلك البقية الباقية من اللفظ في تأدية المعنى كله بجلاء ووضوح ، وفي طلاوة وعذوبة ، حتى يخيل إليك من سهولة مسلك[1] المعنى في لفظه أن لفظه أوسع منه قليلاً .

---

(١) هذه كلمة تمثيلية أردنا بها أن نصور هذا الأثر البياني في مثال من الصناعات اليدوية . ذلك أنك ترى الخياط الماهر يتنفع باليسير من البَزّ فيجعل منه حلة حسنة ؛ مقدرةً على الجسم تقديراً ، بل إنها لسهولة مسلك الأعضاء فيها تحسبها ضافية . بينما غيره لا يحسن =

فإذا ما طلبتَ سِرَّ ذلك رأيته قد أودع معنى تلك الكلمات أو الجمل المطوية في كلمة هنا وحرف هناك، ثم أدار الأسلوب إدارة عجيبة وأَمَرَّ عليها جَنْدَرَة[1] البيان بيدٍ صَنَاع، فأحكم بها خلقه وسوَّاه[2]. ثم نفخ فيه من روحه فإذا هو مصقولٌ أملس، وإذا هو نَيِّرٌ مشرق، لا تشعر النفس بما كان فيه من حذفٍ وطَيٍّ، ولا بما صار إليه من استغناء واكتفاء، إلا بعد تأمل وفحص دقيق.

لا نُكران أن العرب كانت تعرف شيئًا من الحذف في كلامها، وترى ذلك من الفضيلة البيانية متى قامت الدلائل اللائحة على ذلك المحذوف ولو كان من أجزاء الجملة ومقوماتها. فإذا قيل للعربي: أين أخوك؟ قال: في الدار. وإذا قيل له: من في الدار؟ قال: أخي. ولو قال: أخي في الدار، لعدَّ ذلك منه ضربًا من اللغو والحشو. لكن الشأو[3] الذي بلغه القرآن في هذا الباب ـ كغيره من أبواب البلاغة ـ ليس في متناول الألسنة والأقلام، ولا في متناول الأمانيّ والأحلام.

[تطبيق على آية كريمة]

خذ لذلك مثلاً قوله تعالى: ﴿ **وَلَو يُعَجِّلُ اللهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالخَيرِ لَقُضِيَ إِلَيهِم أَجَلُهُم .. فَنَـذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَـاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ** ﴾ [سورة يونس الآية: ١١] .

الآية مَسُوقةٌ في شأن منكري البعث، الذين قال لهم النبي: إني رسول الله إليكم، وإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. فقالوا متهكمين: ﴿ **اللَّهُمَّ**

= الانتفاع بهذا القدر ، ولا بأكثر منه فيخرجه لباسًا ضيقًا حَرَجًا. ذلك مثل صناعة الإيجاز القرآني بالقياس إلى كلام الناس [دراز] .

(١) جَنْدَرَة: إعادة، وجَنْدَرَ الكتاب: أَمَرَّ القلم على ما انمحى منه.

(٢) لئن كان هذا يوهم القول بخلق القرآن؛ إلا أن المعرفة بالشيخ وردوده على المعتزلة، كما سبق في قضية الصِّرفة حيث سفَّه عقولهم وطعن في درايتهم بالعربية؛ كل هذا يوجب علينا إحسان الظن والقولِ بأن هذه الكلمات جاءت من باب سبق القلم وتدفق الذهن البلاغي لإظهار إحكام القرآن وبلاغته فحسب.

(٣) الشأو: الغاية والأمد.

إن كانَ هَذَا هوَ الحقَّ مِنْ عِندِكَ فأمْطِرْ عَلينا حِجارةً مِن السماءِ أو ائتِنا بعذابٍ أليمٍ ﴾ [سورة الأنفال الآية : ٣٢] . فلمّا لم يُجبهم الله إلى اقتراحهم وأخّر عنهم العذاب إلى ساعته المحدودة ، أطغاهم طول الأمن والدعة والعافية الحاضرة حتى نسوا ريب الدهر وأمنوا مكر الله ، فجعلوا يستعجلون بالشر استعجالهم بالخير ويقولون : متى هو ؛ وما يحبسه لو كان آتياً ؟

أراد القرآن أن يقول في جواب هذا الاستعجال :

* لو كانت سنة الله قد مضت بأن يعجل للناس الشر إذا استعجلوه ، كتعجيله لهم الخير إذا استعجلوه ، لعجَّلَه لهؤلاء .

* ولكنه قد جرت سنته التي لا تتبدل بأن يمهل الظالمين ويؤخر حسابهم إلى أجل مسمى .

* وعلى وفق هذا النظام المسنون سيترك هؤلاء وشأنهم حتى يجيء وقتهم .

هذا هو الوضع الذي يوضع عليه الكلام في ألسنة الناس وفي طبيعة اللغة لتأدية المعنى الإجمالي الذي ترمي إليه الآية . فانظر ماذا جرى .. ؟

(١) كان الكلام في وضعه العادي مؤلفاً من قضايا ثلاث : اثنتان منها بمثابة المقدمات ، والثالثة بمنزلة النتيجة . فاقتصر القرآن على الأولى والأخيرة . أما الوسطى وهي الاستدراك – أو الاستثنائية كما يسميها علماء المنطق – فقد طواها طيّاً .

(٢) وكانت المقدمة الأولى في وضعها الساذج تتألف من أربعة أطراف : تعجيل من الله في الخير وفي الشر ، واستعجال من الناس كذلك . ولكن الكلام هاهنا ليس فيه إلا تعجيل واحد من الله ، واستعجال واحد من الناس .

(٣) وكانت المقابلة في التشبيه بحسب الظاهر إنما هي بين تعجيل وتعجيل . أو بين استعجال واستعجال . فأدير الكلام في الآية على وجه غريب ، وجعلت المشابهة بين تعجيل واستعجال .

وبعد هذا التصرف كله ، هل ترى كلاماً مبتوراً أو طريقاً ملتوياً يتعثر فيه الفهم ؟ أم ترى مغزى الآية لائحاً للعامة والخاصة ، كالبدر ليس دونه سحاب ؟

فارجع إلى طلب شيء من أسرار البيان ، وقل : كيف جاء هذا الإشراق مع هذا الاختصار البليغ ؟

نقول :

(**أما الأول**) : فإنه لم يدَعْ تلك المقدمة المطوية إلا بعد أن رفع لها عَلَمين من جانبيها ، يدلان على مكانها ويوحيان بها إلى النفس من وراء حجاب . فقد أقام عن يمينها كلمة ﴿ **لو** ﴾ الامتناعية التي صدَّر بها المقدمة الأولى ، دلالةً على أنه لا يكون منه هذا التعجيل . وعن يسارها حرف التفريع الذي صدَّر به النتيجة في قوله ﴿ **فنذر** ﴾ لكي ينم على أن لهذا الفرع أصلاً من جنسه يقال فيه : ولكن شأنه أن يذر الناس . فلذلك يذر هؤلاء .

ولما كانت الفاء وحدها ليست نصّاً في المطلوب ؛ لأنها كما تكون للتفريع تكون لمجرد العطف – فربما اتصل القاريء عاطفاً بها على جزاء الشرط قبلها ، من قبل أن يتبين له فساد المعنى لو عطف – لم يكتف بالفاء ، بل عزَّزها بقوتين أخريين ؛ إذ حوَّل صيغة النتيجة من الماضي إلى المضارع ، ثم من الغيبة إلى التكلم ؛ ليكون هذا الانقطاع اللفظي بينها وبين ما قبلها إيذاناً بانقطاعها عنه معنى وإذناً بالوقوف دونها ، حتى لا تقع النفس لحظةً ما في أدنى اضطراب أو لبس . ذلك إلى ما في هذا التحويل من الافتنان في الأسلوب تجديداً لنشاط السامع ، ومن إلقاء الرعب في القلوب بصدور نطق الوعيد والاستدراج على لسان الجبروت الملكي نفسه .

(**أما الثاني**) : فإنه لمّا حذف طرفين من الأطراف الأربعة لم يحذفهما من جنس واحد ، بل أبقى من كلّ زوجين واحداً هو نظير ما حذفه من صاحبه ،

لينبه بالمذكور على المحذوف . فكانت كلمة (التعجيل) مُنبهةً على نظيرتها في المشبَّه به ، وكلمة (الاستعجال) منبهة على مقابلتها في المشبَّه .

(**أما الثالث**) : فإنه نَبَّهَ به على معنى هو غاية في اللطف ، وهو سر الإمهال ، وحكمة عدم التعجيل من الله . ذلك بأنه صوَّر هذا التعجيل المفروض بصورة تشبه التماس الطالب وحرصه الشديد على إرضاء شهوته وسد حاجته المُلِحّة التي تبعثه على استعجاله ، ولا سيما إذا كان يطلب الخير لنفسه . كأنه قيل : إنه تعالى لو عَجَّل لهم ذلك لكان مَثله بهذا التعجيل كَمثل هؤلاء المستعجلين ، في استفزاز البواعث إياه . وحاشَ لله .

هذا إلى تصرفات عجيبة أخرى :

* (**منها**) أن كلمة (لو) بحسب وضعها وطبيعة معناها تتطلب أن يليها فعل ماض . ولكن المطلوب هاهنا ليس هو نفي المضي فحسب بل بيان أن هذا الفعل خلاف سنة الله التي لن تجد لها تبديلاً . فلو أُدِّيَ المعنى على هذا الوضع لطال الكلام ، ولقيل : (لو كانت سنة الله المستمرة في خلقه أن يعجل .. إلخ) : فانظر كيف اختصر الكلام في لفظ واحد بإخراج الفعل في صورة المضارع الدال على التكرر والاستمرار ، واكتفى بوضع (لو) قرينة على أن ما بعدها ماض في معناه . وهكذا أدى الغرضين جميعاً في رفق ولين .

* (**ومنها**) أنه كان مقتضى التطابق بين الشرط والجواب أن يوضع الجواب عِدْلاً له فيقال : (لعجّله) . ولكنه عدل إلى ما هو أفخم وأهول ، إذ بَيَّنَ أنه لو عجل للناس الشر لعجل لهؤلاء منه نوعاً خاصاً هم له أهل ، وهو العذاب المستأصل الذي تُقضى به آجالهم .

* (**ومنها**) أنه كان مقتضى الظاهر في تقرير النتيجة أن يقال : (فنذرهم) أو (فنذر هؤلاء) ولكنه قال : ﴿ **فَنَذَرُ الذينَ لا يرجونَ لِقَاءَنا** ﴾ تحصيلاً لغرضين مهمين ، أحدهما : التنبيه على أن منشأ

هذا الاستعجال منهم هو عدم إيمانهم بالبعث ، والثاني : التنبيه على أن قاعدة الإمهال من الله قاعدة عامة لهم ولأمثالهم .

* (**ومنها غير ذلك** ...) .

قل لنا بربّك : لو ظفرت في كلام البشر بواحدة من هذه التصرفات ، ففي أي أسلوب غير أسلوب القرآن تظفر بهذه المجموعة أو بما يدانيها ، في هذا القدر أو في ضِعفيه من الألفاظ ؟

[مثال آخر]

وإليك مثالاً آخر في المعنى نفسه : – ﴿ **قُلْ أرأيتُم إنْ أتاكُمْ عذابُه بَياتاً أو نهاراً ماذا يَسْتَعجِلُ مِنهُ المجرمون ؟ * أَثُمَّ إذا ما وَقَعَ آمنتم بِه ؟ آلآنَ وَقَدْ كُنتم بِه تَستَعجِلون !؟** ﴾ [سورة يونس الآيتان : ٥٠ ، ٥١] .

يقول الله تعالى : –

نبّئوني عن حالكم إن جاءكم العذاب بغتةً في ليل أو نهار ماذا أنتم يومئذ صانعون ؟ إنكم هنالك بين أمرين : فإما الإصرار على ما أنتم عليه الآن من تكذيب واستعجال ؛ وإما الإيمان . فأيّهما تختارون ؟ (أتستعجلون) بالعذاب يومئذ كما تستعجلون به اليوم ؟ كلا ، فإنكم مجرمون ، وكيف يتشوق المجرم لرؤية العذاب الذي إن جاء فهو لا محالة مُواقِعُه ؟ ثم نبئوني أيَّ نوع منه تستعجلون ؟ فإنه ليس نوعاً واحداً بل هو ألوان وفنون . (أم) أنتم اليوم تكذبون ثم إذا وقع بعد حين آمنتم به ؟ ألا إنه لن ينفعكم يومئذ إيمانكم بعد أن ماطلتم وسَوَّفْتم حتى ضيعتم الفرصة وفاتكم وقت التدارك . بل هنالك يقال لكم تنديماً وتحسيراً : آلآن تؤمنون وقد كنتم به تكذبون وتستعجلون !! .

هذا هو المعنى في ثوبه الطبيعي .

فانظر كم من كلمة وكم من جملة طُويت في صدر الكلام وفي شِقّيه ؟

وكيف أنها حين طويت لم يترك شيء منها إلا وقد جُعل في اللفظ مصباحٌ يكشف عنه ومفتاحٌ يوصل إليه ؟ فوضعُ استفهامين متقابلين في الكلام دل على أن هنالك استفهاماً جامعاً لهما مُرَدَّداً بينهما ، يقال فيه : ماذا تصنعون ، وأي الطريقين تسلكون ؟ والاستفهام عن الصنف المستعجَل به من العذاب دل على استفهام تمهيدي قبله عن حصول أصل الاستعجال . وكلمة ﴿ **المجرمون** ﴾ دلت على استحالة هذا الشق من الترديد . وكلمة ﴿ **ثم** ﴾ العاطفة دلت على المعطوف عليه المطوي بينها وبين الهمزة . ولفظ الظرف ﴿ **الآن** ﴾ دل على عامله المقدر . وقِسْ على ذلك سائر المحذوفات .. حتى إن مَدة الاستفهام الداخلة على هذا الظرف قد دلت على طول مُدَّة التسويف الذي منع من قبول إيمانهم ؛ لأنهم عُمِّرُوا ما يتذكر فيه مَن تذكّر .

فمن ذا الذي يستطيع أن يجري في هذا المضمار شَرَفاً[1] أو شَرَفَين ثم لا تضطرب أنفاسهُ ، ولا تكبو به ركائبُ البيان وأفراسُه ؟

اللهم إن من دون ذلك لَشُقّةً بعيدة وسفراً غير قاصد . وإن في دون ذلك لحدّاً للإعجاز .

* * *

---

(١) شَرَفاً : شوطاً .

– ٢ –

القرآن في سورة سورة منه

(الكثرة) و (الوحدة) :

هذا الذي حدثناك عنه من عظمة الثروة المعنوية في أسلوب القرآن على وجازة لفظه ، يُضاف إليه أمرٌ آخر هو زينة تلك الثروة وجمالُها . ذلك هو تناسُق أوضاعها ، وائتلاف عناصرها ، وأخذُ بعضها بحُجَزِ[1] بعض ، حتى إنها لتنتظم منها وحدةٌ محكمةٌ لا انفصام لها .

وأنت قد تعرف أن الكلام في الشأن الواحد إذا ساء نظمُه انحلّت وحدةُ معناه فتفرَّق من أجزائها ما كان مجتمعاً ، وانفصل ما كان متصلاً ؛ كما تتبدَّد الصورةُ الواحدة على المرآة إذا لم يكن سطحُها مستوياً ، أليس الكلام هو مرآة المعنى ؟ فلابد إذاً لإبراز تلك الوحدة الطبيعية (المعنوية) من إحكام هذه الوحدة الفنية (البيانية) . وذلك بتمام التقريب بين أجزاء البيان والتأليف بين عناصره حتى تتماسك وتتعانق أشد التماسك والتعانق .

وليس ذلك بالأمر الهيّن كما قد يظنه الجاهل بهذه الصناعة ؛ بل هو مطلب كبير (يحتاج) مهارة وحِذقاً ولطف حسٍ في اختيار أحسن المواقع لتلك الأجزاء : أيها أحق أن يُجعَل أصلاً أو تكميلاً ، وأيها أحق أن يُبدأ به أو يختم أو يتبوأ مكاناً وسطاً ؟ (ثم يحتاج) مثل ذلك في اختيار أحسن الطرق لمزجها : بالإسناد ، أو بالتعليق ، أو بالعطف ، أو بغيرها . هذا كله بعد التلطف في اختيار

---

(١) حُجَز : جمع حُجْزَة وهي الوسط (مَعْقِد الإزار) ، وكلام آخذ بعضه بحجزة بعض أي متناظم متناسق (أساس البلاغة) .

تلك الأجزاء نفسها ، والاطمئنان على صلة كل منها بروح المعنى ، وأنها نقية من الحشو ، قليلة الاستطراد ، وأن أطرافها وأوساطها تستوي في تراميها إلى الغرض ، ويستوي هو في استهدافه لها ، كما تستوي أبعادُ نقط الدائرة بالقياس إلى المركز ، ويستوي هو بالقياس إلى كل منها .

[صنعة البيان في الانتقال من معنى إلى معنى أشقّ منها في التنقل بين أجزاء المعنى الواحد]

تلك حال المعنى الواحد الذي تتصل أجزاؤه فيما بينها اتصالاً طبيعياً . فما ظنك بالمعاني المختلفة في جوهرها ، المنفصلة بطبيعتها ؟ كم من المهارة والحذق ، بل كم من الاقتدار السحريّ يتطلبه التأليف بين أمزجتها الغريبة واتجاهاتها المتشعبة ؟ حتى لا يكونَ الجمعُ بينها في الحديث كالجمع بين القلم والحذاء والمنشار والماء ؛ بل حتى يكون لها مزاجٌ واحد واتجاه واحد ، وحتى يكون عن وحداتها الصغري وحدةٌ جامعة أخرى .

إنه من أجل عزة هذا المطلب نرى البلغاء وإن أحسنوا وأجادوا إلى حدٍّ ما في غرضٍ غرضٍ ، كان منهم الخطأ والإساءة في نظم تلك الأغراض كلّاً أو جُلّاً . (فالشعراء) حينما يجيئون في القصيدة الواحدة بمعانٍ عدة ، أكثرُ ما يجيئون بها أشتاتاً لا يلوي بعضها على بعض . وقليلاً ما يهتدون إلى حسن التخلص من الغرض إلى الغرض ، كما في الانتقال من النَسِيب[1] إلى المدح . (والكُتَّاب) ربما استعانوا على سد تلك الثغرات باستعمال أدوات التنبيه أو الحديث عن النفس ؛ كقولهم : ألا وإن .. هذا ولكن .. بقي علينا .. ولننتقل .. نعود .. قلنا .. وسنقول ..

هذا شأن الأغراض المختلفة إذا تناولها الكلام الواحد في المجلس الواحد .

---

(١) النَسِيب : الشعر الرقيق في الغَزَل والنساء .

فكيف لو قد جيء بها في ظروف مختلفة وأزمان متطاولة ؟ ألا تكون الصلة فيها أشد انقطاعاً ، والهوة بينها أعظم اتساعاً ؟

فإن كنت قدأعجبك من القرآن نظام تأليفه البياني في القطعة منه ، حيث الموضوع واحد بطبيعته ، فهلمَّ إلى النظر في السورة منه حيث الموضوعات شتى ، والظروف متفاوتة ، لترى من هذا النظام ما هو أدخل في الإعجاب والإعجاز .

ألست تعلم أن ما امتاز به أسلوب القرآن من اجتناب سبيل الإطالة والتزام جانب الإيجاز – بقدر ما يتسع له جمال اللغة – قد جعله هو أكثر الكلام افتناناً ، نعني أكثره تناولاً لشئون القول وأسرَعه تنقلاً بينها[1] من وصف ، إلى قَصص ، إلى تشريع ، إلى جدل ، إلى ضروب شتى ، بل جعل الفنَّ الواحد منه يتشعب إلى فنون ، والشأن الواحد فيه تنطوي تحته شئونٌ وشئونٌ .

---

(١) والأعجب أنه مع كونه أكثر الكلام افتناناً وتنويعاً في الموضوعات ، هو أكثره افتناناً وتلويناً في الأسلوب في الموضوع الواحد . فهو لا يستمر طويلاً على نمط واحد من التعبير ، كما أنه لا يستمر طويلاً على هدف واحد من المعاني . ألا تراه كما يتنقل في السورة الواحدة من معنى إلى معنى يتنقل في المعنى الواحد بين إنشاء وإخبار ، وإظهار وإضمار ، وإسمية وفعلية ، ومضي وحضور واستقبال ، وتكلم وغيبة وخطاب ؛ إلى غير ذلك من طرق الأداء ، على نحو من السرعة لا عهد لك بمثله ولا بما يقرب منه في كلام غيره قط . ومع هذه التحولات السريعة المستمرة التي هي مظنة الاختلاج والاضطراب ، بل مظنة الكبوة والعثار ، في داخل الموضوع أو في الخروج منه ، تراه لا يضطرب ولا يتعثر ، بل يحتفظ بتلك الطبقة العليا من متانة النظم وجودة السبك ، حتى يصوغ من هذه الأفانين الكثيرة منظراً مؤتلفاً . فأي امريء يحسن العربية وينظر في نظم القرآن هذه النظرة ثم لا يرى فيه من أثر القدرة الباهرة سراً من أسرار التحدي والإعجاز ؟

وأنت فقد تسمع بعض المبتدئين في تذوق جمال القرآن والبحث عن منابع جماله يتساءلون : ما سر تلك الحال النفسية التي يجدها تالي القرآن وسامعه من طراوة وتجدد في نشاطه مع كل مرحلة منه ، حتى لا يعرف الملل مهما أمعن السير فيه ؟ فنبئهم أن تلك الظاهرة العجيبة لها في القرآن منابع جمَّة قد أشير قبل إلى طرفٍ منها (فيما تقدم لنا من الحديث عن خاصة القرآن الصوتية ص ١٢٧ وهذه الخاصة التي نشير إليها =

[نزول القرآن مفرقاً حسب الوقائع والدواعي ،
على تباعد زماني ، مما لا يسمح عادةً بالتواصل والترابـط]

أوَ لست تعلم أن القرآن – في جل أمره – ما كان ينزل بهذه المعاني المختلفة جملة واحدة ، بل كان يتنزل بها آحاداً مفرقة على حسب الوقائع والدواعي المتجددة ، وأن هذا الانفصال الزماني بينها ؛ والاختلاف الذاتي بين دواعيها ، كان بطبيعته مستتبعاً لانفصال الحديث عنها على ضرب من الاستقلال والاستئناف لا يدع بينها منزعاً للتواصل والترابط ؟

ألم يكن هذان السببان قوتين متظاهرتين على تفكيك وحدة الكلام وتقطيع أوصاله إذا أريد نظم طائفة من تلك الأحاديث في سلك واحد تحت اسم واحد ؟

[جمع الأحاديث المختلفة المعاني ، المتباعدة
الأزمنة ، المتنوعة الملابسات في حديث واحد مسترسل ،
هـو مظنة التفكك والاقتضـاب ، ومظنة المفـارقة والتفـاوت]

خذ بيدك بضعة متون كاملة من الحديث النبوي ، كان التحديث بها في أوقات مختلفة ، وتناولت أغراضاً متباينة ؛ أو خذ مِن كلام مَن شئت من البلغاء

= فيها منبع آخر أعمق وأغرز ، غير أنه لا يقدرها حق قدرها إلا من نظر في كلام البلغاء ووقف على مبلغ افتنانهم في أساليبهم ، ومبلغ افتنانهم في أغراضهم ، ثم جاء ليتدبر هاتين الناحيتين من نظم القرآن . فهنالك يرى نفسه أمام نهاية لم يجاوز البلغاء بدايتها ، إذ يرى أنه لا ينتقل فيه من خطوة إلى خطوة إلا استعرض في الخطوة التالية من مذاهب المعنى وألوان الأسلوب جديداً إثر جديد . فكيف يعرف الملل سبيلاً إلى قلبه مع دوام هذه النظرية والتجديد ؟ كل امريء يستطيع أن يجرب نفسه حين يطول به الوقوف أمام منظر واحد جميل ، هل يجد لديه من هزة الاستحسان في هذا الاستمرار ما يجده لو اعترض سلسلة من المناظر الرائعة ، قد صنفت فيها ضروب الفوائد والمتع ، ثم جعلت تمر به منوعةً في أبدع تنسيق وأحسن تقويمٍ ؟ اللهم لا ، فذلك كذلك [دراز] .

بضعة أحاديث كذلك . وحاول أن تجيء بها سرداً لتجعل منها حديثاً واحداً ، من غير أن تزيد بينها شيئاً أو تنقص شيئاً . ثم انظر : كيف تتناكر معانيها وتتنافر مبانيها في الأسماع والأفهام ! وكيف يبدو عليها من الترقيع والتلفيق والمفارقة ما لا يبدو على القول الواحد المسترسل !

* * *

[عجز البشر عن الاهتداء إلى تحديد وضع كل جزء من أجزاء المُرَكَّب قبل تمام أجزائه ، بل قبل معرفة طبيعة تلك الأجزاء]

وسبب ثالث كان أجدر أن يزيد نظم السورة تفكيكاً ووحدتها تمزيقاً . ذلك هو الطريقة التي اتبعت في ضم نُجُوم[1] القرآن بعضها إلى بعض ، وفي تأليف وحدات السور من تلك النجوم . وإنها لطريقة طريفة سنريك فيها العجيبة الثالثة الكبرى التي خرجت بهذا التأليف القرآني عن طبيعة التأليف الإنساني ، فتعال وانظر !

انظر إلى الإنسان حين يزاول صناعةً ما من صناعاته التركيبية . ألا تراه يبدأ عمله دائماً بتعرف أجزاء المُرَكَّب ومقوّماته ، والوقوف على عناصره ومتمماته ، قبل أن يبتّ الحكم في تحديد موقع كل جزء منها ؟ هاتان مرحلتان تتنزل الثانية منهما منزلة الصورة من مادتها . فلا جرم أن عكس القضية فيهما لا يكون إلا سيراً بالعقل البشري في غير سبيله ، وإدلاجاً به في مزلّة لا قرار للأقدام عليها ، ولا هدى للسالك فيها . وهل رأيت أحداً سلك هذه السبيل

---

(١) نُجُوم : جمع نَجْم ، وهو القطعة من القرآن تنزل على رسول الله ﷺ ، وقد نَزَلَ القرآنُ نُجُوماً متفرقة في ثلاثٍ وعشرين سنةً كاملةً ، وقد ينزل النجم سورةً كاملة ، أو بضع آياتٍ ، أو آيةً ، أو بعض آيةٍ كما في حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه الذي سبق في ص ٨٨ برقم هامش ٣ ، ويقال : نَجَّمَ المالَ ، أي أدَّاه نُجُوماً (مُفَرَّقاً) .

المؤتفكة ثم استقام له الأمر عليها إلى نهايته[1] ؟

بل انظر إلى الإنسان حين يأخذ في ترتيب أجزاء المركب بعد جمعها . ألا تراه خاضعاً لسنة السير الطبيعي التي يخضع لها كل سائر إلى غرضٍ ما حسيٍّ أو عقليّ ؟ فهو إن قطع سبيله خُطُوات لم يستطع أن يجتاز أخراها قبل أولاها ، وإن صعد فيه درجات لم يستطع أن يؤخر أسفلها عن أعلاها .

تلك حدودٌ رسمتها قوانين الفطرة العامة ، فلا يستطيع أحد أن يتخطاها . سواء في صناعاته المادية أو المعنوية . فالبنّاء والحائك والكاتب والشاعر في هذه الحدود سواء .

[أمثلة في مختلف الصناعات]

ونضرب لك مثلاً :

قدّرْ في نفسك أن رجلاً نزل وادياً فسيحاً ليس عليه بنيان قائم ، وليس به شيء من مواد البناء وأنقاضه ، فما لبث أن أحسَّ برجفة أرضية أو عاصفة

---

(١) نقول : هل رأيت عاقلاً تعجل بالقضاء في تحديد الموقع لجزء جزء من صنعته قبل أن يحيط بسائر أجزائها علماً ؟ وهل تراه لو فعل يكون قضاؤه في هذا الترتيب قضاء مبرماً ؟ ثم هل تراه لو أصر على هذا الترتيب يتم له ما يشتهي لصنعته من نظام محكم ؟
– كلا إن العاقل لو قام بهذه التجربة في بعض الأجزاء نزولاً على البديهة الحاضرة فإنما يتخذها تَعِلَّةً وقتيةً ، ريثما يبدو له عنصر آخر أحق بهذه الرتبة أو تلك ؛ ثم لا يلبث أن يعود إلى الأول ليقصيه عن مكانه قليلاً أو كثيراً ، أو ليفصله عن هذه المجموعة إلى مجموعة أخرى ، أو ليجعله كلّاً قائماً برأسه ... وهكذا لا يزال يُقَلِّب وجوه الرأى في نظام تلك المواد ، حتى إذا ما فرغ منها جمعاً وتحصيلاً ، وانكشفت له جملةً وتفصيلاً ، فهنالك فقط يستطيع أن يقر كل جزء في مستقره الأخير ، وأن يعطي المركب صيغته النهائية . وكل ترتيب تأخذه الآحاد قبل ذلك فإنه لا يجمعها إلا تلفيقاً ، ولا يعطيها إلا صورة شوهاء . وكذلك كل نظام أقيم على غير أساس العلم المفصَّل بأجزاء المنظوم فأَحْرِ به أن يكون مثالاً للضعف والاختلال . وإن بقيَ اليوم قائماً لم يلبث أن ينهار غداً [**دراز**] .

سماوية ، وإذا قمةُ الجبل تنصدع قليلاً فتُلقي بجانبه صخراً أو بضعة صخور .. ثم تمضي فترة طويلة أو قصيرة ، وإذا هزةٌ ثانية أو ثالثة تُلقي إليه شظِيّات من الحديد والحُمَم ، أو نُثارات من الفضة والذهب .. أترى أن هذا الرجل أو أن أحداً من العقلاء يستطيع منذ اللحظات الأولى أن يضع تصميمه على إقامة مدينة جامعة من تلك المواد المتناثرة ومما عساه أن يجيء من أمثالها ؟ وأن يبدأ بالعمل في مهمة التخطيط والبنيان ؟ فما يدريه لعل هذه الظواهر لا تتكرر أمامه نزلةً أخرى ، ثم ما يدريه أنها إن عادت كم مرة تعود ، وما نوع المادة التي تتساقط معها في كل مرة ، وكم عِدة القطع في كل مرة من هذه المواد ، وكم عدة الأبنية التي يمكن إقامتها منها ، وما النظام الهندسي الخاص بكل بناء : سعةً وارتفاعاً ونقشاً وزخرفاً ، وما ذرع[1] الفضاء الذي ستشغله هذه الأبنية جملة ؟ ..

في هذا الجو المملوء غموضاً وإبهاماً ، لا يجرؤ عاقل أن يغامر بتصميمه في بناء كوخ حقير ، فضلاً عن بلد كبير ، فضلاً عن أن يهبَّ من فوره لإنفاذ عزمه فيمضي في مهمة البناء منذ وصلت إليه تلك اللبنات الأولى .

ولئن افترضت إنساناً غامر هذه المغامرة ، وأن المقادير سارعت في هواه ، وأسعفته بما شاء من مواد البناء الذي تخيله وتمناه ، أتراه يعمد إلى مخاطرة أخرى ؛ فيتخذ له في البناء أسلوباً يُراغِم به قانون الطبيعة ، بأن يُؤْلِي[2] على نفسه ألا يدع لَبِنة تصل إلى يديه إلا أنزلها – في ساعة وصولها – منزلها الخليق بها حيث كان ؟ ذلك على حين أن تلك اللبنات لم تتساقط إليه متجانسة مرتبة على ترتيبها في وضعها المنتظر ، بل جعلت تتناثر خفافاً وثقالاً ، مختلفاً ألوانُها وأحجامُها وعناصرُها وطاقاتُها ؛ فربما وقعت له الزخارف والشرفات ، قبل أن تقع له بعض القواعد والسَافَات[3] ، وربما وقعت له على التوالي أجزاء ناقصة لتوضع في

---

(١) ذَرْع : الذَرْع هو بسط اليد ، وهنا بمعنى الوُسْع والحجم .

(٢) يُؤْلِي : يَحْلِف .

(٣) السافات : جمع سَاف ، وهو كل صفٍّ من اللَّبِن أو الآجُرّ في الحائط .

أماكن متفرقة ، من أبنية متنائية ، أفلا تراه إن ذهب يضع كلَّ جُزءٍ ساعةَ نزوله في موضعه المعيَّن ، لم يجد مناصاً من أن يبدد أجزاء البناء هنا وهناك ، على أبعاد غير متساوية ولا متناسبة ، فيقارب بينها طوراً ويباعد طوراً ، ويعلو بها تارة وينزل تارة أخرى ، حتى لقد يبني أعلى البيت قبل أسفله ويمسك المحمول معلقاً بدون حامله .

فكيف يطيق بشرٌ كائناً من كان أن يضطلع بهذه المهمة ؟ ثم كيف يمضي قُدُماً في هذا الأمر إلى نهايته ، فلا يعود إلى جزءٍ ما ليزيله عن موضعه الذي أحَلَّه فيه أوَّل مرة ، أو ليلتجيء فيه إلى كسر أو نحت أو حشو أو دعامة ؟ ثم كيف تكون عاقبة أمره أنه في الوقت الذي يضع فيه آخر لبنة على هذا المنهاج ، يرفع يده عن مدينة منسقة ، ليس فيها قصرٌ ولا غرفة ولا لبنة ولا جزء صغير ولا كبير إلا وقد نزل منزله الرصين الذي يرتضيه ذوق الفن ، حتى لو تبدل واحدٌ منها مكان غيره لاختل البنيان أو ساء النظام ؟

أليس ذلك إن وقع يكون تحدِّياً للقدرة البشرية جمعاء ؟

ألا فقد وقع مصداق هذا المثل في مسألتنا . وإليك البيان :

* أما الرجل فهو هذا النبي الأمي صلوات الله عليه .

* وأما المدينة الجامعة التي شرع في بنائها منذ وقعت له لبناتها الأولى ، فذلك الكتاب العزيز الذي أخذ هو منذ وصلت إليه باكورة رسائله يرتب أجزاءه ترتيب الواثق المطمئن إلى أن سيكون له منها ديوان تام جامع .

* وأما القصور ، والغرفات ، واللبنات ، فهي أجزاء هذا الديوان : من السور ، والنجوم ، والآيات .

* وأما تلك العوامل الفجائية التي جعلت تَستنزل من مختلف معادن الجبال ما رُكِّبت منه هذه القصور المشيدة ، فتلك هي الأحداث الكونية والاجتماعية ، والمشاكل الدينية والدنيوية التي كانت تعترض الناس آناً بعد آن في شئونهم العامة

والخاصة ، فكان يتقدم بها المؤمن منهم مستفتياً ومسترشداً ، والمكذب مستشكلاً ومجادلاً ، وكان على وَفق ذلك يتنزل الكلام نجماً فنجماً ، بمعان تختلف باختلاف تلك المناسبات والبواعث ، وبمقادير تتفاوت قلة وكثرة ، وعلى طرق تتنوع ليناً وشدة .. ومن هذه النجوم المختلفة المتفرقة صارت تتألف تلك المجاميع المسماة بالسور ؛ لا على أساس التجانس بين أجزاء كل مجموعة منها ، بل على أن يأوي إلى الحظيرة الواحدة ما شئت من فصائل الجنس الواحد والأجناس المتخالفة .

* وأما الطريق العَجب الذي اتُّبع في تأليف تلك الأبنية من أجزائها — وهو السبب الثالث الذي رفع المسألة من حدّ العسر إلى حد الإحالة — فهو أن ذلك الذي نزل عليه الذِكْر لم يتربص بترتيب نجومه حتى كملت نزولاً ، بل لم يتريث بتأليف سورة واحدة منه حتى تمت فصولاً ؛ بل كان كلما أُلقِيَت إليه آية أو آيات أمر بوضعها من فوره في مكان مرتب من سورة معينة[1] . على حين أن هذه الآيات والسور لم تتخذ في ورودها التنزيلي سبيلها الذي اتبعته في وضعها الترتيبي ؛ فكم من سورة نزلت جميعاً أو أشتاتاً في الفترات بين النجوم من سورة أخرى ، وكم من آية في السورة الواحدة تقدمت فيها نزولاً وتأخرت ترتيباً ، وكم من آية على عكس ذلك .

---

(١) قال عثمان بن عفان رضي الله عنه : « **إن رسول الله ﷺ كان مما يأتي عليه الزمان يُنَزَّل عليه من السور ذوات العدد ، وكان إذا أُنزل عليه الشيء يدعو بعض من يكتب عنده ، يقول : ضعوا هذا في السورة التي يُذكر فيها كذا وكذا ، ويُنزل عليه الآيات فيقول : ضعوا هذه الآيات في السورة التي يُذكر فيها كذا وكذا ، ويُنزل عليه الآية فيقول : ضعوا هذه الآية في السورة التي يُذكر فيها كذا وكذا ..** » الحديث .

رواه أحمد ١ / ٥٧ ، وأبو داود في الصلاة ٧٨٦ / ٧٨٧ ، والترمذي في التفسير ٣٠٨٦ وحَسَّنه ، والنسائي في فضائل القرآن ٣٢ ، وابن حبان في صحيحه (الإحسان) ٤٣ ، والحاكم ٢ / ٣٣٠ ، وحكم عليه الشيخ أحمد شاكر في المسند ١ / ٣٩٩ بالضعف الشديد ، وكذلك في الطبري ١ / ١٠٢ . ... =

نعم ، لقد كان للنجوم القرآنية في تنزيلها وترتيبها ظاهرتان مختلفتان ، وسبيلان قلّما يلتقيان ، ولقد خَلَص لنا من بين اختلافهما أكبر العبر في أمر هذا النظم القرآني .

فلو أنك نظرت إلى هذه النجوم عند تنزيلها ، ونظرت إلى ما مهّد لها من أسبابها ، فرأيت كل نجم رهيناً بنزول حاجةٍ مُلِمّة ، أو حدوث سبب عام أو خاص ، إذاً لرأيت في كل واحد منها ذِكراً مُحْدَثاً لوقته ، وقولاً مرتجلاً عند باعثته ، لم يتقدم للنفس شعورٌ به قبل حدوث سببه . ولرأيت فيه كذلك كُلّاً قائماً بنفسه لا يترسم نظاماً معيناً يجمعُه وغيرَه في نسق واحد .

[اجتماع هذه الأسباب كلها في كل سورةٍ متفرقة النجوم ، دون أن تغض من أحكام وحدتها ، ولا من استقامة وزنها ، هو بالتحقيق معجزة المعجزات]

ولو أنك نظرت إليها في الوقت نفسه فرأيتها وقد أُعدَّ لكل نجم منها ساعة نزوله سياجٌ خاص يأوي إليه سابقاً أو لاحقاً ؛ وحُدِّد له مكان معين في

= * وأصح منه حديث عثمان بن أبي العاص حين قال له رسول الله ﷺ : « **أتاني جبريل عليه السلام فأمرني أن أضع هذه الآية بهذا الموضع من هذه السورة ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربي وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون ﴾** » . رواه أحمد في مسنده ٤ / ٢١٨ . وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٤٩/٧ : وإسناده حسن. وقال ابن كثير في تفسيره ٤ / ٥١٦ : وهذا إسناد لا بأس به أ هـ .

* وقال السيوطي في الإتقان ١ / ٢١١ : الإجماع والنصوص المترادفة على أن ترتيب الآيات توقيفي ، لا شبهة في ذلك وأما الإجماع فنقله غير واحد ، منهم الزركشي في البرهان وأبو جعفر بن الزبير في مناسباته ، وعبارته : ترتيب الآيات في سورها واقع بتوقيفه ﷺ وأمره ، من غير خلاف في هذا بين المسلمين أ هـ .

داخل ذلك السياج متقدماً أو متأخراً[1] ، إذاً لرأيت من خلال هذا التوزيع الفَوْرِي المحدود أن هنالك خطة تفصيلية شاملة قد رُسمت فيها مواقع النجوم كلها من قبل نزولها ، بل من قبل أن تخلق أسبابها ، بل من قبل أن تبدأ الأطوار الممهّدة لحدوث أسبابها . وأن هذه الخطة التي رُسِمَت على أدق الحدود والتفاصيل قد أُبرِمَت بآكد العزم والتصميم ، فما من نجمٍ وضع في سورة ما ثم جاوزها إلى غيرها ، وما من نجم جُعل في مكانٍ ما من السورة آخراً أو أوَّلاً ، ثم وجد عنه أبد الدهر مصرفاً ولا متحولاً .

وهنا تقف موقف الحيرة في أمرك ، وتكاد تنكر ما تحت سمعك وبصرك ، ثم ترجع إلى نفسك تسائلها عن وجه الجمع بين ما رأيت وما ترى : - (أليس هذا التنزيل قد سمعتُه الآن جديداً وليدَ يومه ، ووحيداً رهين سببه ؛ فمالي أراه ليس جديداً ولا وحيداً ؟ لكأني به وبالقرآن كله كان ظاهراً على قلب هذا الرجل قبل ظهوره على لسانه ، وكان على هذه الصورة مؤلفاً في صدره قبل أن يؤلفه ببيانه . وإلا فما باله يؤلف هذا التأليف بين آحادٍ لا تتداعي إلى الاجتماع بطبائعها ؟ لماذا لم يذرها كما جاءت فرادى منثورة ؟ وهلاَّ إذا أراد جمعها أدخلها كلها في مجموعةٍ واحدةٍ ؟ أو هلَّا قَسَّمَها إلى مجاميع متساوية أو متجانسة ؟ ترى على أيّ قاعدةٍ بنى توزيعها وتحديد أوضاعها هكذا قبل تمامها أو تمام طائفة منها ؟

* هل عسى أن تكون هذه الأوضاع كلها جارية على محض المصادفة والاتفاق ؟

---

(١) فترى هذا النجم مثلا يُؤمر به عند نزوله أن يوضع في ختام سورة كذا ، والنجم الذي بعده يُؤمر به أن يُجعل في أثناء تلك السورة نفسها على رأس عددٍ محدودٍ من آيها . وهذا يُجعل صدراً لسورةٍ تأتي بعد حين ، والذي يليه يأخذ جانباً من سورة مضت منذ حين .. وهلم جرا [دراز].

– كلا ، فقد ظهر في كل وضع منها أنه مقصود إليه بعينه ، كما ظهر القصد في كل طائفة أن تنتظم منها وحدة محدودة ذات ترتيب ومقدار بعينه .

* أم هل عسى أن تكون هذه الأوضاع – وإن قُصِدت – ليست وليدة تقدير سابق ، وإنما هي تجربة اختبارية أثمرتها فكرة وقتية ؟

– كلا ، فإن واضعها حين وضعها قد ضربها ضربة لازِبٍ[1] ثم لم يَكُرَّ عليها بتبديل ولا تحويل . فعلامَ إذاً بنى ذلك القصد وهذا التصميم ؟) .

ولن يكون الجواب الذي تسمعه من نفسك لو أصاخت إلى بديهة العقل إلا أن تقول :

(إنه لا يجرؤ في قرارة الغيب على وضع هذه الخطة المفصَّلة المصممة إلا أحد اثنين : جاهل جاهل في حضيض الجهل ؛ أو عالم عالم فوق أطوار العقل . لا ثالث) .

* فأما إن كان فرغ من نظام تأليفها وصورة تركيبها من قبل أن يستحكم له العلم بأسباب ذلك ومقاصده وأدباره وعواقبه ، وإنما بنى أمره على الظن والتحسس وعلى التخيل والتمني ، فذلك امرؤ بلغت به الجرأة على نفسه أن أعلن ملك مالا يملكه وادعى علم ما ستكشف الأيام عن جهله . وما عليك إلا أن تتربص به قليلاً لترى بطلان أمره وفساد صنعته ، فهيهات أن يلد الجهل نظاماً جارياً ، وإحكاماً باقياً .

* وأما إن كان قد فَصَّلها على علم وبصر ، وأعطى كل جزء منها موقعه بميزان وقدر ، فلا ريب أن سيكون نظامها مثال الإتقان وآية الجمال ؛ ولكن واضعها إذاً لا يمكن أن يكون هو هذا الإنسان ؛ إلا أن يكون قد استمدَّها من أفق أعلى من أفق نفسه ، ومحيط أوسع من محيط علمه ؛ إذ أنَّى للإنسان

---

(١) ضربةَ لازِبٍ : لازمٍ ثابتٍ ، والأسلوب مستعار من ضربة السيف الثابت .

وهو هذا المحكوم بطبيعة الدهر أن يكون عليها متحكماً ؟ أم كيف يتهيأ له وهو في جهله العتيد بمقدمات عمله ، أن يكون بنتائجها التفصيلية عالماً ؟ أفيكون بالشيء الواحد جاهلاً وعالماً معاً ؟ أم يكون من وجه واحد حاكماً ومحكوماً معاً ؟

(وهل رأيت أو سمعت أن أحداً من الكتّاب أو الشعراء استطاع في مفتتح حياته الأدبية أن يحصي كل ما سيجيء على لسانه من جيد الشعر أو النثر في المناسبات المتنوعة إلى آخر عهده بالدنيا ، وأن يضع من أول يوم منهاجاً لديوانه المنتظر . يفصله تفصيلاً لا يقنع فيه بتقدير أبوابه وفصوله حتى يقدر لكل باب عدةَ ما يحويه من خطاب أو قصيد ، ويحدّد لكل واحد من هذين مكاناً معلوماً لا يستقدم عنه ولا يستأخر ، حتى إذا جاء عند داعيته رَدَّه إلى مكانه غير مُتلَبِث ولا متوقف ، ثم ينجح في هذه التجربة نجاحاً مطرداً تنفذ فيه أحكامه وتتحقق به أحلامه ، فيستقيم له النسق بين هذه المقطوعات كلها ، من غير أن يقدم فيها شيئاً أو يؤخر شيئاً ، ومن غير أن يزيد بينها أو ينقص شيئاً ؟

لعمري لئن صح هذا الفرض في أحد من البشر لصح مثله في نبي القرآن ، ولكن الإنسان هو الإنسان . ومن لم يحط علماً بما سيعترضه في دهره من بواعث القول وفنونه فهو عن الإحاطة بنصوص هذا القول أبعد ، وهو عن الإحاطة بمراتب هذه النصوص أشد بعداً . بل الإنسان حين تحفزه باعثة القول وترد إليه سانحته ، لا يعدو فيها إحدى خطتين ، فهو :

* إما أن يدعها كما هي سانحة منعزلة . وكذلك يفعل في أمثالها ، حتى إذا بلغ الغاية رجع أدْراجَهُ فأخذ فيها جمعاً وتفريقاً ، وتبويباً وترتيباً .

* وإما أن يأخذ في ضم هذه النصوص ، ولاءً على وفق ورودها الأول فالأول .

* أما الثالثة وهي أن يجعلها هكذا عِزين . ولا يزال يظاهرها من قريب وبعيد ، عن أيمانها وعن شمائلها وفي خلالها ، بهذه الطريقة المحدَّدة ، وبهذه

الطريقة المشتتة المعقدة ، على أن يجعل المكان الذي أحلّ كل سانحة فيه مكاناً مسجلاً لا تحول عنه ولا تزول . ثم يطمع أن يخرج له بتلك الصنعة ديوان كامل التقسيم والتبويب ، جيد التنسيق والترتيب ، مترابط متماسك في جملته وتفصيله كلمة كلمة وحرفاً حرفاً ، فتلك أمنية لا يظفر المرء منها إلا بعكس ما تمنى) .

* * *

ها أنت ذا قد عرفت نهج التأليف الإنساني في صنعة البيان وغير البيان . ورأيت بُعدَ ما بينه وبين نهج التأليف في نجوم القرآن . وعرفت ماذا كان يجب أن يحدث في النظم القرآني من جراء هذا النهج العجيب . في أسباب ثلاثة[1] من شأنها ألا يستقيم بها للكلام طبع ، ولا يلتئم له معها شمل .

فانظر الآن هل استطاعت هذه الأسباب على تضافرها أن تنال شيئاً من استقامة النظم في السور المؤلفة على هذا النهج ؟

أما العرب الذين تحدّاهم القرآن بسورة منه ، فلقد علمت لو أنهم وجدوا في نظم سورة منها مطمعاً لطامع ، بله مَغْمَزاً لغامز ، لكان لهم معه شأن غير شأنهم . وهُمْ هُمْ .

وأما البلغاء من بعدهم فما زلنا نسمعهم يضربون الأمثال في جودة السبك وإحكام السرد بهذا القرآن حين ينتقل من فن إلى فن .

وأما أنت فأقبل بنفسك على تدبر هذا النظم الكريم لتعرف بأي يد وُضع بنيانه ؟ وعلى أي عين صُنع نظامه ؟ حتى كان كما وصفه الله ﴿ **قُرْآناً عَرَبِياً غَيرَ ذِي عِوَجٍ** ﴾ [سورة الزمر الآية : ٢٨] .

---

(١) عناصر معنوية مختلفة . ظروف زمانية منفصلة . أوضاع تأليفية عجلى ومشتتة [**دراز**] .

اعمد إلى سورة من تلك السور التي تتناول أكثر من معنى واحد – وما أكثرها في القرآن ، فهي جمهرته – وتنقل بفكرتك معها مرحلة مرحلة ، ثم ارجع البصر كرتين : كيف بدئت ؟ وكيف ختمت ؟ وكيف تقابلت أوضاعها وتعادلت ؟ وكيف تلاقت أركانها وتعانقت ؟ وكيف ازدوجت مقدماتها بنتائجها ، ووطّأتْ أُولاها لأخراها ؟ ..

وأنا لك زعيم بأنك لن تجد البتة في نظام معانيها أو مبانيها ما تعرف به أكانت هذه السورة قد نزلت في نجم واحد أم في نجوم شتى . ولسوف تحسب أن السبْع الطّوَل[1] من سور القرآن قد نزلت كل واحدة منها دَفْعةً ، حتى يحدثك التاريخ أنها كلّها أو جلّها[2] قد نزلت نجوماً . أو لتقولن إنها إن

---

(١) وإذا كانت هذه السور على طولها وكثرة نجومها لا يبدو عليها انفصال النظم ، فما ظنك بما دونها إلى سور المفصل ، حيث جرى التنجيم حتى في بعض القصار منها ، كالضحى ، واقرأ ، والماعون ، التي نزلت كل واحدة منها مفرقة على نجمين [دراز] .
– **قلت** : سورة الماعون ذهب ابن عباس وعبد الله بن الزبير والجمهور إلى أنها مكية ، وهناك روايات أنها مدنية عن ابن عباس وقتادة والضحاك ، ولعل هذا الترديد فيها بخصوص ذكر الصلاة فيها والساهين عنها وهم المنافقون ولم يكونوا بمكة ، أما تنجيم هذه السورة فلم يُروَ عن أحدٍ إلا العلامة هبة الله بن سلامة المقري (المتوفي سنة ٤١٠ هـ) حيث ذهب (في كتابه الناسخ والمنسوخ ص ٢٠٥) إلى نزول نصفها في مكة في العاص بن وائل السهمي ، ونصفها في المدينة في عبد الله بن أُبيّ بن سلول المنافق .

(٢) هذا الترديد ناظر إلى اختلاف المفسرين في سورة الأنعام . ومذهب الجمهور أنها نزلت جملة واحدة . وقد روى الطبراني وغيره ذلك عن ابن عباس موقوفاً عليه ، وروى عن أبي بن كعب مرفوعاً بسند فيه ضعف . على أنه لو صح ما ذهب إليه الجمهور في هذه السورة ، لكانت من جملة الشواهد على اتحاد طريقة النظم في المنجمات وغيرها . لأن نظام الانتقال بين المعاني في سورة الأنعام ، مثله في السور المتفق على تنجيمها سواء [دراز] .
– **قلت** : هناك أحاديث كثيرة فيها نزول سورة الأنعام جملة واحدةً ، عن ابن عباس وأسماء بنت يزيد وابن عمر وعلي بن أبي طالب وأُبَيّ بن كعب ومجاهد وأبي جحيفة وعطاء وشهر ابن حوشب وغيرهم ، انظر مجمع الزوائد ٧ / ١٩ ، ٢٠ ، تفسير ابن كثير ٣ / ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، الدر المنثور للسيوطي ٣ / ٣ ، ٤ ، الإتقان للسيوطي ١ / ١٣٨ .

كانت بعد تنزيلها قد جُمِعَت عن تفريق ، فلقد كانت في تنزيلها مفرقة عن جمعٍ ؛ كمثل بنيان كان قائماً على قواعده ، فلما أريد نقله بصورته إلى غير مكانه قُدّرت أبعاده ورُقّمت لبناته ، ثم فُرِّق أنقاضاً فلم تلبث كل لبنة منه أن عرفت مكانها المرقوم ، وإذا البنيان قد عاد مرصوصاً يشدّ بعضه بعضاً كهيئته أول مرة[1] .

أجل إنك لتقرأ السورة الطويلة المنجّمة يحسبها الجاهل أضغاثاً من المعاني حُشيت حشواً ، وأوزاعاً من المباني جُمعت عفواً ؛ فإذا هي لو تدبرتَ بنيةٌ متماسكةٌ قد بنيت من المقاصد الكلية على أُسُس وأصول ، وأقيم على كل أصل منها شُعبٌ وفصول ، وامتدَّ من كل شعبة منها فروعٌ تقصر أو تطول ، فلا تزال تنتقل بين أجزائها كما تنتقل بين حُجُرات وأفنية في بنيان واحد قد وضُع رسمه مرة واحدة ، لا تُحسّ بشيء من تناكر الأوضاع في التقسيم والتنسيق ، ولا بشيء من الانفصال في الخروج من طريق إلى طريق ؛ بل ترى بين الأجناس المختلفة تمام الألفة ، كما ترى بين آحاد الجنس الواحد نهاية التضامّ والإلتحام . كل ذلك بغير تكلف ولا استعانة بأمر من خارج المعاني أنفسها ، وإنما هو حسن السياقة ولطف التمهيد في مطلع كل غرض ومقطعه وأثنائه ، يريك المنفصل متصلاً ، والمختلف مؤتلفاً .

ولماذا نقول إن هذه المعاني تنتسق في السورة كما تنتسق الحُجُرات في البنيان ؟ لا . بل إنها لتلتحم فيها كما تلتحم الأعضاء في جسم الإنسان ، فبين كل قطعة وجارتها رباطٌ موضعي من أنفسهما ، كما يلتقي العظمان عند المَفصِل

---

(١) مما يثبت هذا المعنى : حديث ابن عباس : « **أُنزِلَ القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا في ليلة القدر ، ثم نزل بعد ذلك في عشرين سنة ، ثم قرأ : ﴿ وقرآناً فَرَقْناهُ لِتَقْرأَهُ على الناسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تنزِيلاً ﴾** [سورة الإسراء الآية : ١٠٦] » .
ذكره الحافظ ابن كثير في فضائل القرآن ص ٦ من طريق أبي عبيد القاسم بن سلام وقال : هذا إسناد صحيح أهـ . وبنحوه في فضائل القرآن للنسائي ١٤ ، ١٥ . وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٤ / ٣٧١ للنسائي وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي .

ومن فوقهما تمتد شبكة من الوشائج تحيط بهما عن كثب ، كما يشتبك العضوان بالشرايين والعروق والأعصاب . ومن وراء ذلك كله يسري في جملة السورة اتجاه معيّن ، وتؤدي بمجموعها غرضاً خاصاً ، كما يأخذ الجسم قواماً واحداً ، ويتعاون بجملته على أداء غرض واحد ، مع اختلاف وظائفه العضوية .

فيا ليت شعري ! إذا كانت كافة الأجزاء والعناصر التي تتألف منها وحدة السور منوطةً بأسباب لم تكن كلها واقعة ولا متوقّعة ، وكان لابد لتمام هذه الوحدة من وقوع تلك الأسباب كلها في عصر نزول القرآن ليتناولها ببيانه ، فما الذي أخضع دورة الفَلك لنظام هذه الوحدات وجعل هذه النوازل تتوارد بأسرها في إبان التنزيل ؟ لماذا لم يتفق في حادثة واحدة منها أن تخلفت عن عالم الوجود يومئذ لينخرم هذا النظام فتجيء سورة من السور مبتورة في مُفتتَحها أو في مُختتَمها أو فيما بين ذلك ؟

أليست مطاوعة تلك الأحداث الكونية ، ومعاونتها بدقةٍ دائماً لنظام هذه الوحدات البيانية ، شاهداً واضحاً على أن هذا القول وذاك الفعل كانا يجيئان من طريق واحدة ، وأن الذي صدرت هذه الكلمات عن علمه ، هو نفسه الذي صدرت تلك الكائنات عن مشيئته[1] ؟

بل ليت شعري لو أن هذا الإنسان الغريب الذي جاء القرآن على لسانه كان قد أحصى ما سوف يلده الزمان من مفاجآت الحوادث المستقبلة صغيرة وكبيرة في مدى دهره ، ثم قدّر ما سوف تتطلبه تلك النوازل من تعاليم الفرقان ، فما علّمه بالنظام البياني الذي ستوضع عليه صيغة تلك التعاليم ؟ ثم ما علّمه أيّ هذه التعاليم سيكون قرينة لهذا الجزء أو ذاك ؟ ليتأهب لتلك القرائن قبل ورودها فيودع في كل جزء ساعة نزولة عروةً لائقة بقرينته المعينة ، حتى إذا قدمت استمسكت بعروتها فازدوجت بقرينها ذلك الازدواج المحكم . ولماذا

---

(١) قل : كلٌّ من عند الله سبحانه ، لا معقب لحكمه ، ولا مبدل لكلمته [دراز] .

حين وردت كل قرينة وجدت من قرينها جاراً لا يجور ولا يُجار عليه ، ووجدت بجانبه المكان الذي ينتظرها ، لا ضيقاً فيزاحمها ويتبرم بها ، ولا واسعاً فتنقطع الصلة بينهما ، بل وجدته مقدّراً بمقدارها ، حتى لا حاجة إلى الاستدراك على الماضي بمحو حرف ، ولا بزيادة حرف ، ولا بتبديل وضع ، وحتى لا مجال هناك لقول (ليت ...) ولا (لو أنّ ...) بل كيف عرف كل جزء من هذه الأجزاء أين مجموعته ، وأين مستقره بينها في رأسٍ أو صدرٍ أو طَرفٍ ، من قبل أن تتبين سائر الآحاد والفصائل .. حتى إذا تم توزيع تلك الأجزاء المتفرقة ، والأشلاء الممزقة ، إذا الستار يرتفع في كل سورةٍ عن دُمية حسناء كاملة الأعضاء متناسقة الحِلَى !

أيّ تدبير محكم ، وأيّ تقدير مبرم ، وأي علم محيط لا يضل ولا ينسى ، ولا يتردد ولا يتمكث ؛ كان قد أعدّ لهذه المواد المبعثرة نظامها ، وهداها في إبان تشتيتها إلى ما قدّره لها ، حتى صيغ منها ذلك العقد النظيم ، وسرى بينها هذا المزاج العجيب ؟

سبحان الله ! هل يمتري عاقل في أنّ هذا العلم البشري ؛ وأن هذا الرأي الأُنُف[1] البدائي الذي يقول في الشيء : (لو استقبلت من أمري ما استدبرت لقلت أو فعلت ، ولقدمت أو أخرت) لم يَكُ أهلاً لأن يتقدم الزمان ويسبق الحوادث بعجيب هذا التدبير ؟ أليس ذلك وحده آيةٌ بينةٌ على أن هذا النظم القرآني ليس من وضع بشر ، وإنما هو صنع العليم الخبير ؟ بلى ؛ ﴿ **وَلَوْ كَانَ مِن عِندِ غيرِ اللهِ لَوجَدُوا فِيهِ اختلافاً كثيراً** ﴾ [سورة النساء الآية : ٨٢] .

* * *

أما إن طلبت شاهداً من العيان على صحة ما أَصَّلناه في هذا الفصل من نظام الوحدات في السور على كثرة أسباب اختلافها ، وأما إن أحببت أن نُريك

(١) الأُنُف : الأول غير المسبوق بمثله .

نموذجاً من السور المنجمعة كيف التأمت منها سلسلةٌ واحدة من الفكر تتلاحق فيها الفصول والحلقات ، ونسقٌ واحد من البيان تتعانق فيه الجمل والكلمات ، فأي شيء أكبر شهادةً وأصدق مثالاً من سورة نعرضها عليك هي أطول سور القرآن كافة ، وهي أكثرها جمعاً للمعاني المختلفة ، وهي أكثرها في التنزيل نجوماً ، وهي أبعدها في هذا التنجيم تراخياً .

تلك هي سورة البقرة التي جَمعت بضعاً وثمانين ومائتي آية ، وحَوَت فيما وصل إلينا من أسباب نزولها نيِّفاً وثمانين نجماً ؛ وكانت الفترات بين نجومها تسع سنين عدداً[1] .

* * *

واعلم أنه ليس من همنا الآن أن نكشف لك عن جملة الوشائج اللفظية والمعنوية التي تربط أجزاء هذه السورة الكريمة بعضها ببعض ، فتلك دراسة تفصيلية لها محلها من كتب التفسير . ذلك ولو نشاء لأريناك في القطعة الواحدة منها أسباباً ممدودة عن أيمانها وعن شمائلها تَمُتّ بها إلى الجار ذي القربى والجار الجُنُب ، في شبكة من العلائق يحار الناظر إلى خيوطها . مع أيها يتجه ؟ ولا يدري أيها هو الذي قُصِدَ بالقصد الأول .

---

(١) ففيها ذكر تحويل القبلة ، وذكر صيام رمضان ، وذكر أول قتال وقع في الإسلام فنزل بسببه قوله تعالى ﴿ **يسألونكَ عن الشهرِ الحرامِ** ... ﴾ [سورة البقرة الآية : ٢١٧] وكل أولئك كان نزولهن في أوائل السنة الثانية من الهجرة . وفيها تلك الآية الخاتمة التي نزلت في آخر السنة العاشرة من الهجرة وهي آخر آية نزلت من القرآن بإطلاق ﴿ **واتَّقُوا يَوماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إلى اللهِ** ﴾ [سورة البقرة الآية : ٢٨١] وفيها ما بين ذلك [**دراز**] .

– **قلت** : روى الطبري من حديث ابن عباس قال : « **آخر آية نزلت على النبي** ﷺ ﴿ **واتَّقُوا يوماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إلى اللهِ** ﴾ » ٦ / ٤٠ [ط شاكر] وصححه العلامة أحمد شاكر .

أما تحويل القبلة وصيام رمضان وسرية نخلة فهذه كلها من المشهور المعلوم أنها في السنة الثانية .

وإنما نريد أن نعرض عليك السورة عرضاً واحداً نرسم به خط سيرها إلى غايتها ، ونبرز به وحدة نظامها المعنوي في جملتها ، لكي ترى في ضوء هذا البيان كيف وقعت كل حلقة موقعها من تلك السلسلة العظمى .

بيد أننا قبل أن نأخذ فيما قصدنا إليه نحب أن نقول (كلمة) ساق الحديث إليها : وهي أن السياسة الرشيدة في دراسة النسق القرآني تقضي بأن يكون هذا النحو من الدرس هو الخطوة الأولى فيه ، فلا يتقدم الناظر إلى البحث في الصلات الموضعية بين جزء جزء منه – وهي تلك الصلات المبثوثة في مثاني الآيات ، مطالعها ومقاطعها – إلا بعد أن يُحكم النظر في السورة كلها بإحصاء أجزائها وضبط مقاصدها على وجه يكون معواناً له على السير في تلك التفاصيل عن بيِّنة ؛ فقديماً قال الأئمة[1] : (إن السورة مهما تعددت قضاياها فهي كلام واحد يتعلق آخره بأوله ، وأوله بآخره ، ويترامى بجملته إلى غرض واحد ، كما تتعلق الجمل بعضها ببعض في القضية الواحدة . وإنه لا غنى لمتفهم نظم السورة عن استيفاء النظر في جميعها ، كما لا غنى عن ذلك في أجزاء القضية) .

وبهذا تعرف مبلغ الخطأ الذي يتعرض له الناظرون في المناسبات بين الآيات حين يعكفون على بحث تلك الصلات الجزئية بينها بنظر قريب إلى القضيتين أو القضايا المتجاورة ، غاضين أبصارهم عن هذا النظام الكلي الذي وضعت عليه السورة في جملتها . فكم يجلب هذا النظر القاصر لصاحبه من جور عن القصد ؟ وكم ينأى به عن أروع نواحي الجمال في النظم ؛ وهل يكون مَثله

---

(١) كأبي بكر النيسابوري ، وفخر الدين الرازي ، وأبي بكر بن العربي ، وبرهان الدين البقاعي ، وأبي إسحاق الشاطبي وغيرهم . أما النص المذكور هنا فمستنبط من كلمات للشاطبي في الموافقات ، في المسألة الثالثة عشرة من الكلام على الأدلة تفصيلاً . وقد عرض فيها سورة المؤمنون عرضاً إجمالياً [دراز] .

في ذلك إلا كَمثل امرىء عرضت عليه حُلَّة مَوشِيَّة دقيقة الوشي ليتأمل نقوشها فجعل ينظر فيها خيطاً خيطاً ورقعة رقعة ، لا يجاوز ببصره موضع كفه . فلما رآها يتجاور فيها الخيط الأبيض والخيط الأسود وخيوط أخر مختلف ألوانها اختلافاً قريباً أو بعيداً ، لم يجد فيها من حسن الجوار بين اللون واللون ما يروقه ويونقه[1] . ولكنه لو مدَّ بصره أبعد من ذلك إلى طرائف من نقوشها لرأى من حسن التشاكل بين الجملة والجملة ، ما لم يره بين الواحد والواحد ، ولتبين له من موقع كل لون في مجموعته بإزاء كل لون في المجموعة الأخرى ، ما لم يتبين له من قبل . حتى إذا ألقى على الحلّة كلها نظرة جامعة تنتظم أطرافها وأوساطها بدا له من تناسق أشكالها ودقة صنعتها ما هو أبهى وأبهر . فكذلك ينبغي أن يصنع الناظر في تدبره لنظم السورة من سور القرآن .

(وكلمة أخرى) تمس إليها حاجة الباحث في النسق إذا أقبل على تلك المناسبات الموضعية بين أجزاء السورة : وهي أن يعلم أن الصلة بين الجزء والجزء لا تعني اتحادهما أو تماثلهما أو تداخلهما أو ما إلى ذلك من الصلات الجنسية حسب ، كما ظنه بعض الباحثين في المناسبات فجعل فريق منهم يذهب في محاولة هذا النوع من الاتصال مذاهب من التكلف والتعسف . وفريق آخر متى لم يجد هذه الصلة من وجه قريب ، أسرع إلى القول بأن في الموضع[2] اقتضاباً محضاً ، جرياً على عادة العرب في الاقتضاب .

---

(١) يُونِقُه : يَسُرُّه ويعجبه .

(٢) بل زعم بعضهم أن الاقتضاب هو الأصل في القرآن كله . نقل السيوطي – في الإتقان في بحث المناسبة بين الآيات والسور – عن أبي العلاء محمد بن غانم أن القرآن إنما وقع على الاقتضاب الذي هو طريقة العرب من الانتقال إلى غير ملائم . وكذلك نقل عن عز الدين ابن عبد السلام أن النظر في مناسبة الآي لا يحسن إلا في القضية التي نزلت على سبب واحد ، أما إذا اختلفت الأسباب فالربط بينهما ضرب من التكلف ، لأن القرآن نزل في نيف وعشرين سنة في أحكام مختلفة لأسباب مختلفة وما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضه ببعض أهـ . وقد خالفهما الأئمة ووهموهما [دراز] .

إلا أن هذا الرأي بشعبيته لأوْغَلُ في الخطأ من سابقه[1] ، وإن الأخذ به على عِلَّاته في القرآن لغفلةٌ شديدة عن مستوى البلاغة التي تميز بها القرآن عن سائر الكلام .

فلو أن ذاهباً ذهب يمحو تلك الفوارق الطبيعية بين المعاني المختلفة التي ينتظمها القرآن في سورة منه ،إذاً لجَرَّدَهمن أولى خصائصه وهي أنه لا يسترسل في الحديث عن الجنس الواحد استرسالاً يرده إلى الإطالة المملة . كيف وهو الحديث الذي لا يُمَلّ ؟

ولو أنه – من أجل المحافظة على استقلال هذه المعاني – ذهب يفرقها ، ويقطع أرحامها ، ويزيل التداعي المعنوي والنظمي من بينها ، إذاً لجَرَّده من خاصته الأخرى ، وهي أنه لا ينتقل في حديثه انتقالاً طفريّاً يخرجه إلى حد المفارقات الصبيانية التي تجمع شتى الأحاديث على غير نظام . والتي لا تدع نفس السامع تستشرف إلى اختتام كلام وافتتاح كلام . كيف وهو القول الرصين المحكم ؟

كلا ، بل الحديث فيه كما علمت ذو شجون . ولكنه حين يجمع الأجناس المختلفة لا يدعها حتى يبرزها في صورة مؤتلفة ، وحتى يجعل من اختلافها نفسه قواماً لائتلافها . وهذا التأليف بين المختلفات ما زال هو (العقدة) التي يطلب حلها في كل فنٍ وصنعةٍ جميلةٍ ، وهو المقياس الدقيق الذي تقاس به مراتب البراعة ودقة الذوق في تلك الفنون والصناعات ، فإن تقويم النسق وتعديل المزاج بين الألوان وَالعناصر الكثيرة أصعب مراساً وأشد عناءً منه في أجزاء اللون

---

(١) وهو تضييق دائرة البحث في المناسبات بالتماسها بين المعاني المتجاورة خاصة . فإذا أضيف إلى ذلك التزام طريق معين في المناسبة ، وهو أن تكون من قبيل التجانس المعنوي زادت المسألة ضيقاً وحرجاً . ولذلك أفضى هذا الرأي بأصحابه إلى أحد الطرفين المذمومين : التكلف أو الخروج [**دراز**] .

الواحد والعنصر الواحد .

وعلى هذه القاعدة ترى القرآن يعمد تارة إلى الأضداد يجاور بينها فيخرج بذلك محاسنها ومساويها في أجلى مظاهرها ، ويعمد تارة أخرى إلى الأمور المختلفة في أنفسها من غير تضاد فيجعلها تتعاون في أحكامها بسوق بعضها إلى بعض مساق التنظير أو التفريع ، أو الاستشهاد أو الاستنباط ، أو التكميل أو الاحتراس ، إلى غير ذلك ، وربما جعل اقتران معنيين في الوقوع التاريخي ، أو تجاور شيئين في الوضع المكاني ، دعامة لاقترانهما في النظم ، فيحسبه الجاهل بأسباب النزول وطبيعة المكان خروجاً وما هو بخروج ، وإنما هو إجابة لحاجات النفوس التي تتداعى فيها تلك المعاني . فإن لم يكن بين المعنيين نسب ولا صهر بوجه من هذه الوجوه ونحوها ، رأيته يتلطف في الانتقال من أحدهما إلى الآخر إما بحسن التخلص والتمهيد . وإما بإمالة الصيغ التركيبية على وضع[1] يتلاقى فيه المتباعدان ، ويتصافح به المتناكران .

وهذه كلها وجوه حسنة لو نظر إليها بين آحاد المعاني لأغنى بعضها عن بعض في إقامة النسق .

---

(١) ولقد يعرض في هذا الوجه اللغوي أسرار دقيقة لو سُئِلَ المرءُ البيانَ عن وجه الحسن فيها لعجز عن وصفه ، بل لو سئل أين موضع الوصل منها لصعب عليه تحديده بقاعدة علمية . على أنه لو تناسى تلك الألقاب الاصطلاحية والأسئلة الفضولية وخلى نفسه ووجدانه ثم اتصل بهذه المواضع تلاوة أو استماعاً لما شعر بينها بشيء من الخروج أو الانتقال ينبو عنه الذوق أو يتعثر فيه السمع ، بل يحس بينها بروح الاتصال وحلاوة الانتقال من قبل أن يهتدي لناحية محدودة أو علة معينة .

ومن طالت مزاولته لأساليب الكلام وتذوقه لطعومه حتى رسخت فيه ملكة التمييز بين الجيد منه والرديء وجد من نفسه أهلية هذا الحكم ، إن لم يكن على نحو من الاستدلال المنطقي فعلى ضرب من الاستحسان الفقهي ، ولا سيما إن كان ممن بقيت في عروقهم قطرات من الدم العربي وفي نفوسهم أثارة من الحاسة العربية . فمن أخطأه وجدان هذا الحسن الإجمالي في موضع ما من القرآن فلا يلومن إلا نفسه ولا يعجلن بالحكم قبل =

على أن روعة النظم القرآني كما علمت لا تقوم دائماً على حسن التجاور بين الآحاد ، بل ربما تراه قد أتم طائفة من المعاني ثم عاد إلى طائفة أخرى تقابلها ، فيكون حسن الموقع في التجاور بين الطائفتين موجباً لحسن المقابلة بين الأوائل من كل منهما ، أو بين الأواخر كذلك ، لا بين الأول من هذه والآخر من تلك .

وملاك الأمر في ذلك أن تنظر إلى النظام المجموعي الذي وضعت عليه السورة كلها كما وصيناك به من قبل . ونحن ذاكرون لك الآن نموذجاً منه لو وضعته نصب عينيك واحتذيته في سائر السور لكان ذلك نعم الدليل في دراستك . وبالله التوفيق .

* * *

= أن يأخذ أهبته . وليذكر دائماً أنه بمقياس ما يجده نحو أسلوب القرآن من استحسان أو توقف ، إنما يختبر ما في مزاجه اللغوي من صحة أو اعتلال ، وما في دراسته اللغوية من نقص أو كمال . وأنه ليس بأذواق القاصرين من المولدين أمثاله تختبر لغة القرآن ، كيف وقد دَرَجَ أهلها الذين سجدوا لبلاغته وكان فيهم الحَكَم الذي تُرْضَى حكومته . هذا ، ولكم وقف علم التشريح عن إدراك سر الخلق في بعض الأعضاء الباطنة لعدم الاهتداء لوظيفتها فهل وسع أحداً من علماء التشريح إلهيين أو طبيعيين أن يحكموا بخلوها عن الحكمة والفائدة ؟ كلا؛ فإنهم لما بهرتهم عجائب الصنعة في سائر أجزاء البدن لم يسعهم في القليل الذي جهلوه إلا أن يعترفوا على الجملة بأن له البتة حكمة لم يكشفها العلم ، ثم لا يلبث أن يكشفها لمن أعانته همة البحث وأيده التوفيق [**دراز**] .

نظام عَقْد المعاني في سورة البقرة

اعلم أن هذه السورة على طولها تتألف وحدتها من : مقدمة ، وأربعة مقاصد ، وخاتمة . على هذا الترتيب :

(**المقدمة**) : في التعريف بشأن هذا القرآن[1] ، وبيان أن ما فيه من الهداية قد بلغ حداً من الوضوح لا يتردد فيه ذو قلب سليم . وإنما يعرض عنه من لا قلب له ، أو من كان في قلبه مرض .

(**المقصد الأول**) : في دعوة الناس كافة إلى اعتناق الإسلام .

(**المقصد الثاني**) : في دعوة أهل الكتاب دعوة خاصة إلى ترك باطلهم والدخول في هذا الدين الحق .

(**المقصد الثالث**) : في عرض شرائع هذا الدين تفصيلاً .

(**المقصد الرابع**) : ذكر الوازع والنازع الديني الذي يبعث على ملازمة تلك الشرائع ويعصم عن مخالفتها .

(**الخاتمة**) : في التعريف بالذين استجابوا لهذه الدعوة الشاملة لتلك المقاصد ، وبيان ما يُرجى لهم في آجلهم وعاجلهم .

* * *

---

(١) عرفت في رأس البحث الأول أن لفظ القرآن يطلق على كله وعلى بعضه ، فالإشارة هنا يصح أن تتوجه إلى القرآن جملة ، وأن تتوجه إلى سورة البقرة خاصة . وقد أردنا بقاءها على هذا الاحتمال اقتداء بالنص الكريم : ﴿ **ذلك الكتاب** ﴾ ؛ لأن الإشارة فيه على الاحتمال أيضاً [**دراز**] .

رغبتنا إليك أيها القاريء الكريم حين تدرس معنا تفاصيل هذا النسق أن تستظهر بالمصحف بين يديك لتكون من الموقنين بصحة ما نشير إليه في كل خطوة .

المقــدمة

[في التعريف بشأن هذا القرآن وبيان وضوح هدايته]

في عشرين آية [١ — ٢٠]

(١) بدئت السورة الكريمة بثلاثة أحرف مقطعة لا عهد للعرب بتصدير مثلها في الإنشاء والإنشاد ؛ وإنما عهدوها من القُرَّاء الكاتبين في بدء تعليمهم التهجي للناشئين : — ﴿ ا . ل . م ﴾ [١][١] .

ومهما يكن من أمر المعنى الذي قصد إليه بهذه الأحرف ، والسر الذي وضعت هنا من أجله ، فإن تقديمها بين يدي الخطاب مع غرابة نظمها وموقعها من شأنه أن يوقظ الأسماع ويوجه القلوب لما يلي هذا الأسلوب الغريب .

(٢) وألحقت بهذه الأحرف الثلاثة جملٌ ثلاث :

أما أولاهن فإعلان للسامع أن ما سيتلى عليه الآن هو خير كتاب أخرج للناس ، وأنه ليس في الوجود ما يصلح أن يسمى كتاباً بالقياس إليه — ﴿ **ذَٰلِكَ الْكِتَابُ** ﴾ [٢] .

وأما الأخريان فيدعمان هذا الحكم بالحجة والبرهان . أليس تفاضل الكتب إنما هو بمقياس ما تحويه من حق لا يشوبه باطل ؟ أوَ ليس كمال هذا الحق أن يكون نَيِّراً لا يثير شبهة ؟ أو ليس أكمل الكمال بعد هذا وذاك ، أن يكون ذلك الحق مما تمس إليه حاجة الناس في إنارة السبيل وإقامة الدليل إذا ما اشتبهت عليهم

---

(١) بدءاً من هنا ، عند ذكر آيات سورة البقرة : يذكر رقمها فقط .

السبل وتفرقت المسالك ؟ فذلكم القرآن هو جماع هذه الفضائل الثلاث : فهو الحق المحض الذي لا باطل فيه ، بل هو الحق اللائح الذي لا شبهة باطل فيه ، ثم هو بعد ذلك الهدى المبين الذي يخرج الناس من الظلمات إلى النور ﴿ لاَ رَيْبَ فِيهِ . هُدىً ﴾ [٢] .

هكذا كان موقع هذه الجمل الثلاث بعد تلك الأحرف الثلاثة موقعَ التنويه بالمقصود بعد التنبيه إليه .

وكذلك المربي الصالح (يبدأ) خطابه الجليل الشأن باستنصات الناس واسترعاء أسماعهم ، (ويُثَنِّي) باتخاذ الوسائل المشوقة التي تثير فيهم باعث الإقبال على طلب الاستفادة .

(٣) أول ما تتشوف إليه النفس بعد سماع هذا الوصف البليغ للقرآن وهدايته ، هو تعرف الأثر الذي سيحدثه في الناس ومقدار إجابتهم لدعوته . فمست الحاجة إلى أن ينساق الحديث لبيان هذه الحقيقة العجيبة ، وهي انقسام الناس في شأنه إلى فئات ثلاث :

* فئة تؤمن به .
* وأخرى كافرة .
* وثالثة مترددة حائرة ، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء .

فكيف تُرى ينتقل من الحديث عن الكتاب إلى الحديث عن الناس ؟ أيجعل الحديث عنهم حديثاً مؤتنفاً ائتنافاً بحتاً ؟ .. أم يسوقه مساق الاستدارك على ما قبله ؟ ..

شيء من ذلك لم يكن . ولكن انظر إليه وقد مزج الحديثين مزجاً عجيباً يدع أدق الناس فطنةً لتصريف وجوه القول لا يفطن لما حدث بينهما من الانتقال . ذلك أنه في أول الأمر لم يَعرِض لذكر الطائفتين الأخيرتين ، بل

أعرض عنهما كأن القرآن لم ينزل من أجلهما ، ثم عمد إلى الطائفة الأولى فجعل الحديث عنها من تمام الحديث عن هداية القرآن نفسه قائلاً إنه ﴿ **هُدىً لِلمتَّقينَ * الَّذينَ يؤمنونَ ..** ﴾ [٢ ، ٣] . فكانت هذه (اللام الجارَّة) هي المِعبرَة السِرِّيَّة التي انزلق عليها الكلام وانصب انصباباً واحداً إلى نهاية الحديث عن المؤمنين .

(٤) ولقد كان قصر الانتفاع بهداية القرآن على هذه الطائفة وحدها بعد وصف القرآن بأنه الحق الواضح الذي لا ريبة فيه ، حريّاً في باديء الرأي أن يعدَّ من المفارقات التي تثير في نفس السامع أشد العجب ، إذ كيف تكون الحقائق القرآنية بهذه المرتبة من الوضوح ثم لا تنفذ إلى قلب كل من يسمعها ؟!

ومن جهة أخرى فقد كان موقف هذا النبي الرحيم في جِدّه البالغ في دعوة أمته ، وحرصه الشديد على هدايتهم ، مصوِّراً له في عين من يراه بصورة الطامع في إيمان الناس أجمعين ، الظانِّ أن هذه الأمنية ستصبح في متناول يده متى أخذ في أسبابها العادية ، كأنه يرى أن ليس بينهم وبين هذه الهداية إلا أن يصل صوت القرآن إلى آذانهم فإذا هم مسلمون . ذلك مع أن القرآن يكاد يحدد الآن مهمته ويقول : (إن الذي سينتفع بهداه إنما هو المتقون) . فكان هذا التحديد مظنة لأن يبتهل الرسول إلى ربه قائلاً : سبحانك اللهم ، ولم لا يهتدي به الناس أجمعون !

وجب إذاً أن تُقرَّر الحقيقة بصورة حاسمة لكل طماعية وتردد ، مريحة للنفس من طلب ما لا سبيل إليه . وأن تبين مع ذلك الموانع الطبيعية من عموم هداية القرآن ، بأسلوب ينزه القرآن نفسه عن شائبة القصور ، ويردّ النقص إلى قابلية القابل لا إلى فاعلية الفاعل . وهل يَغُض من مهارة الطبيب أن يُعرِضَ المريضُ عن تناول الدواء منه فيموت بجهله ؟ وهل يضير الشمس ألا ينتفع بنورها العُمي أو المتعامون ؟ – ﴿ **إنَّ الَّذينَ كَفروا سواءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذرتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤمِنُونَ ..** ﴾ [٦] .

هكذا انتقل الحديث عن المؤمنين الذين سبقت لهم الحسنى ، إلى الكافرين الذين حقّت عليهم كلمة العذاب ، لا على وجه اقتران الحديثين في القصد من أول الأمر ، إذاً لعُطف أحدهما على الآخر ، بل على وجه يُبنى فيه بعض الكلام على بعض ، إجابة لهذا السؤال الذي نطقت به الحال ، وإزالة لذلك التعجب الذي أثاره سابق المقال . وهذا هو ما يسميه علماء البلاغة بالاستئناف البياني .

(٥) وجرى الحديث عن هؤلاء إلى نهايته ، فانضم الشكل إلى شكله ، وعطفت الطائفة الثالثة على أختها ؛ لأنهم في التجافي عن الهدى مشتركون ، تتشابه قلوبهم وإن اختلفت ألسنتهم – ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا باللهِ وَباليومِ الآخرِ وَمَا هُم بِمؤمِنينَ ..** ﴾ [٨] .

(٦) وارجع الآن قليلاً إلى نظام الأحاديث عن الطوائف الثلاثة ، لترى كيف تقابلت أوضاعها أتم التقابل ؛ فقد اشتمل الحديث في كل طائفة على ثلاثة عناصر مرتبة على هذا النمط : وصف الحقيقة الواقعة . فبيان السبب فيها . فالإخبار عن نتيجتها المنتظرة .

(**فحقيقة**) الطائفة الأولى أنهم قوم حصَّلوا فضيلة التقوى بركنيها العلمي والعملي . (وسبب ذلك) استمساكهم بالهدى وإمدادهم بالتوفيق من ربهم . (ومآل أمرهم) الفوز والفلاح .

(**وحقيقة**) الطائفة الثانية أنهم مجردون من أساس التقوى وهو الإيمان ، وأنهم مصرون على ذلك إصراراً لا ينفع معه إنذار . (والسبب) عدم انتفاعهم بما وهبهم الله من وسائل العلم ، فلهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها . (وعاقبة أمرهم) العذاب العظيم .

(**وحقيقة**) الطائفة الثالثة صفة مركبة من ظاهر خير وباطن سوء ، فهم يقولون بألسنتهم إنهم مؤمنون ، وليس في قلوبهم من الإيمان شيء . ولكل من الوصفين (سبب) (وجزاء) أما دعواهم الإيمان فسببها قصد المخادعة ، وجزاء

الخداع عائد إليهم . وأما إسرارهم الكفر فسببه مرض قلوبهم ، وجزاؤه زيادة المرض والعذاب الأليم .

وكما بين في الطائفة الثانية أنها بلغت من الإصرار والغباوة مبلغاً لا يجدي معه الإنذار ، بين في الطائفة الثالثة أنها بلغت من الغرور والجهالة المركبة مبلغاً لا ينفع فيه نصح الناصحين ، فهم المفسدون ويزعمون أنهم المصلحون ، وهم السفهاء ويزعمون أنهم الراشدون ، ومن لك بشفاء سقيم يعتقد أنه سليم ؟

ثم كما ختم الكلام في شأن الطائفة الأولى بأن سجل لهم وصف الهدى والفلاح ، ختم الكلام في شأن الطائفتين الأخريين بأن سجل عليهما[1] وصف الضلالة والخسران .

(٧) على أن هذه الأوصاف التحقيقية للطائفتين لم تكن وحدها لتشفي النفس من العجب في أمرهم ، فالعهد بالناس أنهم إنما يختلفون في الأمور الغامضة لا في الحقائق البينة ، فاختلاف هؤلاء في شأن القرآن على وضوحه يعد شاذاً عن العادات الجارية ، محتاجاً إلى وصف تمثيلي يقربه من المشاهَد المُحَسّ ، حتى يطمئن القلب إلى إمكانه .

---

(١) مضى جمهور المفسرين على أن قوله تعالى ﴿ **أولئِكَ الَّذِينَ اشتروا الضلالةَ بالهُدى** ﴾ [١٦] مشار به إلى أقرب الطائفتين في الذكر ، وهم المنافقون ، ولكن المروي عن ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم أنه راجع إلى الكفار مطلقاً . وهذا هو الذي عولنا عليه لأنه أقعد في المعنى وفي النظم . أما في المعنى فلأنه لا واسطة بين الهدى والضلالة (فماذا بعد الحق إلا الضلال) . وإذا كانوا كلهم عن الهدى ناكبين ، وفي الضلالة مشتركين ، فتخصيص الإشارة بالبعض مع إمكان رجوعها إلى الجميع صريحاً تخصيص بغير موجب . وأما في النظم فلأن تناولها للطائفتين يتم به حسن المقابلة بين الإشارتين في قوله ﴿ **أولئِكَ عَلَى هُدىً** ﴾ [٥] وقوله ﴿ **أولئِكَ الَّذِينَ اشتروا الضلالَة بالهدى** ﴾ [١٦] . ثم به يتم جمال الصنعة في تفريق الأقسام ثم جمعها ، ثم تفريقها ثم جمعها . فقد رأيته يفرق الطائفتين في أوصافهما الخاصة ، ثم يجمعهما في هذا الوصف المشترك . وستراه يعود إلى تفريقهما في ضرب الأمثال ، ثم يجمعهما مرة أخرى مع سائر العالم في النداء الآتي : ﴿ **يا أَيُّها النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُم** ﴾ [٢١] **[دراز]**

لذلك ضرب الله لكلتا[1] الطائفتين مثلاً يناسبها .

فضرب مثلاً للمصرِّين المختوم على قلوبهم بقوم كانوا يسيرون في ظلام الليل فقام فيهم رجل استوقد لهم ناراً يهتدون بضوئها ، فلما أضاءت ما حوله لم يفتح بعض القوم أعينهم لهذا الضوء الباهر ، بل لأمرٍ ما سُلبوا نور أبصارهم وتعطلت سائر حواسهم عند هذه المفاجأة . فذلك مثل النور الذي طلع به محمد[2] ﷺ في تلك الأمة الأمية على فترة من الرسل ، فتفتحت له البصائر

---

(١) لعلك ترى هنا شيئاً من المخالفة لكلام المفسرين ، إذ جعلوا المثلين كليهما راجعين إلى المنافقين خاصة ، وجعلناهما موزعين على الطائفتين ، نشراً على ترتيب اللف . ولكنك إذا رجعت بنفسك إلى أجزاء المثلين سترى معنا أن المثل الأول ينطبق تمام الانطباق على الأوصاف التي ذكرها الله للكافرين ، وأن الذي ينطبق على صفات المنافقين إنما هو المثل الثاني وحده . فهؤلاء القوم الذين ﴿ **ذَهَبَ اللهُ بنورِهِمْ وَتَركَهُمْ فِي ظُلماتٍ لا يُبصِرونَ * صُمٌّ بُكمٌ عُميٌ فَهُمْ لاَيَرجِعون** ﴾ [١٧ ، ١٨] أليسوا هم أولئك القوم الذين ﴿ **خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِم وَعَلى أبصَارِهِمْ غِشاوةٌ** ﴾ [٧] . وهذه الظلمات الثابتة المستقرة التي ليس فيها بصيص من نور وليس فيها تقلب ولا تذبذب . هل ترى فيها تصويراً لألوان النفاق ووجوهه المختلفة باختلاف الأحوال ؟ إنك لا تجد هذه الصورة إلا في المثل الثاني حيث يتعاقب فيه الظلام والنور والوقوف والمسير . وكذلك ترى في المثل الثاني قوماً لهم أسماع وأبصار لم يذهب الله بها ولوشاء لذهب . وهذا مناسب لقوله في المنافقين ﴿ **فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ** ﴾ [١٠] فوصفهم بالمرض و لم يصفهم بالختم الكلي على القلوب والحواس .

نعم يمكن تقرير كلام المفسرين على وجه صحيح إذا ضممنا إليه ضميمة . ذلك بأن نقول إن المثل الأول يصور حال المنافقين في بواطنهم وهو الأمر الذي يشاركون فيه سائر الكفار . والمثل الثاني يصور حالهم في ظواهرهم ، وهو الأمر الذي يتقلب عندهم بتقلب الدواعي ، لأن تقلبهم إنما هو في الظاهر لا الباطن . غير أن هذه الدعوى أيضاً محل نظر ، إذ ما يدرينا لعل نوع الكفر الذي يبطنه المنافق نوع خاص يتقلب فيه قلبه بالشك والتردد ، وأن هذا الاضطراب الذي نشاهده على حركاته الظاهرة في أقواله وأعماله إنما هو صورة الاضطراب النفسي الذي يحس به هو في دخيلته ، بخلاف النوع الأول وهو كفر المجاهرين فهو طبيعة واحدة مصممة ، حسبما تشهد به وحدة آثاره [**دراز**] .

(٢) وهذا أيضاً غير ما ذكره المفسرون ، فقد جعلوا مستوقد النار مثلاً (للمنافق الذي تكلف =

= النطق بكلمة الإسلام خداعاً ، فلم ينتفع بها إلا يسيراً في دنياه ، ثم قُضِيَ أجله وأفضى إلى عمله ، فإذا هو في الظلمات والخسران المبين) . هكذا اعتبروا الضمائر المجموعة في قوله ﴿ **ذهب الله بنورهم** ... الخ ﴾ عائدة إلى ﴿ **الذي استوقد** ﴾ بمراعاة معناه ، بعد أن عادت إليه الضمائر المفردة بمراعاة لفظه .

ونحن لا نزعم بطلان هذا التأويل ، ولا ننكر إساغة اللغة له . ولكن الوجه الذي عرضناه هاهنا في شرح المثل يجمع إلى صحته العقلية واللغوية ، أنه مستنبط من النظم القرآني نفسه . ونحسبه مع ذلك أقرب لأسلوب القرآن وأليق بجزالته . فإن لم يكنه فليكن أحد الوجوه التي يحتملها القرآن .

أما كيف استنبطنا هذا المعنى من النظم فإليك بيانه : –

لقد نظرنا إلى المثلين فرأينا الأسلوب فيهما يتجه اتجاهاً متوازياً ؛ إذ وجدنا في صدر كل منهما حديثاً عن شيء مفرد ، وفي عجز كل منهما حديثاً عن جماعة ، ثم نظرنا إلى المثل الثاني فرأينا الضمير المجموع فيه ليس راجعاً إلى مرجع الضمير المفرد ، بل هو راجع باتفاق المفسرين إلى أمر مفهوم من فحوى الكلام هو القوم الذين نزل عليهم الصَّيِّب (ومعلوم أن هذه التشبيهات المركبة التي يُنظر فيها إلى مقابلة المجموع بالمجموع لا يُعنى فيها بالمقابلة اللفظية الأحادية بين ما قبل الكاف وما يليها على الترتيب : بل ربما يكون الاختلاف بينهما كما هنا أمراً مطلوباً للبلغاء في وجيز الكلام ، يقصدون به التنبيه من أول الأمر على ما سيحدثون في التشبيه من طي وتقديم وتأخير ، والتنبيه على أن المشبه به ليس هو مدخول الكاف وحده ، وإنما هو قصة متعددة الفصول ، هذا المدخول أحد فصولها . ذلك ليبقى السامع محتفظاً بانتباهه وتشوقه إلى تمام الكلام الذي به يظهر له التطابق بين طرفي التشبيه ، وبه يمكنه رد كل شيء إلي شبهه – هذا الضرب في أسلوب القرآن كثير ، منه قوله تعالى ﴿ **وَمَثَلُ الَّذِينَ كفروا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ** ﴾ [سورة البقرة الآية : ١٧١] وقوله ﴿ **إنَّما مَثَلُ الحياةِ الدُّنيا كماءٍ** ﴾ [سورة يونس الآية : ٢٤] وقوله ﴿ **أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ** ﴾ [سورة البقرة الآية : ١٩])

حينئذ عدنا إلى المثل الأول فقلنا هل عسى أن يكون هو أيضاً سائراً على هذا النهج حسبما يرشد إليه تعادل الأسلوبين ؟ .. فيكون الضمير المجموع فيه ليس عائداً إلى ﴿ **الذي استوقد ناراً** ﴾ بل إلى القوم الذين استوقدت النار من أجلهم . أليس السامع متى انتهى إلى كلمة ﴿ **ما حوله** ﴾ يزداد شعوراً بأن هنالك قوماً مشبهاً بهم ؟ إذ سرعان ما ينتقل الذهن من المكان إلى السكان .. هذه الخطوة الأولى لم تلبث أن لحقتها الخطوات التالية : وهي =

= أن النور الذي ذهب الله به إذا كان هو نور أولئك القوم ، ولم يكن هو ضوء النار التي استوقدها المستوقد فتلك النار إذاً لم تطفأ ولم يذهب ضوءها.فما يكون مضرب المثل بهذا الضياء الذي بقي هو وذهب غيره ؟ .. ألا يكون هو ضوء الهداية الحقيقية التي أبى الله إلا أن يتمها ولو كره الكافرون . ثم من يكون مضرب المثل بمستوقد النار ؟ .. ألا يكون هو الهادي الأعظم صلوات الله عليه .. فقد استوقد شعلة الهداية الإسلامية ، أي عالج إيقادها أمام زوابع من الفتن وأعاصير من المقاومات العنيفة ، فلما أوقدها وأضاءت ما حوله رغمت بها أنوف أعداء الحق ، الذين أكل الجهل والحسد قلوبهم ، فانطمست بصائرهم ، وكانوا كلما ازدادت هي تألقاً وإشراقاً ، ازدادوا هم ظلمة وانتكاساً .

عند هذا الحد تمت أركان التشبيه ، واستقام هذا المعنى الجديد على أنه احتمال يمكن فهم الآية عليه بحسب اللغة والعقل وبحسب معهود القرآن أيضاً في ضربه النور والضياء مثلاً للهدى والإيمان والظلمة والعمى مثلاً للجهل والكفران . بيد أن اتفاق التفاسير التي بأيدينا على جعل مستوقد النار مثلاً للمنافقين جعلنا نتهيب تأدباً أن نضربه مثلاً للرسول الأمين ، من غير شاهد يؤيد ذلك من الكتاب والسنة .. وما برحت هذه المخالفة التي تحيك في الصدر وتبعد اطمئنان القلب إلى هذا المعنى ، حتى ظفرنا بشاهده الصريح الصحيح في حديث النبي عن نفسه ، حيث يقول ﷺ : « **إنما مثلي ومثل الناس كمثل رجل استوقد ناراً ، فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب التي تقع في النار تقع فيها ، فجعل ينزعهن ويغلبنه فيقتحمن فيها . فأنا آخذ بحُجَزِكم عن النار وأنتم تقتحمون فيها** » . رواه الشيخان . نعم التمثيل به في الحديث من وجه غير الوجه الذي في الآية ولكن هذا لا يضير ، إذ المثل الواحد يضرب لمعانٍ متعددة باعتبارات مختلفة ، والذي يعنينا إنما هو وقوع التمثيل به للنبي الكريم ، وهو صريح في صدر الحديث كما نرى . فبذلك ازدادت النفس ركوناً إلى صحته .

وبعد فما بنا – عَلِمَ الله – حب الخلاف ولا شهوة الإغراب ، ولكنها أمانة العلم والنصيحة لكتاب الله تعالى حملتنا على أن نقول فيه أحسن ما نعلم ؟ ثم شجعتنا على أن نسجل بالقلم هذا الذي قلناه بالفم ، لنعرضه في الطِرْس على أنظار القارئين ، كما عرضناه في الدرس على أسماع الطالبين ، لعل هؤلاء واجدون فيه من مواضع النقد والتمحيص ما لم يجده أولئك . وهذا الباب من أبواب البحث والاستنباط الذي لا يمس أصلاً من أصول الدين ولا يحل حراماً أو يحرم حلالاً لن يزال مفتوحاً لكل مسلم أعطاه الله فهماً في كتابه ، على شريطة القصد والأناة في سير العقل ، ومع الاستضاءة في هذا السير بمصباحين =

المستنيرة هنا وهناك ، لكنه لم يوافق أهواء المستكبرين الذين ألفوا العيش في ظلام الجاهلية ، فلم يرفعوا له رأساً بل نكسوا على رءوسهم،ولم يفتحوا له عيناً بل خروا عليه صمّاً وعمياناً ﴿ **قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمنوا هُدىً وَشِفاءٌ والَّذِينَ لا يُؤْمِنونَ فِي آذانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمىً** ﴾ [سورة فصلت الآية : ٤٤] .

وضرب مثلاً للمترددين المخادعين بقوم جادَتهُم السماء بغيثٍ منهمرٍ في ليلة ذات رعود وبروق . فأما الغيث فلم يلقوا له بالاً ، ولم ينالوا منه نيلاً . فلا شربوا منه قطرة ، ولا استنبتوا به ثمرة ، ولا سقوا به زرعاً ولا ضرعاً . وأما تلك التقلبات الجوية من الظلمات والرعد والبرق فكانت هي مثار اهتمامهم ، ومناط تفكيرهم ، ولذلك جعلوا يترصدونها ، ويديرون أمورهم على وفقها ، لابسين لكل حالٍ لَبُوسها : سيراً تارة ، ووقوفاً تارة ، واختفاءً تارة أخرى .

ذلك مثل القرآن الذي أنزله الله غيثاً تحيا به القلوب ، وتنبت به ثمرات الأخلاق الزكية والأعمال الصالحة ؛ ثم ابتلى فيه المؤمنين بالجهاد والصبر وجعل لهم الأيام دُوَلاً بين السلم والحرب ، وبين الغلب والنصر . فما كان حظ بعض الناس منه إلا أن لبسوا شعاره على جلودهم دون أن يشربوا حبه في قلوبهم أو يتذوقوا ما فيه من غذاء الأرواح والعقول ، بل أهمتهم أنفسهم وشغلتهم حظوظهم العاجلة ، فحصروا كل تفكيرهم فيما قد يحيط به من مغانم يمشون إليها ، أو مغارم يتقونها ، أو مآزق تقفهم منه موقف الروية والانتظار ، وهكذا ساروا في التدين به سيراً متعرجاً متقلباً مبنياً على قاعدة الربح والخسارة والسلامة الدنيوية :

فكانوا إذا رأوا عَرَضاً قريباً وسفراً قاصداً وبرقت لهم (بروق) الأمل

= من اللغة والشرع ، على الحد الذي وصفنا ، والمنهج الذي رسمنا . وبالله التوفيق [**دراز**] .

– **قلت** : حديث « **إنما مثلي ومثل الناس كرجل** ... » متفق عليه من حديث أبي هريرة : رواه البخاري في الرقاق ٦٤٨٢ ، ومسلم في الفضائل ١٨ .

في الغنيمة ساروا مع المؤمنين جنباً إلى جنب . وإذا دارت رحا الحرب وانقضت (صواعقها) منذرة بالموت والهزيمة أخذوا حذرهم وفروا من وجه العدو قائلين ﴿ إِنَّ بُيُوتَنا عَوْرَةٌ ﴾ [سورة الأحزاب الآية : ١٣] أو رجعوا من بعض الطريق قائلين ﴿ لَو نعلَمُ قِتالاً لاتَّبعْناكُم ﴾ [سورة آل عمران الآية : ١٦٧] . حتى إذا كانت الثالثة فلم يلمحوا من الآمال بارقة ولم يتوقعوا من الآلام صاعقة بل اشتبهت عليهم الأمور وتلبد الجو بالغيوم فهنالك يقفون متربصين لا يتقدمون ولا يتأخرون ولكن يلزمون شقة الحياد ريثما تنقشع سحابة الشك ﴿ فَإِن كانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَعَكُمْ وَإِن كانَ لِلكافِرِينَ نصيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَستَحوِذْ عَلَيْكُم ونَمْنعْكُمْ مِن المُؤمِنِينَ ﴾ [سورة النساء الآية : ١٤١] ﴿ وَإِنَّ مِنكُم لَمَن لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبةٌ قال قَدْ أنعمَ اللهُ عَلَيّ إِذْ لَمْ أَكُن مَعَهُمْ شَهِيداً * وَلَئِنْ أصابَكُمْ فَضلٌ مِنَ اللهِ لَيقولَنَّ كَأن لَمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبيْنَهُ مَوَدَّةٌ يا لَيتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فأَفوزَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾ [سورة النساء الآيتان : ٧٢ ، ٧٣] .

ذلك أبداً دأب المنافقين في كل أمرهم : إن توقعوا ربحاً عاجلاً التمسوه في أي صف وجدوه ، وإن توقعوا أذىً كذلك تنكروا للفئة التي ينالهم في سبيلها شيء من المكروه . وإذا أظلم عليهم الأمر قاموا بعيداً لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، أما الذي يؤمن بالله واليوم الآخر فإن له قِبلة واحدة يولي وجهه شطرها ، هي قبلة الحق لا يخشى فيها لومة لائم .

وليس يبالي حين يُقتل مسلماً على أي جنب كان في الله مصرعه

* * *

هنا تمت المقدمة بعد أن وصفت القرآن بما هو أهله ، ووصفت متبعيه ومخالفيه كُلّاً بما يستحقه . ولا مرية أن وصف هذه الطوائف جميعها راجع في المآل إلى الثناء على القرآن ؛ فإن الشيء الذي يكون متبعوه هم أهل الهدى والفلاح ، ومخالفوه هم أهل الضلالة والخسر لا يكون إلا حقاً واضحاً

لا ريب فيه .

فما هو ذلك الحق الذي لا يتبعه إلا مهتد مفلح ، ولا يعرض عنه إلا ضال خاسر ؟ بل ما هو ذلك الحق الذي ضربت له الأمثال بالضياء الباهر والغيث الكثير ؟

لا شك أن هذا كله تشويق أي تشويق لسماع الحقائق التي يدعو القرآن الناس إليها . فانظر على أيّ نحو ساق بيانها .

لقد كان ظاهر السياق يقضي بأن يقال : إن هذه الحقائق هي أن يعبدوا ربهم وحده ويؤمنوا بكتابه ونبيه (... الخ) جرياً على أسلوب الغيبة الذي جرى عليه في وصف الكتاب ، وفي وصف الناس ، ولكنه حوَّل مجرى الحديث من الأخبار والغَيبة إلى النداء والمخاطبة قائلاً : ﴿ **يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ** .. ﴾ [٢١].

أتعرف شيئاً من سر هذا التحويل ؟

إن ذلك الوصف الدقيق الذي وصف القرآن به الطوائف الثلاث (متقين وكافرين ومخادعين) قد نقلهم عند السامع من حال إلى حال ، فبعد أن كانوا غُيّباً في مبدأ الحديث عنهم أصبحوا الآن بعد ذلك الوصف الشافي حاضرين في خيال السامع كأنهم رأي عين ، وفي مكان ينادون منه . فاستحقوا أن يوجه الحديث إليهم كما يوجه إلى الحاضرين في الحس والمشاهدة . هذا من الناحية العامة . وأما من الناحية الأخرى فإن هذه الأمثال البليغة التي ضربت في شأن المعرضين خاصة قد أبرزتهم أمام السامع في صورة محزنة تبعث في نفسه أقوى البواعث لنصحهم وتحذيرهم . حتى إنه لا يشفي صدره إلا أن يناديهم أو يسمع من يناديهم : أن افتحوا أعينكم أيها القوم وتعالوا إلى طريق النجاة . وهكذا استعدت النفس أتم استعداد لسماع هذا النداء : ﴿ **يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ** ﴾ [٢١] الآيات إلى آخر المقصد الأول .

* * *

المقصد الأول من مقاصد السورة

[في دعوة الناس كافةً إلى اعتناق الإسلام]

في خمس آيات [٢١ – ٢٥]

في هذه الآيات الخمس تسمع نداءً قوياً موجهاً إلى العالم كله بثلاثة مطالب :

(١) أن لا تعبدوا إلا الله ولا تشركوا به شيئاً .

(٢) أن آمنوا بكتابه الذي نَزَّله على عبده .

(٣) أن اتقوا أليم عذابه ، وابتغوا جزيل ثوابه .

هذه المطالب الثلاثة هي الأركان الثلاثة للعقيدة الإسلامية تراها قد بسطت مرتبة على ترتيبها الطبيعي . من المبدأ إلى الواسطة إلى الغاية . وترى كل واحد من الركنين الأولين قد أقيم على أساس من البرهان العقلي القاطع لكل شبهة . أما الركن الثالث فقد جيء به مجرداً عن هذا النوع من البرهان ، ولكنه نفخ فيه من روح الإلهاب وتحريك الوجدان بالتحذير والتبشير ما يسد في موضعه مسد البرهان .

على أنك إذا أنعمت النظر في هذا الركن وجدته في غنى عن برهان جديد بعد تقرر سابقيه ، إذ هو منهما بمنزلة النتيجة المنطقية من مقدماتها .

أرأيت لو أن مَلِكاً عظيم السلطان نافذ الحكم وجّه إليك سفيراً يحمل رسالة منه ، وأيقنت أن الذي بيد السفير هو كتاب الملك المختوم بخاتمه ، أكان يعوزك برهان جديد لتحقيق ما يحويه الكتاب من عجيب الأنباء والنُذُر ، بعدما وقر في نفسك من العلم بأنه كلام مَن إذا قال صدق وإذا وعد أنجز ؟

فكذلك ترى الحديث هنا عن السمعيات جيء به مُفَرَّعاً على ما تقرر في أمر النبوات ، وبضربٍ من التخلص هو غاية في الحسن والبراعة : ﴿ **فَإِن**

لَمْ تَفعَلُوا ... فَاتَّقُوا النَّارَ ﴾ [٢٤] .

* * *

عودٌ على بدءٍ : في أربع عشرة آية [٢٦ - ٣٩] :

(١) بدأ الكلام في السورة - كما علمت - بوصف القرآن بما فيه من الهدى إجمالاً ، فكان من الحق أن يعود إلى وصف طريقة القرآن في هذه الهداية ، ليقول إنها هداية كاملة بالبيان الوافي الشامل لكل شيء ، فانظر كيف مهّد لهذا الانتقال تمهيداً يتصل من أول السورة إلى هذا الموضع :

أما المقدمة فقد وصف فيها الفرق الثلاث وصفاً شافياً ضرب للناس أمثالهم ، وحقق أن الذين كفروا اتبعوا الباطل ، وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم .

وأما المقصود فقد بين فيه أن لله وحده المثل الأعلى الذي لا يشاركه فيه شيء من الأنداد ، ثم وضع فيه الفيصل بين النبي والمتنبي بتلك المعجزة العالمية التي لا يستطيع أحد من دون الله أن يأتي بمثلها ، ثم ذكر مَثَل النار التي أعدت للكافرين ، ومَثَل الجنة التي وعد المتقون .

فتراه قد تناول في هذه الأمثال ضروباً شتى من الحقائق علويةً وسفليةً ، مادية ومعنوية ... حتى كانت نهاية الحديث أن عرض ما في الجنة من أنواع المتع واللذائذ الشخصية والجنسية ، تلك المعاني التي قد يستحي المرء من ذكرها ، وقد يخالها الجاهل نابية عن سنن الخطاب الإلهي الأعظم ، غافلاً عن أنه الحق الذي لا يستحي من الحق ، وأنه الرحيم الذي يتنزل برحمته إلى مستوى العقول البشرية فيبين لهم كل ما يحتاجون إلى بيانه مما يحبون أو يكرهون ، ومما يرجون أو يحذرون .

وهكذا انساق الحديث من ذكر هذه النماذج المتفاوتة إلى استنباط القاعدة

الكلية منها ، ببيان أن هذه هي طريقة القرآن في هدايته ، فهو يضرب الأمثال كلها ، ويبين الحقائق حلوها ومرها ، واضعاً كل شيء في موضعه ، مسمياً له باسمه ، لا يبالي أن يتناول في بيانه جلائل الأمور أو محقراتها : ﴿ **إِنَّ اللهَ لا يَستَحْيي أَن يضرِبَ مَثلاً مَا بَعُوضةً فَمَا فوقَها** ﴾ [٢٦] .

حقاً إن شأن هذا الكتاب في تفصيل الحق والباطل والضار والنافع شأن كتاب الأعمال في تفصيل الحسنات والسيئات . كلاهما لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها .

وكما أن وصف القرآن بالهدى إجمالاً قد جر هناك إلى ذكر انقسام الناس في قبول هدايته ، وإلى النعي على من أعرض عنه ، كذلك وصف طريقته في الهداية قد جر هاهنا إلى مثل هذا التقسيم : ﴿ **يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهدِي بِهِ كَثِيراً** ﴾ [٢٦] وإلى النعي على الضالين بذكر مساوئهم وتفصيل نقائصهم ﴿ **وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلا الفَاسِقِينَ** .. ﴾ [٢٦] .

وكما أن بيان أوصافهم هناك قد جلاهم أمام السامع في صورة تحرك داعيته لسماع ندائهم بالنصح والتعليم ، كذلك بيان أوصافهم هنا قد استفز النفوس إلى سماع مخاطبتهم بالتعجيب والإنكار : ﴿ **كَيفَ تَكفُرونَ بِاللهِ** .. ﴾ [٢٨] الآيات .

(٢) وكذلك عاد الكلام إلى المقصد الأول بأركانه الثلاثة ، ولكن في ثوب جديد :

* (أما في الركن الأول) : فقد سمعته هناك يأمر بعبادة الله ، وتسمعه هنا ينهى عن الكفر بالله .

وهناك ذكرهم بنعمة إيجادهم مجملة ، وهنا يذكرهم بها مفصلة متممة . وهناك عرفهم بنعمة تسخير الأرض والسماء لهم ، وهنا يعرفهم بذلك في شيء من التفصيل .

* (وأما في الركن الثاني) : فقد ذكر هناك نبوة هذا النبي الخاتم ، وهنا يذكر نبوة ذلك النبي الأول آدم ، لنعلم أن نبينا لم يكن بدعاً من الرسل ، وأن أمر التشريع والنبوات أمر قديم يتصل بنشأة الإنسان . وقد مهد لهذا البيان بذكر تاريخ تلك النشأة العجيبة وما جرى في شأنها من الحديث مع الملائكة ، ذلك الحديث الدال على مزيد العناية الإلهية بهذا النوع البشري ، إذ اختاره الله لخلافة الأرض وآثره على سائر الخلق بفضيلة العلم ؛ ليكون الامتنان بذلك جارياً مع الامتنان بالنعم المذكورة في الركن الأول على أحسن نسق ... ثم اتصل من هذا التفضيل إلى شرح ما نشأ عنه من حسد إبليس وعداوته القديمة للإنسان الأول ومخادعته إياه بوساوسه ، وما انتهى إليه أمر الخادع والمخدوع من ابتلائهما وابتلاء ذريتهما بالتكاليف . وهو - كما ترى - حديث يطلب بعضه بعضاً ، ويأخذ بعضه بأعناق بعض .

* (وأما في الركن الثالث) : فقد رأيته هناك يصف الجنة والنار بما لهما من وصف رائع أو مروع . وتراه هنا يكتفي عن وصفهما بذكر اسمهما وتعيين أهلهما ناظماً وضع الأجزية مع وضع التكاليف في سلك واحد ، ومتخلصاً أحسن تخلص من أحدهما إلى الآخر ، بتقرير أن اتباع التكاليف أو عدم اتباعها هو مناط السعادة أو الشقاوة في العقبى .

ولقد ختم الكلام هنا - كما ختمه في المقدمة - بشأن المخالفين تمهيداً للانتقال مرة أخرى إلى نداء فريق منهم ودعوتهم إلى الإسلام وهو المقصد الثاني .

* * *

المقصد الثاني من مقاصد السورة
[في دعوة أهل الكتاب دعوةً خاصةً
إلى ترك باطلهم والدخول في هذا الدين الحق]

في ثلاث وعشرين ومائة آية [٤٠ - ١٦٢]

بحسبك أن تعلم أن هذه السورة هي غرة السور المدنية ، وأن المدينة

كان يسكنها أشد الناس عداوةً للذين آمنوا ، وأكثرُهم جدالاً في دينهم بما أوتوه من العلم قبلهم . بحسبك أن تعلم هذا وذاك لتعرف سر تلك العناية الموفورة بهذا الجانب من الدعوة ، نعني دعوة بني إسرائيل خاصة بعد دعوة الناس عامة ولتعلم حكمة ذلك التبسط في الحديث معهم تارة ، والحديث عنهم تارة أخرى ، بألوان تختلف هجوماً ، ودفاعاً ، واستمالةً ، واستطالةً ، إلى ما بعد نصف السورة .

وسترى حين تنتقل في هذه الأحاديث مرحلة مرحلة ما يملك قلبك من جمال نظامها ودقة تقسيمها .

(بدأ) الكلام معهم بآية فذة [٤٠] هي على قلة كلماتها جامعة لأغراض الحديث كله ؛ ففيها يناديهم بأحب أسمائهم وأشرف أنسابهم ويذكّرهم بسابق نعمة الله عليهم إجمالاً ، ويبني على ذلك دعوتهم إلى الوفاء بعهدهم ، ويرغبهم ويرهبهم .

(ثم) رجع إلى هذه الأغراض يفصلها على تدرّج وبقدر معلوم فشرح العهد الذي طلب منهم الوفاء به ، في ست آيات [٤١ – ٤٦] . وبَيَّن مقدار النعمة التي امتن بها عليهم في آية [٤٧] ومقدار المخافة التي خوفهم منها في آية أخرى [٤٨] .

(ثم) قسم الحديث إلى أربعة أقسام :

* (القسم الأول) : يذكر فيه سالفة اليهود منذ بعث فيهم موسى عليه السلام .

* (القسم الثاني) : يذكر فيه أحوال المعاصرين منهم للبعثة المحمدية .

* (القسم الثالث) : يذكر فيه أوَّلية المسلمين منذ إبراهيم عليه السلام .

* (القسم الرابع) : يذكر فيه حاضر المسلمين في وقت البعثة .

١ - ذكر سالفة اليهود [٤٩ - ٧٤] :

استهل الخطاب في هذا القسم بثماني آيات يعرّف فيها بني إسرائيل بتفاصيل المِنن التي امتن بها عليهم مرة بعد مرة ، وهي تلك النعم التاريخية القديمة التي اتصل أثرها وسرى نفعها من الأصول إلى الفروع ، فجعل يذكّرهم بأيام الله فيهم :

* يوم أنجاهم من آل فرعون .
* ويوم أنجاهم من اليمّ وأغرق أعداءهم فيه .
* ويوم واعدهم بإنزال الكتاب عليهم .
* ويوم حقق وعده بإنزاله .
* ويوم قبل توبتهم عن الردة والشرك بالله .
* ويوم قبل توبتهم عن التمرد على نبيهم واقتراح العظائم عليه .

وإنها لنعم جليلة (سابقة للذنب ولاحقة) تُليِّنُ ذكراها القلوبَ وتحرك الهمم لشكر المنعم وامتثال أمره .

وقبل أن ينتقل من تذكيرهم بتلك النعم الجليلة المُطْمِعَة للشاكرين في المزيد ، إلى تذكيرهم بجرائمهم وما حاق بهم من ضروب النكال الموجبة للامتثال والاعتبار ، جعل بين الحديثين برزخاً مزج فيه ذكر بعض النعم بذكر ما قابلوها به ، بعد أن أعد النفس للسير على هذا البرزخ بالتفاتة يسيرة، فيها رمز الإعراض وعدم الرضا ، فبَيَّنَ أنه تعالى متعهم فوق هذا كله متاعاً حسناً إذ ظلل عليهم الغمام ، ورزقهم من الطعام والشراب رزقاً هنيئاً من حيث لا يحتسبون ، ومن حيث لا كد ولا نصب ، فظلموا أنفسهم وبطروا تلك النعمة وحرفوا كلمة الشكر بتبديلها هزواً ولعباً ، واقترحوا بدل ذلك الرزق الناعم عيشة الكدح والعناء ، فألزمهم الله ما التزموا وضرب عليه الذلة والمسكنة .

وهنا مَحَضَ الحديثَ لذكر المخالفات والعقوبات ، فذكر أنهم باءوا بغضب

من الله لأنهم كفروا بآيات الله وقتلوا النبيين (غير أنه استثنى المؤمنين منهم من هذا الغضب) وتمردوا على أوامر التوراة جملةً حتى أُرغِموا عليها ، ثم تولوا عنها بعد ذلك حتى صاروا جديرين بأن ينزل بهم ما نزل بأهل السبت لولا فضل الله عليهم ؛ وأنهم تباطئوا في تنفيذ أمر نبيهم وبلغ بهم الجهل بمقام نبوته أن ظنوا في بعض تبليغه عن ربه أنه هازل فيه غير جاد ..

حلقة الاتصال بين القسمين الأول والثاني [٧٤] :

وأراد القرآن أن يصل حاضرهم بماضيهم فانظر كيف وضع بينهما حلقة الاتصال في هذه الآية التي ختم بها القسم الأول : ﴿ **ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِن بَعدِ ذَلِكَ فَهِيَ كالحِجَارةِ أَوْ أَشَدُّ قَسوةً** ﴾ [٧٤] فقوله﴿ **من بعد ذلك** ﴾ كلمة حددت مبدأ تاريخ القسوة ولم تحدد نهايته ، كأنها بذلك وضعت عليه طابع الاستمرار ، وتركته يتخطى العصور والأجيال في خيال السامع ، حتى يظن أن الحديث قد أشرف به على العصر الحاضر ، ثم لم يلبث هذا الظن أن ازداد قوة بصيغة الجملة الإسمية في قوله ﴿ **فَهِيَ كالحِجَارةِ** ﴾ دون أن يقول : (فكانت كالحجارة) .

ثم انظر كيف كان انتهاؤه إلى وصف قلوبهم بهذا الوصف توطئة لتغيير الأسلوب فيهم ، فإن من يبلغ قلبه هذا الحد من القسوة التي لا لين فيها يصبح استمرار الخطاب معه نابياً عن الحكمة ، ويصير جديراً بصرف الخطاب عنه إلى غيره ممن له قلب سليم . وهكذا سينتقل الكلام من الحديث معهم في شأن سلفهم إلى الحديث معنا في شأنهم أنفسهم .

٢ - ذكر اليهود المعاصرين للبعثة [٧٥ - ١٢١] :

افتتح الكلام في هذا القسم بجملة طريفة ليست على سَنَنِ ما قبلها وما بعدها من السرد الإخباري ، جملة استفهامية يكتنفها حرفان عجيبان (أحدهما) : يعيد إلى الذاكرة كل ما مضى من وقائع القسم الأول.(والآخر) :

يفتح الباب لكل ما يأتي من حوادث هذا القسم . وتقع هي بين التاريخين القديم والحديث موقع العبرة المستنبطة والنتيجة المقررة ، بين أسبابٍ مضت وأسبابٍ تأتي: ﴿ **أَفَتَطْمَعونَ أن يُؤمِنوا لكُم وَقَدْ كانَ فَرِيقٌ مِنْهُم** ﴾ [٧٥] .

فهذه الفاء تقول لنا : أبعد كل ما قصصناه يطمع طامعٌ في إيمان هؤلاء القوم ، وهم الوارثون لذلك التاريخ الملوث ؟ وهذه الواو تقول : (هذا . ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون ..) .

ويعود السرد الإخباري إلى مجراه التفصيلي ، فيقص علينا من مساويء أوصاف الحاضرين منهم ومنكرات أفاعيلهم وأقاويلهم زهاء عشرين سبباً لا تبقي مطمعاً لطامع في إيمانهم ، سواء منها ما كان مختصاً بهم وما كان يشاركهم فيه غيرهم من أسلافهم أو من النصارى أو الوثنيين .

ثم لا يدع زعماً من مزاعمهم إلا قَفَّى عليه بما يليق به من الرد والتفنيد .

● (وقد بدأ هذا الوصف) بتقسيمهم إلى فريقين : علماء يحرفون كلام الله ويتواصون بكتمان ما عندهم من العلم لئلا يكون حجة عليهم ، وجهلاء أميين هم أسارى الأماني والأوهام ، وضحايا التضليل والتلبيس الذي يأتيه علماؤهم . فمن ذا الذي يطمع في صلاح أمةٍ جاهلُها مُضَلَّل مخدوع يأخذ باسم الدين ما ليس بدين ، وعالمها مُضَلِّل خادع يكتب الكتاب بيده ويقول هذا من عند الله .

● (وثَنَّى) ببيان منشأ اجترائهم على كل موبقة ، ألا وهو غرورهم بزعمهم أن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودة . ولقد أمر النبي أن يُوسِع هذا الزعم دحضاً وإبطالاً ، وأن يتدرج معهم في هذه المجادلة على درجات المنطق السليم والبحث المستقيم :

* فيبدأ بمطالبتهم البرهان على ما زعموا .

* ثم ينقضه ببيان مخالفته لقانون العدل الإلٰهي الذي لا يعرف شيئاً من الظلم ولا المحاباة لأحد ، بل الخلق أمامه سواء ؛ كل امريء رهين بعمله ، ومن

يعمل سوءاً أو حسناً يُجْزَ به .

* ثم يعارضه بقلب القضية عليهم ، مبيناً لهم أنهم من أولئك الذين كسبوا السيئات وأحاطت بهم خطيئاتهم : ألم يؤخذ عليكم الميثاق بتقوى الله والإحسان إلى الناس فتوليتم ؟ ألم يؤخذ عليكم الميثاق بترك الإثم والعدوان فاعتديتم ؟ ثم آمنتم ببعض الكتاب وكفرتم ببعض ، وحكمتم أهواءكم في الشرائع فكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم .

● (ثم أتبع ذلك سائر هنَّاتهم) فذَكَرَ :

١ – تصامُّهم عن سماع الحق بدعوى أن قلوبهم مقفلة .

٢ – كفرهم بالكتاب الجديد لأنه أنزل على غيرهم ، بعد أن كانت أعناقهم مشرئبة إليه ينتظرون ظهوره على يد نبي ينصرهم على المشركين .

٣ – دعواهم القيام بواجبهم وهو الإيمان بما أنزل عليهم وكفى ، مع أنهم كافرون حتى بما أنزل عليهم ، وتلك شِنْشِنَتهم[1] منذ عبدوا العجل وأشربوا حبه في قلوبهم .

٤ – زعمهم أن لهم الدار الآخرة خالصة ، ثم مناقضتهم أنفسهم في ذلك بكراهتهم الموت وشدة حرصهم على الحياة .

٥ – عداوتهم لجبريل لأنه أنزل الكتاب على غيرهم ، مع أنه إنما أنزل بعلم الله .

٦ – تكرر نبذهم للعهود .

٧ – اشتغالهم بكتب السحر وترك كتاب الله وراء ظهورهم .

٨ – لَيِّهم ألسنتهم في خطاب الرسول بكلمة[2] تنطوي على الاستهزاء به

---

(١) شِنْشِنَتهم : طبيعتهم وعادتهم .

(٢) هي قول ﴿ راعنا ﴾ وهي كلمة ظاهرها الأدب ، ولكنها في العربية لها معان أخرى حمقاء . وفي العبرانية كلمة شتم قريبة منها ؛ فإن لفظ (رع) عند اليهود معناه شقي شرير . ولفظ (راع) معناه الشر والشقاوة فإذا أضيف إلى ضمير المتكلمين صار بلسانهم (راعينو) =

والطعن في دينه وإن كان ظاهرها التعظيم له ، أو يراد منها إحراجه بكثرة الأسئلة والمقترحات كما سُئِلَ موسى من قبل (وقد سيق هذا في قالب تحذير المؤمنين من أن يقولوا تلك الكلمة) .

٩ – حقدهم وأثرتهم هم وسائر المخالفين من أهل الكتاب والمشركين وكراهيتهم أن ينزل الوحي على غيرهم ، مع أن لله أن يختص بنبوته من يشاء ، وله أن ينسخ شريعة ويأتي بشريعة أخرى مثلها أو خير منها .

١٠– رغبة كثير منهم في أن يردوا المؤمنين كفاراً .

١١– زعم كل من اليهود والنصارى أنه لن يدخل الجنة غيرهم ، أماني يتمنونها بغير برهان .

١٢– طعن كلتا الطائفتين في أختها بقول اليهود : ليست النصارى على شيء ، وقول النصارى : ليست اليهود على شيء ، وطعن المشركين في كلتيهما .

١٣– اشتراك الطوائف الثلاث في السعي لإخلاء المساجد من ذكر الله .

١٤– اشتراكهم في الجهل بالله ونسبتهم الولد إليه .

١٥– اشتراكهم في التوقف عن الإيمان بالرسل حتى يكلمهم الله بغير واسطة أو ينزل عليهم آية ملجئة .

● (ثم ختم هذه الهنَّات) بأدعاها إلى اليأس من إيمانهم ، وهو أنهم يطمعون في تحويل الرسول نفسه إلى اتباع أهوائهم ، فكيف يطمع هو في

= ومعناه في الخطاب أنت ضرنا وشقوتنا ... ولعلهم والله أعلم كانوا يلوون ألسنتهم في النطق بها ليقربوها من الصيغة العربية ستراً لنيتهم واكتفاءً بالرمز المفهوم فيما بينهم . فأمر الله المؤمنين أن يخاطبوا الرسول بقوله ﴿ **انظُرْنا** ﴾ حتى لا يجد المنافقون سبيلاً إلى التلاعب بلفظ ذي وجهين . أو أيضاً فإن ﴿ **راعنا** ﴾ كلمة يقولها السائل المستقصي يطلب بها إصغاء المسئول إليه حتى يفرغ هو من أسئلته . وتلك عادة اليهود عند إكثارهم من السؤال . فأمر الله المؤمنين أن يحافظوا على حسن الاستماع حتى لا يحتاجوا إلى السؤال ، وأن يقولوا ﴿ **انظُرْنا** ﴾ وهي كلمة يقولها المتعلم إذا أراد التثبت مما يقال له لا الزيادة عليه [**دراز**] .

استتباعهم إلى هُداه ؟ كلا . ولكن حسبه أن الراسخين في العلم منهم وهم الذين يتلون الكتاب حق تلاوته يؤمنون بهذا الهدى الذي جاء به ، والكافرون هم الخاسرون .

٣ - ذكر قدامى المسلمين من لدن إبراهيم [١٢٢ - ١٣٤] :

شأن المصلح الحكيم في دعوته شأن الزارع ، يبدأ بالأرض فيقتلع أشواكها وينقيها من حشائشها الضارة قبل أن يلقي فيها البذور الصالحة أو يغرس فيها الأشجار النافعة ، وكذلك الداعي الحكيم يبدأ بالنفوس فيلويها عن الباطل والفساد ثم يوجهها إلى طريق الحق والهدى . فهذان دَوْرَان يقوم في أحدهما بالتطهير والتخلية ، وفي الثاني بالتكميل والتحلية . وأنت قد رأيت الكلام في دعوة بني إسرائيل قد مضى إلى هذا الحدّ في بيان عوج الطريق الذي يسلكونه ، ورأيته قد أوسع البيان في ذلك حتى أتى على نهاية الدور الأول . أليس من الحق إذاً أن يبدأ الدور الثاني فيبين الطريق السوي الذي يجب أن يسلكوه ؟

ثم رأيت كيف اختتم البيان السابق بذكر هدى الله والعلم الذي علّمه لنبيه وذكر الفريق الذي يُرجَى إيمانهم به من أهل الكتاب ، وهم الذين يتلون الكتاب حقّ تلاوته ، أليس هذا الاختتام نفسه مطلعاً تشرف النفس منه على هذا الافتتاح ؟

ثم رأيت الحديث في الدور الأول منقسماً إلى قسمين : قسم يتحدث فيه عن ماضي اليهود ، وقسم يتحدث فيه عن حاضرهم . ألا يكون من حسن التقابل أن يقسم الحديث الثاني إلى القسمين . عن ماضي المسلمين وعن حاضرهم ؟

ذلك هو ما تراه فيما يلي :

بل سترى ما هو أتم مقابلة ومشاكلة ، فسيجري الكلام في القسم الأول هنا على سنن الخطاب مع بني إسرائيل ، والكلام في القسم الثاني على سنن التحدث عنهم ، كما جرى هنالك في القسمين سواء .

وأكبر من هذا كله أنك ترى الآيتين الكريمتين اللتين صدَّر بهما أول الحديث هناك قد صدر بهما أول الحديث هنا . ليدعوهم إلى اعتناق الحق بمثل ما دعاهم به إلى اجتناب الباطل ، وليتقرر في نفس السامع من أول الأمر أن الحديث سيعود كما بدأ ، ولكن في طريق يقابل ذلك الطريق ، وبمعنى جديد هو عدلٌ لذلك المعنى القديم : ﴿ **يا بَنِي إسْرائيلَ اذكُروا نِعْمَتِيَ التِي أَنعَمْتُ عليكُمْ وأَنِّي فَضَّلْتُكمْ عَلَى العَالَمِينَ * واتَّقوا يَوْماً لا تَجزِي نَفْسٌ عَن نَفْسٍ شَيْئاً وَلا يُقْبلُ مِنها عَدلٌ وَلا تَنفعُها شَفاعةٌ وَلا هُم يُنصَرُون * وَإذ ابْتَلَى إبرَاهيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ ..** ﴾ [١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤] .

وهكذا أنشأ يدعو بني إسرائيل إلى طريق السلف الصالح ، لا بأسلوب الأمر والتحريض الذي جرّب من قبل فلم ينجع فيهم ، بل بأسلوب قصصي جذاب يعرض فيه ذلك التاريخ المجيد لإبراهيم عليه السلام وأبنائه وأحفاده في العصور الذهبية التي لا يختلف أحد من أهل الكتاب ولا المشركين في تعظيمها ومحبتها ومحبة الانتساب إليها ، مكرراً على لسانهم جميعاً تلك الكلمة العذبة التي تركها إبراهيم باقية في عقبه فتوارثها أبناؤه وأحفاده يوصي كل منهم بها بَنِيهِ ، كلمة (الإسلام لله رب العالمين) .

وتراه في أثناء عرضه لتاريخ إبراهيم عليه السلام وإمامته للناس ، لا ينسى أن يحكي كلماته التي دعا به ربه أن يجعل من ذريته إماماً للناس كما جعله هو .

ثم تراه حين يروي قيام إبراهيم وابنه إسماعيل ببناء البيت المعظم الذي جعله الله حراماً آمناً ومثابة للناس وقبلة لصلاتهم ، لا ينسى أن يحكي تضرعهما إلى الله أن يجعل من ذريتهما أمة مسلمة وأن يبعث فيهم رسولاً منهم يعلمهم ويزكيهم .

ممهّداً بهذا وذاك لتقرير تلك الصلة التاريخية المتينة التي تربط هذا النبي وأمته بذينك النبيين الجليلين . لا صلة البنوة النسبية فحسب ، بل صلة المبدأ

ورابطة الوحدة الدينية أيضاً ، فهم من ذريتهما ، ووجودهم تحقيق لقبول دعوتهما ، ومِلّتهم مِلّتهما ؛ وقبلتهم قبلتهما ، ومثابتهم في حجهم مثابتهما .

ومقرراً في الوقت نفسه انقطاع مثل هذه النسبة المشرفة عن اليهود الذين ينتسبون بالبنوة لإبراهيم ويعقوب وهم عن ملتهما منحرفون ولوصيتهما مخالفون . فماذا يغني النسب عن الأدب ؟ ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه **﴿ تِلكَ أُمةٌ قَدْ خلتْ لَها مَا كَسَبتْ ولَكُم مَا كَسبْتُمْ ولاَتُسْئلونَ عمَّا كانوا يَعْملُون ﴾** [١٣٤] .

٤ – ذكر حاضر المسلمين وقت البعثة [١٣٥ – ١٦٢] :

واتصل ذكر الخلف بذكر السلف ، وخرج الكلام من التلويح إلى التصريح ، فأقبل يقرر – في جلاءٍ – صلة هذه الأمة المسلمة بتلك الأمة الصالحة في أصول ملتها وفي أهم فروعها ، ويقص علينا ما يحاوله سفهاء الأحلام من بني إسرائيل وغيرهم لحرمان المسلمين من تلك الصلة ، وذلك بدعوتهم المسلمين إلى اتباع ملتهم تارة ، وبالطعن في قبلتهم تارة أخرى ، ويكر على كلتا المحاولتين بالهدم والاستئصال .

وقد رأيت الحديث الآنف كيف امتزج فيه ذكر ملة إبراهيم بذكر قبلته فانظر كيف كان ذلك تأسيساً قوياً لما يُبنى عليه هنا من ذكر ملة المسلمين وذكر قبلتهم .

قال في شأن الملّة : إن أهل الكتاب يدعونكم – بعد هذا البيان – أن تكونوا هوداً أو نصارى . فقولوا لهم : بل نتبع ملة إبراهيم حنيفاً وعَرِّفوهم جلية الأمر في هذه الملة الحنيفية وأنها إيمان بالله وإيمان بكل ما أنزل على النبيين لا نفرق بين أحد منهم . هذه عقديتنا بيضاء ناصعة فأي ركنيها تنقمون منا ، وفي أيها تخاصموننا ؟ أفي الله وهو ربنا وربكم ، أم في إبراهيم وبنيه وهم

[ما][1] كانوا هوداً أو نصارى ﴿ **تِلكَ أُمةٌ قَدْ خَلَتْ لَها مَا كَسَبتْ وَلَكُم مَا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [١٤١] .

وكان هذا الترديد وحده كافياً لإفحامهم وإغلاق الباب في وجوههم من هذه الناحية ، إذ تبين أن أصول هذه الملة أمنع من أن نقبل الجدال في شيء منها .

فانتقل عنها وشيكاً إلى إبطال محاولتهم الأخرى في مسألة (الكعبة المعظمة) التي عليها يدور العمل بشعيرتين هما أعظم شعائر الإسلام وأظهرها (الصلاة والحج) ، والتي قد تقرر ما لها من الأصل الأصيل في الدين باتخاذ إبراهيم وإسماعيل إياها مثابةً ومُصَلَّى . ولكن هذا لم يكن كافياً لإسكات المجادلين الذين اتخذوا من تحول المسلمين إليها وتركهم القبلة التي كانوا عليها مطعناً على النبوة فَتَنوا به بعض ضعفاء المؤمنين ، فمَسَّت الحاجة إلى مزيد بسط في شأنها تتقرر به الحجة وتُدحَض به الشبهة . ولذلك تراه يوجه إليها أكبر الشطرين من عنايته :

* فيأمر النبي باديء ذي بدء أن يجيب المتسائلين عن حكمة هذا التحويل جواب عزة وإباء يرد الأمر فيه إلى مَنْ لا يُسْئَلُ عما يفعل ، قائلاً لهم : إن الجهات كلها سواء ، يوجهنا الله منها إلى ما يشاء وهو الذي يهدي إلى الصراط المستقيم .

* ثم أخذ يأمر النبي تارة ، والمؤمنين تارة ، ويأمرهما معاً تارة أخرى ، في أسلوب مؤكد مفصل أن يثبتوا على هذه القبلة حيث هم ، وفي كل مكان يقيمون فيه حضراً ، وفي كل مكان يخرجون منه سفراً .

* وطفق ينثر في تضاعيف هذه الأوامر المؤكدة ما شاء من تعريف بأسرار التشريع القديم والجديد ، فيقول إن تشريع تلك القبلة الوقتية ما كان إلا اختباراً لإيمان المهاجرين ليتبين من يتبع الرسول ممن ينقلب علي عقبيه ، وأما تشريع

---

(١) ما بين القوسين لم يكن في المطبوعة ، ولكن السياق لا يستقيم إلا بها .

هذه القبلة الباقية فإنه ينطوي على الحِكَم البالغة والمقاصد الجليلة ، فهي القبلة الوسطى التي تليق بكم أيتها الأمة الوسطى ، وهي القبلة التي ترضاها ياأيُّها النبي والتي طالما قَلَّبْتَ وجهك في السماء مستشرفاً إلى الوحي بها ، وهي القبلة التي يعلم أهل الكتاب أنها الحق من ربهم وإن كانوا يكتمون ذلك حسداً وعناداً ، وهي القبلة التي يشهد الله بأنها الحق من عنده ، وأخيراً هي القبلة التي لا يبقى لأحد من المنصفين حجة عليكم ، أما الظالمون فلن ينقطع جدالهم في شأنها ما بقيت عداوتهم لكم ، ولكن لا تخشوهم ، بل وطنوا أنفسكم على التضحية في سبيل الله ، واصبروا ولا تحزنوا على من سيُقْتل منكم في هذه السبيل ، فإن الموت فيها هو الحياة الباقية .

* ثم أومأ إلى أن الجدال في هذه القبلة ليس صدّاً عن الشعائر التي في داخل المسجد الحرام فحسب ، بل هو كذلك صدّ عما حوله من الشعائر ﴿ **إنَّ الصَّفَا والمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللهِ** ﴾ [١٥٨] .

* ثم أكد أمر هاتين الشعيرتين على نحو ما أكد أمر القبلة بالتعريض بأهل الكتاب الذين يعلمون أصلهما في تاريخ إبراهيم ؛ ولكنهم يكتمون ما أنزله الله من البينات وهم يعلمون .

* * *

أرأيت هذه المراحل الأربع التي سلكها القرآن في دعوة بني إسرائيل كيف رتبها مرحلة مرحلة وكيف سار في كل مرحلة منها خطوة خطوة .

فارجع البصر كرة أخرى إلى هذه المرحلة الأخيرة منها ، لتنظر كيف استخدم موقعها هذا لتحقيق غرضين مختلفين ، وجعلها حلقة اتصال بين مقصدين متنائيين . فهي في جملتها مناجاة من الله للنبي والمؤمنين في خاصة شأنهم وفيما يعنيهم من أمر دينهم ، ولكنه جعل هذه النجوى طرفين ، لوَّنَ كل طرف منها بلون المقصد الذي يتصل به ، فالتقى المقصدان فيها على أمر قد قُدِر .

ألم تر كيف بدأها بأن قَصَّ على المؤمنين مقالة أعدائهم في بعض حقائق الإسلام ، وعمد إلى هذه الحقائق التي تماروا فيها فجعل يمسح غبار الشبهة عن وجهها حتى جلاها بيضاء للناظرين . فكانت هذه البداية كما ترى نهاية لتلك المعارك الطويلة التي حورب فيها الباطل في كل ميدان .

ثم رأيت كيف ساق الحديث فجعل يثبت أقدام المؤمنين على تلك الحقائق النظرية والعملية ، ويحرضهم على الاستمساك بها في غير ما آية .. أفلا تكون هذه النهاية بداية لمقصد جديد بعدها يراد به هداية المؤمنين إلى تعاليم الإسلام مفصلة ؟

بلى .. إن ذلك هو ما توحي به سياق هذه النجوى المتواصلة ، التي مدت في خطاب المؤمنين مداً . وحولت مجرى الحديث معهم رويداً رويداً ، حتى صار كل من ألقى سمعه إليها ملياً ، يسمع في طيها نداءً خفياً : أن قد فرغنا اليوم من الأعداء جهاداً ، وأقبلنا على الأولياء تعليماً وإرشاداً ، وأن قد طوينا كتاب الفجار ، وجئنا نفتتح كتاب الأبرار ، وأن هذه الصفحة الأخيرة من دعوة بني إسرائيل لم تكن إلا طليعة من كتائب الحق ، تنبيء أن سيتلوها جيشه الجرار ، أو شعاعة من فجر الهدى سيتحول الزمان بها من سواد الليل إلى بياض النهار . ألا ترى الميدان قد أصبح خالياً من تلك الأشباح الإسرائيلية التي كانت تتراءى لك في ظلام الباطل تهاجمها وتهاجمك . هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً[1] ؟ .

أو لا ترى هذه الأشعة الأولى من شمس الشريعة الإسلامية قد انبعثت يسوق بعضها بعضاً : أصول جامعة نظرية ، تتبعها طائفة من فروعها الكبرى العملية .. ألم يأنِ لسائر الفروع أن تجيء من خلفها حتى تبلغ الشمس ضحاها ..

---

(١) رِكْزاً : الرِكْز هو الصوت البعيد أو الضعيف .

هكذا تفتحت الآذان لسماع شرائع الإسلام مفصلة . فلو أنها أقبلت علينا الآن عداً وسرداً ما حسبنا الحديث عنها حديثاً مقتضباً .

لكن القرآن ، وقد وُضِعَ على أدق الموازين البيانية وأرفقها بحاجات النفوس ، لم يشأ أن يهجم على المقصود مكتفياً بهذا التمهيد بل أراد أن يقدم بين يديه شقة تستجم النفس فيها من ذلك السفر البعيد ، وتأخذ أهبتها لرحلة أخرى إلى ذلك المقصد الجديد . فانظر فيما يلي :

المدخل إلى المقصد الثالث : في خمس عشرة آية [١٦٣ - ١٧٧]

نَيِّف وعشر من الآيات الكريمة ، هي بمثابة الدهليز بين الباب والدار يقطعها السائر في خطوات ثلاث :

* (الخطوة الأولى) تقرير وحدة الخالق المعبود .
* (الخطوة الثانية) تقرير وحدة الآمر المطاع .
* (الخطوة الثالثة) فهرس إجمالي للأوامر والطاعات المطلوبة .

(الخطوة الأولى) تقرير وحدة الخالق المعبود .

لقد جاءت هذه الخطوة في أشد أوقات الحاجة إليها بين سابقها ولاحقها ، فإن ما مضى من تعظيم أمر الكعبة والمقام والصفا والمروة كان من شأنه أن يلقي في روع الحديث العهد بالإسلام معنى من معاني الوثنية الأولى في تعظيم الأحجار والمواد ، ولا سيما وهذه الأماكن المقدسة كانت يومئذ مباءةً للأصنام والأنصاب من حولها ومن فوقها ، فوجب ألا يترك هذا التعظيم دون تحديد وتقييد ، وألا تُترك هذه الخلجات النفسية دون دفع وإبعاد ، حتى لا يبقى شك في أن قيام المصلين عند مقام إبراهيم وتوجيه وجوههم نحو الكعبة ، وتمسح الطائفين بأركانها ، وطواف الحجاج والمعتمرين بين الصفا والمروة ، كل أولئك لا يقصد به الإسلام توجيه القلوب إلى هذه الأحجار

والآثار تزلفاً[1] بعبادتها أو رجاءً لرحمتها أو طلباً لشفاعتها وإنما يقصد تعظيم الإله الحق وامتثال أمره بعبادته في مواطن رحمته ومظان بركته ، التي تنزلت فيها على عباده الصالحين من قبل ، ثم تجديد ذكرى أولئك الصالحين في النفوس ، وتمكين محبتهم في القلوب ، باقتفاء آثارهم ، والتأسي بحركاتهم وسكناتهم ، حتى يتصل حاضر الأمة بماضيها ، وحتى تنتظم منها أمة واحدة تدور حول محور واحد ، وتتجه إلى مقصد واحد هو أعلى المقاصد وأسماها ﴿ **وإلٰهكم إله واحد لا إلٰه إلا هو** ﴾ [١٦٣] أتدرون من هو .. ؟ إنه ليس الكعبة وليس الصفا والمروة ، ليس إبراهيم ولا مقام إبراهيم ، ولكنه ﴿ **الرحمٰن الرحيم** ﴾ [١٦٣] الذي وسع كل شيء رحمة ونعمة ﴿ **إن في خلق السماوات والأرض ... لآيات لقوم يعقلون** ﴾ [١٦٤] والذي بيده القوة كلها والبأس كله : لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد ﴿ **ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً وأن الله شديد العذاب** ﴾ [١٦٥] .

هذا من جانب المقصد الذي وقع الفراغ منه .

وأما من جانب المقصد الذي أقبلنا عليه فإن هذه الخطوة كانت أساساً وتقدمة لا بد منها قبل الشروع في تفصيل الأحكام العملية ، لتكون توجيهاً للأنظار إلى الناحية التي ينبغي أن يُتَلَقى منها الخطاب في شأن تلك الأحكام . ذلك أن المرء إذا عرف له سيداً واحداً وأسلم وجهه إليه وجب ألا يَصْدُر إلا عن أمره ولا يأخذ التشريع إلا من يده . ومن كانت له أرباب متفرقون ، وتنازعت فيه شركاء متشاكسون تقاضاه كل واحد منهم نصيبه من طاعته ، وكثرت عليه مصادر الأمر المطاع . فأمر للآباء والعشيرة ، وأمر للعرف والعوائد الموروثة والمستحدثة ، وأمر للسادة والكبراء ، وأمر للشياطين والأهواء .. ولذلك عززها بالخطوة الثانية .

---

(١) تَزَلُّفاً : تَقَرُّباً .

(الخطوة الثانية) تقرير وحدة الآمر المطاع .

وهي ركن من عقيدة التوحيد في الإسلام ، فكما أن من أصل التوحيد ألّا تتخذ في عبادتك إلهاً من دون الرحمن الذي بيده الخلق والرزق والضر والنفع ، كذلك من أصل التوحيد ألا تجعل لغيره حُكْماً في سائر تصرفاتك ، بل تعتقد أن لا حُكْم إلا له ، وأن بيده وحده الأمر والنهي ، والحلال ما أحلَّه الله ، والحرام ما حرَّمه الله ، ومن استحلَّ حرامه أو حرَّم حلاله فقد كفر . وكما أنه لا يليق أن يكون هو الخالق ويُعبَد غيره والرازق ويُشكَر غيره ، لا يليق أن يكون هو الحاكم ويُطاع غيره[1] .

﴿ **ياأيّها النّاس كلوا مما في الأرضِ حلالاً طيّباً ولا تتبعوا خُطواتِ الشيطان** ﴾ [١٦٨] .

---

(١) لا شك أن الشيخ محمد عبد الله دراز - رحمه الله - في تصريحه القوي وبيانه الواضح هنا في قضية الحكم بما أنزل الله ، إنما يلحق بركب العلماء الربانيين في تجردهم وإخلاصهم للنصح لدين الله وشرعه ، الذين صدعوا بالحق غير هائبين ، لا طامعين في ذهب المُعِزّ ولا خائفين من سيفه ، لا يخشون إلا الله . وانظر بعض ما يوضح هذه القضية :

● وصف الله سبحانه وتعالى المعرضين عن الحكم والتحاكم إلى شرعه بأوصاف شنيعة في القرآن الكريم منها :

* **الكفر** : ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون** ﴾ [سورة المائدة الآية : ٤٤] .
* **الشرك بالله** : ﴿ **أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله** ﴾ .

[سورة الشورى الآية : ٢١]

وأيضا ﴿ **ما لهم من دونه من ولي ولا يشرك في حُكْمِه أحداً** ﴾ [سورة الكهف الآية : ٢٦]

* **التحاكم إلى الطاغوت** : ﴿ **ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أُمِروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً** ﴾ [سورة النساء الآية ٦٠] .
* **النفاق** : ﴿ **وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً** ﴾ [سورة النساء الآية : ٦١] .
* **الضلال واتباع الهوى** : ﴿ **يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيُضِلَّك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب** ﴾ [سورة ص الآية : ٢٦] .

وأيضاً ﴿ **فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع اهواءهم**] [سورة المائدة الآية : ٤٨] =

= * اتباع حكم الجاهلية : ﴿ أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ﴾ [سورة المائدة الآية : ٥٠] .

* انتفاء الإيمان : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شَجَر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ﴾ [سورة النساء الآية : ٦٥] .

* الظلم : ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون ﴾ [سورة المائدة الآية : ٤٥] .

* الفسق : ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ﴾ [سورة المائدة الآية : ٤٧] .

* مرض القلب والريبة وسوء الظن بالله ورسوله : ﴿ وإذا دُعُوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون * وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين * أفي قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف اللهُ عليهم ورسولُه بل أولئك هم الظالمون ﴾ .

[سورة النور ، الآيات : ٤٨ - ٥٠] .

* مخالفة هدي المؤمنين : ﴿ إنما كان قول المؤمنين إذا دُعُوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون ﴾ [سورة النور الآية : ٥١] .

* عبادة المصلحة والطمع بالباطل : ﴿ وإذا دُعُوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون * وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين ﴾ [سورة النور ، الآيات : ٤٨ - ٤٩] ، فمدلول الآيات أنهم يعرضون عن التحاكم إلى الله ورسوله إلا في حالة واحدة هي تيقنهم أن الحكم سيكون لهم . فهم في الحقيقة عُبَّاد لطمعهم الباطل وأهوائهم .

* تقليد الكفار والمشركين : ﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ﴾ [سورة البقرة الآية : ١٧٠] .

* الافتراء في الدين ، والاغترار بهذا الافتراء : ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يُدعَون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات وغرَّهم في دينهم ما كانوا يفترون ﴾ [سورة آل عمران الآية : ٢٣] .

* الجهل : ﴿ ثم جعلناك على شريعةٍ من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون ﴾

[سورة الجاثية ، الآية : ١٨]

● وقال الشيخ عبد العزيز بن باز - حفظه الله - في رسالته (وجوب تحكيم شرع الله ونبذ ما خالفه) ص ٦ :

لا يتم إيمان العبد إلا إذا آمن بالله ورضي حكمه في القليل والكثير ، وتحاكم إلى شريعته وحدها في كل شأن من شئونه : في الأنفس والأموال والأعراض ، وإلا كان عابداً لغيره كما قال تعالى ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن أعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ =

= [سورة النحل الآية : ٣٦] فمن خضع لله سبحانه وأطاعه وتحاكم إلى وحيه فهو العابد له ، ومن خضع لغيره وتحاكم إلى غير شرعه فقد عَبَدَ الطاغوت وانقاد له ، كما قال تعالى ﴿ **ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أُمِروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً** ﴾ [سورة النساء الآية : ٦٠] أ هـ .

● وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره ١٣ / ١٢٢ :
وقوله ﴿ **أفحكم الجاهلية يبغون ، ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون** ﴾ : ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله المحكم المشتمل على كل خير ، الناهي عن كل شر ، وعَدَلَ إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله ، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات ، مما يضعونها بآرائهم وأهوائهم ، وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم جنكزخان الذي وضع لهم (الياسق) وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى ، من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية ، وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه ، فصارت في بنيه شرعاً مُتبعاً ، يقدمونها على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ . ومن فعل ذلك منهم فهو كافر يجب قتاله ، حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله ، فلا يُحَكِّم سواه في قليل ولا كثير ... ومن أعدل من الله في حكمه لمن عقل عن الله شرعه ، وآمن به ، وأيقن وعلم أنه تعالى أحكم الحاكمين ، وأرحم بخلقه من الوالدة بولدها ، فإنه تعالى هو العالم بكل شيء ، القادر على كل شيء ، العادل في كل شيء أ هـ .

● وقال الحافظ ابن كثير أيضاً في البداية والنهاية ١٣ / ١٢٨ (بعد أن ذكر بعضاً من أحكام الياسق وهو كتاب التشريع الذي وضعه جنكيز خان المغولي لقومه) : وفي ذلك كله مخالفة لشرائع الله المنزلة على عباده الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . فمن ترك الشرع المحكم المنزل على محمد بن عبد الله خاتم الأنبياء ، وتحاكم إلى غيره من الشرائع المنسوخة كَفَرَ ، فكيف بمن تحاكم إلى الياسا وقدمها عليه ؟ من فعل ذلك كَفَرَ بإجماع المسلمين أ هـ .

● وقال الشيخ أحمد شاكر القاضي الشرعي وعضو المحكمة الشرعية العليا وعالم الحديث المعروف رحمه الله ... في عمدة التفسير ٤ / ١٧٣ عقب نقل الكلام السابق للحافظ ابن كثير :
أقول : أفيجوز – مع هذا – في شرع الله أن يُحكم المسلمون في بلادهم بتشريع مقتبس عن تشريعات أوربا الوثنية الملحدة ؟ بل بتشريع تدخله الأهواء والآراء الباطلة ، =

ولقد سلك في تقرير هذه الوحدة التشريعية نحواً من مسلكه في تقرير وحدة الإلهية .

= يغيرونه ويبدلونه كما يشاءون ، لا يبالي واضعه أوافق شرعة الإسلام أم خالفها ؟

إن المسلمين لم يُبْلَوا بهذا قط - فيما نعلم من تاريخهم - إلا في ذلك العهد ، عهد التتار ، وكان من أسوأ عهود الظلم والظلام ، ومع هذا فإنهم لم يخضعوا له ، بل غلب الإسلامُ التتارَ ، ثم مزجهم فأدخلهم في شرعته . وزال أثر ما صنعوا ، بثبات المسلمين على دينهم وشريعتهم ، وبأن هذا الحكم السيء الجائر كان مصدره الفريق الحاكم إذ ذاك ، لم يندمج فيه أحد من أفراد الأمم الإسلامية المحكومة ، ولم يتعلموه ولم يعلموه أبناءهم . فما أسرع ما زال أثره .

أفرأيتم هذا الوصف القوي من الحافظ ابن كثير - في القرن الثامن - لذاك القانون الوضعي ، الذي صنعه عدو الإسلام جنكزخان ؟ ألستم ترونه يصف حال المسلمين في هذا العصر ، في القرن الرابع عشر إلا في فرقٍ واحد أشرنا إليه آنفاً : أن ذلك كان في طبقة خاصة من الحكام . أتى عليها الزمان سريعاً ، فاندمجت في الأمة الإسلامية ، وزال أثر ما صنعت .

ثم كان المسلمون الآن أسوأ حالاً وأشدَّ ظلماً وظلاماً منهم . لأن أكثر الأمم الإسلامية الآن تكاد تندمج في هذه القوانين المخالفة للشريعة والتي هي أشبه بذاك (الياسق) الذي اصطنعه رجل كافر ظاهر الكفر . هذه القوانين التي يصطنعها ناس ينتسبون للإسلام ، ثم يتعلمها أبناء المسلمين ، ويفخرون بذلك آباءً وأبناءً ، ثم يجعلون مردَّ أمرهم إلى معتنقي هذا (الياسق العصري) ويحقرون من يخالفهم في ذلك ، ويسمون من يدعوهم إلى الاستمساك بدينهم وشريعتهم (رجعياً) و (جامداً) ! إلى مثل ذلك من الألفاظ البذيئة ...

إن الأمر في هذه القوانين الوضعية واضحٌ وضوح الشمس ، هي كفرٌ بواح ، لا خفاء فيه ولا مداورة ، ولا عذر لأحدٍ ممن ينتسب للإسلام - كائناً من كان - في العمل بها أو الخضوع لها أو إقرارها . فليحذر امرؤ لنفسه ، و (كل امريء حسيب نفسه) .

ألا فليصدع العلماء بالحق غير هيابين ، وليُبلغوا ما أُمِروا بتبليغه ، غير موانين ولا مقصرين أ هـ .

* (فبدأها) بأن تعرف إلى الناس بنعمة الله الشاملة ورحمته الكاملة في سهولة الشريعة وملاءمتها للفطرة ، إذ أنه في سعة الاختيار لم يحرم عليهم من الطعام إلا أربعة أشياء[1] كلها رجس خبيث ، وأحلَّ لهم ما وراء ذلك أن ينتفعوا بسائر ما في الأرض من الحلال الطيب ، وفي ضيق الاضطرار جعل المحظورات كلها تنقلب مباحات مرفوعاً عنها الحرج ﴿ **فمن اضطرّ غيرَ باغٍ ولا عادٍ فلا إثمَ عليه إن الله غفور رحيم** ﴾ [١٧٣] وناهيك بهذا الأسلوب تليينا للقلوب وحملاً لها على الخضوع لأمر هذا الرب الرءوف بعباده . أفمن يحل لكم الطيبات ويحرم عليكم الخبائث أحق أن يطاع ، أم من ﴿ **يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون** ﴾ [١٦٩] ؟ أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع ، أم من ﴿ **لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون** ﴾ [١٧٠] .

* (ثم ختمها) بتعريفهم مبلغ غضبه وانتقامه ممن يكتم أمره ونهيه ويبدلهما بغير ما أمر ونهى ويأخذ على ذلك الرشا والسحت ﴿ **أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم** ﴾ [١٧٤] .

والناظر في منهج هذا التقرير إذا تأمل وجه اختيار حديث المطاعم والمكاسب من بين ضروب الحلال والحرام يرى من لطائف موقعه هنا ما يعرف به أنه هو العروة الوثقى التي شد بها وثاق البيان ، وسدت بها الفروج بين خطواته السابقة واللاحقة .

فهو من الوجهة العملية أحد تلك الفروع التي سينتقل إليها الحديث عما

---

(١) وهي :
* المَيْتَة : غير المذبوح من الحيوان المأكول .
* الدم : أي الدم المسفوح .
* لحم الخنزير .
* ما أُهِلَّ به لغير الله : أي ما ذُبحَ للأنصاب والأوثان والأزلام ونحو ذلك مما كان أهل الجاهلية يذبحون له .

قريب ، فذكره هاهنا يعد إشعاراً بقرب الشروع في المقصد الجديد ، ثم هو من الجهة الاعتقادية يتصل اتصالاً تاريخياً وثيقاً بعقيدة التوحيد التي هو بصددها ، ذلك أن أهل الجاهلية من وثنيين وكتابيين لما اتبعوا خطوات الشيطان فأزلهم عن توحيد المعبود حتى اتخذوا من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ، لم يطل عليهم الأمد حتى فتح لهم باب التشريك في التشريع بعد التشريك في العبادة . فجعلوا يُحَرِّمون من الحَرْث والأنعام حَلالَها ويُحِلُّون حَرَامها ، بل جعلوا عند ذبح أنعامهم يُهِلُّون بها لغير الله – يهتفون بأسماء آلهتهم – ويستحلون طُعْمَتها بذلك ، فجمعوا فيها بين مفاسد ثلاث : المعصية والبدعة والشرك الأكبر .

وكأن باب التحريم والتحليل في المطاعم والمكاسب كان هو أول باب فُتِحَ في الجاهلية للتشريع بغير إذن الله ، ولذلك كان هو أول باب سَدَّه القرآن بعد باب الشرك الأكبر ، فترى النهي عنه والنص عليه وبيان الحق فيه تالياً لذكر العقائد حتى في السور المكية كسورة الأنعام(1) ، والأعراف ، ويونس ، والنحل ، وغيرها .

ومما زاد موقعه هنا حسناً أن مجيئه في سياق ذكر التوحيد وقع عدلاً لمجيء حكم القبلة في سياق ذكر مِلَّة إبراهيم ، فكلاهما فرع عظيم يتصل بأصل عظيم ، ألا ترى كيف ختم الكلام في شأنه بمثل ما ختم به هناك من وعيد المعاندين(2) ﴿ **الذين يكتمون ما أنزل الله** ﴾ [١٧٤] ؟ أو لا ترى كيف أن الإسلام جعل

---

(1) اقرأ في سورة الأنعام سبعاً وعشرين آية أولها قوله : ﴿ **وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا ..** ﴾ [الآيات : ١٢٦ – ١٥٢] وفي سورة الأعراف قوله : ﴿ **قل من حَرَّم زينة الله التي أخرج لعباده ..** ﴾ [الآيتين : ٣١ و ٣٢] وقوله : ﴿ **فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عَرَض هذا الأدنى ..** ﴾ [الآية : ١٦٩] وفي سورة يونس قوله : ﴿ **قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالاً ...** ﴾ [الآيتين ٥٩ و ٦٠] وفي سورة النحل قوله : ﴿ **ولا تشتروا بعهد الله ثمناً قليلا ..** ﴾ [الآية : ٩٥] وقوله : ﴿ **إنما حَرَّم عليكم الميتة والدم ..** ﴾ [الآيتين : ١١٥ – ١١٦] [**دراز**].

(2) إشارة لقوله تعالى هناك : ﴿ **ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله ..** ﴾ [١٤٠] .

مسألتي القبلة والذبائح كليهما من الشعائر التي يتميز بها المسلم عن غيره . كما يتميز بالشهادة والصلاة : « **من صلى صلاتنا ، واستقبل قبلتنا ، وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم الذي له ذمة الله ورسوله** »(١) .

على أن بدعة التحريم بالرأي في هذا الباب لم تقتصر على الفئة الخارجة عن الملة . بل إن بعض المسلمين في عصر النبوة كادت تصيبهم عدوى الأمم قبلهم ، إذ هموا أن يترهبوا ، ويحرموا على أنفسهم الطيبات من الطعام وغيره(٢) ، لا تحريماً لما أحل الله منها ؟ بل زهادة فيها وحملاً للنفس على الصبر عنها بضربٍ من النذر أو اليمين أو العزيمة المصممة . فرد عليهم القرآن هذا الابتداع وأغلق بابه إغلاقاً ، حتى لا يكون مَدْرَجَة(٣) لما وراءه ، ونبههم إلى أن من قضية توحيدهم لله أن ينزلوا على حكمه فيما أحلَّ لهم ، قياماً فيه بشريعة الشكر ، كما نزلوا على حكمه فيما حرَّم عليهم قياماً فيه بشريعة الصبر : ﴿ **يأيُّها الذين آمنوا كلوا مِن طيِّبات ما رزقناكم واشكروا للهِ إن كنتم إياه تعبدون** ﴾ [١٧٢] .

فانظر كيف كان خطاب الناس عامة بهذا الأصل ولواحقه توطئة لخطاب المؤمنين خاصة به وبما سيتلوه من الأحكام ، كما أن خطاب الناس عامة بأركان الإسلام في صدر السورة كان توطئة لما تلاه من خطاب بني إسرائيل خاصة بدعوتهم إلى الدخول فيه قلباً وقالباً . هل ترى أحسن من هذا النسق المتقابل المتعادل ؟ .

---

(١) هو حديث أنس بن مالك مرفوعاً ، وتتمته : « **فلا تخفروا الله في ذمته** » رواه البخاري في الصلاة ٣٩١ .

(٢) ومن ذلك حديث أنس المتفق عليه : « **جاء ثلاثة رهطٍ إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ ، فلما أُخبِروا كأنهم تَقالُّوها ، فقالوا : وأين نحن من النبي ﷺ ؟ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . قال أحدهم : أما أنا فأنا أصلي الليل أبداً . وقال آخر : أنا أصوم الدهر ولا أفطر . وقال آخر : أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً . فجاء رسول الله ﷺ فقال : أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له ، لكني أصوم وأفطر ، وأصلي وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني** » رواه البخاري في النكاح ٥٠٦٣ ، ومسلم في النكاح ٥ .

(٣) مَدْرَجَة : مسلك وطريق .

والآن وقد أخذت النفس أهبتها لتلقي سائر الأوامر والنواهي انظر كيف خطا إليها الخطوة الثالثة والأخيرة .

(الخطوة الأخيرة) إجمال الشرائع الدينية

وترى فيها عجائب من صنعة النسق :

(١) انظر إلى حسن التخلص في ربطه بين المقصد القديم ، والمقصد الجديد على وجه به يتصلان لفظاً ، وبه ينفصلان حكماً .. فهو في جمعها لفظاً كأنه يضع إحدى قدميك عند آخر الماضي ، وثانيتهما عند أول المستقبل . ولكنه في تفريقها حكماً بأداتي النفي والاستدراك كأنما يحول قدميك جميعاً إلى الأمام . ﴿ **ليس البرَّ أن تُوَلوا وجوهَكم قِبَلَ المشرق والمغرب ولكن ..** ﴾ [١٧٧] .

يقول : إن مسألة تعيين الأماكن والجهات في مظاهر العبادات – تلك المسألة التي شغلت بال المخالفين والمؤالفين نقداً ورداً – ليست هي كل ما يُطلب الاشتغال به من أمر البر ، بل هي شعبة واحدة من جملة الشُّعَب التي تشتمل عليها خصلة واحدة من جملة خصاله . وإنما البر كلمة جامعة لخصال الخير كلها : نظرية وعملية ، في معاملة المخلوق ، وعبادة الخالق ، وتزكية الأخلاق ، فبتلك الخصال جميعها فليُشْغَل المؤمنون الصادقون .

(٢) ثم انظر إليه حين أقدم على تفصيل تلك الخصال كيف أنه لم يُقبل عليها دفعة واحدة ، بل أخذ يتدرج إليها في رفق ولين ، فتقدم بكلمة فوق الإجمال ودون التفصيل ، هي بمثابة فهرس لقواعد الإيمان ولشرائع الإسلام ﴿ **ولكن البِرَّ من آمنَ بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ..** ﴾ [١٧٧] .

(٣) وانظر إلى سرد قواعد الإيمان هنا كيف عدل بها عن ترتيبها المطبوع الذي راعاه في صدر السورة غير مرةٍ ، فتراه هنا يجمع بين الطرفين (الإيمان بالله واليوم الآخر) وختم بالواسطة (الإيمان بالملائكة والكتاب والنبيين) .

ذلك لأن من هذه الوسائط تُعرف الأحكام الشرعية ، وعن يدها تؤخذ فأُخِّرَها لتتصل بها تلك الأحكام حتى لا يحول بين الأصل وفرعه حائل ، ولذلك راعى ترتيب أركان هذه الواسطة فيما بينها ؛ فصدَّر بالملائكة وهم حملة الوحي ، وثنى بالكتاب وهو الوحي المحمول . وثلَّث بالنبيين وهم مهبط الوحي . ومن هناك اتصل ببيان تلك الشرائع التي وصلت إلينا عن طريق النبوة .

* * *

المقصد الثالث من مقاصد السورة
[في عرض شرائع هذا الدين تفصيلاً]
في ست ومائة آية [١٧٨ – ٢٨٣]

بعد إرساء الأساس ، تكون إقامة البنيان ؛ وبعد الاطمئنان على سلامة الخارج ، يجيء دور البناء والإنشاء في الداخل ..

نعم ، لقد تم (إصلاح العقيدة) التي هي روح الدين وجوهره ؛ فليبدأ (تفصيل الشريعة) التي هي مظهر الدين وهيكله .. لقد أُزيلت شبه المعاندين ، وأُقيمت الحجة عليهم ؛ فلم يبق إلا إنارة السبيل للسالكين ، وإيضاح المَحَجَّة بين أيديهم .. كانت العناية من قبل ، موجهة إلى بيان (حقائق الإيمان) فلتتوجه الآن ، إلى بسط (شرائع الإسلام) .

وأنت فقد رأيت كيف مهَّدت السورة لهذا التحول ، إذ وضعت برزخاً يربط أطراف الحديث ، ويلتقي فيه سباقها وسياقها .. ولو أنك تَلَفَّتَّ الآن التفاتة يسيرة إلى جانبك ، لرأيت أدنى هذا البرزخ إليك ، تلك الآية الجامعة (آية البر) التي انتظمت أصول الدعوة بشطريها : النظري ، والعملي ؛ ولرأيت أدنى هذين الشطرين إليك ، هو هذا الشطر العملي .

فاعلم الآن ، أن هذا الشطر العملي ، الذي لمحناه من قبل مَطوياً في فهرس

موجز ، سنراه فيما يلي ، مبسوطاً في بيان مفصل .

ففي نَيِّف ومائة آية ، سنرى فنّاً جديداً من المعاني ، مهمته رسم نظام العمل للمؤمنين ، وتفصيل الواجب والحرام والحلال لهم في شتى مناحي الحياة : في شأن الفرد ، وفي شأن الأسرة ، وفي شأن الأمة .. بياناً مؤتنفاً[١] تارة ، وجواباً عن سؤال تارة أخرى ، متناولاً في جملته عشرات من شعب الأحكام ..

هذه الحكمة العامة : في تأخير إقامة البنيان ، ريثما أرسيت قواعده وفي تأجيل الفروع حتى أحكمت أصولها ، ستبدو من ورائها حكم جزئية ، وأسرار دقيقة ، لمن أقبل على هذه الفروع ينظر إلى تلاصق لبناتها في بنيتها ، وتناسق حباتها في قلادتها ، ثم رجع ينظر في وجه التقابل بين ذلك الإجمال السابق ، وهذا التفصيل اللاحق ..

فلنأخذ في استعراض ***الحلقات الرئيسية*** لهذه السلسلة الجديدة : لقد خُتِمَت آية البرّ كما رأيت ، ***بخصلة من خِصال البرّ*** ، مُيِّزَت في إعرابها تمييزاً[٢] ، فكان ذلك تنويهاً بشأنها أي تنويه .. ***تلك هي خلّة الصبر*** ، التي شَعَبَتْها الآية المذكورة إلى ثلاث شعب : الصبر في البأساء ، والصبر في الضراء ، والصبر حين البأس .. فهل تعلم أنه الآن وقد بُدِيء دور التفصيل

---

(١) مؤتنفاً : مُبتَدِئاً .

(٢) هي جملة ﴿ **والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس** ﴾ وقد نُصِبَت رغم أنها معطوفة على الجملة السابقة ﴿ **والموفون بعهدهم ...** ﴾ ، قال القاسمي في محاسن التأويل ٣ / ٣٩٣ : ﴿ **والصابرين** ﴾ نصبٌ على الاختصاص . غَيَّر سَبْكَه عما قبله تنبيهاً على فضيلة الصبر ومزيته . وهو في الحقيقة معطوف على ما قبله . قال أبو علي : إذا ذكرت صفات للمدح أو للذم فخولف في بعضها الإعراب ، فقد خولف للافْتِنَان ويسمى ذلك (قطعاً) لأن تغيير المألوف يدل على زيادة ترغيب في استماع المذكور ومزيد اهتمامٍ بشأنه ... قال الراغب : لما كان الصبر من وجهٍ مبدأً للفضائل ، ومن وجهٍ جامعاً للفضائل إذ لا فضيلة إلا وللصبر فيها أثر بليغ ، غَيَّر إعرابه تنبيهاً على هذا المقصد .

ستكون هذه الخصلة بشعبها الثلاث ، أول ما تعني السورة بنشره من تلك الخصال ، وأنها ستنشرها نشراً مرتباً ترتيباً تصاعدياً على عكس ترتيب الطيّ : الصبر حين البأس ، ثم الصبر في الضراء ، ثم الصبر في البأساء .. وهل تعلم أن هذا النظام التصاعدي نفسه سيتبع في سائر الخصال : الوفاء بالعهود والعقود ، ثم إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، والبذل والتضحية في سبيل الله ؟ .. إليك البيان مفصلاً :

الصبر حين البأس

لا تحسبنه هنا صبراً على الجروح والقروح في الحرب ، فذلك معنى سلبي استسلامي ؛ ولا تحسبنه صبراً في البطش والفتك بالأعداء ، فذلك جهد عملي إيجابي حقاً ، ولكن مَرَدَّه إلى قوة العضل والعصب ، لا إلى قوة الخلق والأدب « **ليس الشديد بالصُرَعَة ، ولكنه الذي يملك نفسه عند الغضب** »[1] .. هكذا سيختار الله لنا من مُثل الصبر أمثلها ، ومن موازينه أوزنها في معايير القيم : ذلك هو ضبط النفس حين البأس ، كفّاً لها عن الاندفاع وراء باعثة الانتقام ، وردعاً لها عن الإسراف في القتل ، ووقوفاً بها عند حد التماثل والتكافؤ العادل [القصاص ١٧٨ – ١٧٩] .. وإذ كان تداعي المعاني يسوقنا من الحديث عن القتلى ، إلى الحديث عمن هم بشَرَف الموت ، ناسب تتميم الكلام ببيان ما يجب على المحتضر من الوصية لأقاربه براً بهم [الوصية ١٨٠ – ١٨٢] .

الصبر في الضراء

وكذلك سيختار الله لنا من أبواب الصبر في الضراء أعلاها : ليس الصبر على الأمراض والآلام بإطلاق ، ولكنه الصبر على الظمأ والمخمصة في طاعة الله [الصوم ١٨٣ – ١٨٧] .. وينساق الحديث من الصوم المؤقت عن بعض الحلال ،

---

(١) هذا نصّ حديث متفق عليه : رواه البخاري في الأدب ٦١١٤ ، ومسلم في البر والصلة والآداب ١٠٧ ، ١٠٨ . كلاهما من حديث أبي هريرة .

إلى الصوم الدائم عن السحت والحرام [١٨٨] .

الصبر في البأساء

وعلى هذا النمط نفسه ، سنرى الصبر في البأساء هنا ليس هو ذلك الصبر الاضطراري على الفقر والأزمات المالية والجوائح السماوية ، ولكنه الصبر الاختياري على التضحية بالأموال إنفاقاً لها في سبيل الله . والمثال الذي يختاره التنزيل الحكيم هنا مثال مزدوج[١] ، ينتظم الصبر في البأساء والضراء جميعاً ؛ إذ يجمع بين الجهاد بالنفس والجهاد بالمال [الحج إلى بيت الله ١٨٩ – ٢٠٢] ولا تنس هاهنا أن تنظر إلى المعبرة اللطيفة التي انتقل بها الحديث من الصوم إلى الحج .. تلك مسألة الأَهِلَّة[٢] التي جعلها الله مواقيت للصوم وللحج جميعاً [١٨٩] .

ولنقف بك ها هنا وقفة يسيرة ، نشير فيها إلى شأن عجيب من شئون النسق القرآني في هذا الموضع :

ذلك أنه حين بُدِيَء بذكر الحج ، لم تتصل به أحكامه ولاءً ، بل فصل بين اسمه وحكمه بست آيات في أحكام الجهاد بالنفس والمال في قتال الأعداء [١٩٠ – ١٩٥] .. فاصلة يحسبها الجاهل رقعة غريبة في ثوب المعنى الجديد .. ولكن الذي يعرف تاريخ الإسلام وأسباب نزول القرآن ، يعرف ما لهذه

---

(١) بل إن شئت قلت إنه مثلث الألوان ؛ لأنه سيدخل في ثناياه الصبر حين البأس في مجاهدة أعداء الله [١٩٠ – ١٩٥] [**دراز**] .

(٢) الأَهِلَّة : جمع هلال ، وهو القمر ابن ليلتين من الشهر .

ومسألة الأهلة هي ما رواه قتادة مرسلاً « **سألوا نبي الله ﷺ عن ذلك : لم جُعِلَت هذه الأهلّة ؟ فأنزل الله فيها ما تسمعون ﴿ هي مواقيت للناس ﴾** » فجعلها لصوم المسلمين ولإفطارهم ، ولمناسكهم وحجهم ، ولعِدَّة نسائهم ، ومحلّ دَينهم ، في أشياء والله أعلم بما يصلح خلقه . رواه الطبري في تفسيره ٣٠٦٧ (ط شاكر) ، وله شواهد مرفوعة ومرسلة في الدر المنثور للسيوطي ١ / ٣٦٧ ، ٣٦٨ ، والطبري (ط شاكر ٣ / ٥٥٣ ، ٥٥٤ .

الفاصلة من شرف الموقع وإصابة المَحَزّ[1] ؛ لا لمجرد الاقتران الزماني بين تشريع الحج وبين غزوة الحديبية في السنة السادسة من الهجرة ؛ ولكن لأن أداء المناسك في ذلك العام كان عزماً لم ينفذ ، وأملاً لم يتحقق ؛ إذ أُحصِر المسلمون يومئذ عن البيت ، وهمّوا أن يبطشوا بأعدائهم الذين صدوهم عنه ؛ لولا أن الله نهاهم عن البدء بالعدوان ، وأمرهم ألا يقاتلوا في المسجد الحرام إلا من قاتلهم فيه ، فانصرفوا راجعين ، مستسلمين لأمر الله ، منتظرين تحقيق وعد الله .. فكذلك فلينصرف القاريء أو المستمع ها هنا وهو متعطش لإتمام حديث الحج على أن يعود إليه بعد فاصل . كما انصرف المسلمون إذ ذاك عن مكة وهم إليها متعطشون ، على أن يعودوا إليها من عام قابل .. هكذا كانت هذه الآيات الفاصلة تذكاراً خالداً لتلك الأحداث الأولى .. وهكذا كان القرآن الحكيم مرآة صافية نطالع فيها صور الحقائق من كل لون ، نقتبسها طوراً من تصريح تعبيره ، وطوراً من نهجه وأسلوبه في تعجيل البيان أو تأخيره . ثم كانت هذه الآيات الفاصلة في الوقت نفسه درساً عملياً في صبر المتعلم على أستاذه ، لا يعجله بالسؤال عن أمر في أثناء حديثه ؛ ولكن يتلبث قليلاً حتى يحدث له منه ذكراً في ساعته الموقوتة .. وهكذا لن يطول بنا الانتظار حتى نرى أحكام الحج والعمرة تجيء في إثر ذلك على شوق وظمأ ، فتشبع وتروي بالبيان الشافي الوافي [١٩٦ – ٢٠٣] . وبتمام هذا البيان تتم الحلقة الأولى من الأحكام أعني فريضة الصبر في البأساء والضراء وحين البأس .

استجمامة [٢٠٤ – ٢١٤]

وشاءت حكمة الله وتلطفه بنا في تربية نفوسنا على طاعة أمره ، ألا يصعد بنا الحلقة الثانية من فورنا هذا ، ولكن بعد استرواحة فيها شيء من الموعظة العامة . يثبت بها القلوب على ما مضى ، ويوطيء لها السبيل إلى ما بقى ..

---

(١) المَحَزّ : موضع القطع ، وإصابة المَحَزّ كناية عن السداد .

وكان من حسن الموقع لهذه الموعظة العامة ، أنها اتصلت بالموعظة الخاصة التي ختم بها حديث الحج ، والتي قسمت الناس من حيث آمالهم ومطامحهم إلى فريقين : فريق يطلب خير الدنيا ولا يفكر في أمر الآخرة ، وفريق لا تنسيه دنياه مصالح أخراه [٢٠٠ – ٢٠٢] فجاءت الموعظة العامة تقسم الناس من حيث ما فيهم من خلق الأثرة أو الإيثار إلى فئتين : فئة لا تبالي أن تضحي في سبيل أهوائها بحياة العباد وعمران البلاد ، وفئة على العكس من ذلك لا تضن أن تضحي بنفسها في سبيل مرضاة الله [٢٠٤ – ٢٠٧] وتخلص الآيات الحكيمة من هذا التقسيم ، إلى توجيه النصح للمؤمنين بأن يخلصوا نفوسهم من شوائب الهوى ، ويستسلموا بكليتهم لأوامر الله ، دون تفريق بين بعضها وبعض ؛ محذرة إياهم من الزلل عنها بعد أن هُدُوا إليها ووقفوا عليها ، مُعَزِّيَة لهم عما قد يصيبهم من البأساء والضراء في سبيل إقامتها ، ضاربة لهم المثل في ذلك بسنة السلف الصالح من الأمم السابقة [٢٠٨ – ٢١٤] .

هنا تمت الاسترواحة بالموعظة العامة .

وستكون ***الحلقة التالية*** في تفصيل الخصلة الثانية من الخصال العملية التي أجملت في آية البر ، ***وهي الوفاء بالعهود والعقود*** ؛ وستختار من بين هذه العقود أحقها بالعناية والرعاية : ***عقدة الزواج وما يدور حول محورها من شئون الأسرة*** ، أليست الأسرة هي المجال الأول للتدريب على حسن العشرة ، وعلى التنزه من رذيلة الأنانية والأثرة ؟ ثم أليست الأمور متى استقامت في هذا المجتمع الصغير ، استقامت بالتدريج في المجتمع الكبير ، ثم في المجتمع الأكبر ؟ ..

ترى كيف سيكون الانتقال إلى هذه الحلقة الثانية ؟ هل يصعد القرآن بنا تواً إلى تفصيل هذه الشئون المنزلية المشتبكة المتشعبة ؟ كلا إن هذا البيان التربوي الحكيم لن يهجم بنا عليها دفعةً ، ولكنه سيتلطف في الوصول بنا

إليها على معراج من الأسئلة والأجوبة ، تتصل أوائلها[1] بالأحكام الماضية : الإنفاق والجهاد [٢١٥ - ٢١٨] وتتصل أواخرها[2] بالأحكام التالية : مخالطة اليتامى ، وشرائط المصاهرة ، وموانع المباشرة [٢٢٠ - ٢٢٢] .. وهكذا نصل في رفق ولين ، دون اقتضاب[3] ولا ابتسار[4] ، إلى صميم الحلقة الثانية [٢٢٣ - ٢٣٧] حيث نتلقى في شأن الحياة الزوجية دستوراً حكيماً ، مؤلفاً من شطرين :

* شطره الأول يعالج شئون الأسرة في أثناء اتصالها [٢٢٣ - ٢٣٢] .

* وشطره الأخير يعالج شئونها في حال انحلالها وانفصالها [٢٣٣ - ٢٣٧] .

فخذ هذه الحلقة الجديدة من السورة الكريمة ، وتعرف أسباب نزولها وانظر كيف كانت كل قضية منها فُتْياً في حادثة معينة منفصلة عن أخواتها ؛ ثم عد لتنظر في أسلوبها البياني جملة ؛ وحاول أن ترى عليه مسحة انفصال أو انتقال ، أو أن تحس فيه أثراً لصنعة لصق ، أو تكلف لحام ... واعلم منذ الآن أنك ستحاول عبثاً ؛ فإنك لن تجد أمامك إلا سبيكة واحدة يطرد فيها عرق واحد ، ويجري فيها ماء واحد ، على رغم أنها جمعت من معادن شتى ..

---

(١) و (٢) ارجع البصر كرتين إلى هذا النظام الهندسي في البيان ... ثم سل نفسك : هل كان في الإمكان أن يأتلف عقد نظامه لو لم تقع الأحداث التي اتخذت منها مادته ، أو لو وقع بعضها وتخلف بعضها ، أو لو وقعت كلها ولم تنبعث في روع القوم باعثة السؤال عن أحكامها .. ؟ لقد كان القدر يسير إذن في ركاب هذا التنظيم ، فأثار مادة حوادثه ، وبعث حاجات النفوس إلى طلب بيانها .. ولم يبق إلا أن تقول معي : آمنت أن الذي بيده تصريف الزمان ، هو هو الذي بيده تنزيل القرآن ... ألا له الخلق والأمر . تبارك الله رب العالمين [دراز] .

(٣) الاقتضاب هو قطع المتكلم كلامه الذي هو فيه ، ثم دخوله في كلامِ غيره دون أن يكون للثاني علاقة بالأول ، ودون تمهيد وتهيئة بين الثاني والأول . والقضب لغةً هو القطع .

(٤) الابتسار هو طلب الحاجة قبل أوانها ، أو في غير موضعها ، أو التعجل في الأمر قبل أوانه .

تأمل أول كل شيء في خط سير المعاني :

انظر كيف استهل الحديث بإرساء الأساس ، وذلك بتقرير حق العشره والمخالطة الزوجية [٢٢٣] ثم انظر كيف تلاه النهي عن إدخال اليمين في أمثال هذه الحقوق المقدسة ، سواء بالحلف على منع البر عن مستحقه ، أو على قطع ما أمر الله به أن يوصل [٢٢٤ - ٢٢٥] وكيف عَقَّبه بحكم فرع من فروع هذا المبدأ متصل بالعلاقة الزوجية ، وهو حكم من حلف على الامتناع عن زوجته [٢٢٦ - ٢٢٧] وكيف اتصل من هنا بأحكام الطلاق وما يتبع الطلاق من حقوق وواجبات [٢٢٨ ..] .

فإذا أعجبك هذا التسلسل المعنوي ، وهذا التدرج المنطقي ، في شئون كانت متفرقة ، ارتجلتها الحوادث ارتجالاً ، فتعال معي لأضع يدك في هذه القطعة على حرف واحد ، تلمس فيه مبلغ الإحكام في التأليف بين هذه المتفرقات ، حتى صارت شأناً واحداً ذا نسق واحد :

ذلك هو موضع النقلة من فتيا الإيلاء ، إلى فتيا الطلاق : ﴿ **وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم * والمطلقات يتربصن ...** ﴾ [٢٢٧ ، ٢٢٨] ألا ترى كيف أُديرَ الأسلوب في حكم الإيلاء على وجه معين ، يطل القاريء منه على أفق متلبد ينذر باحتمال الفراق ؛ فلما جاء بعده الحديث عن أحكام الفراق لم يكن غريباً ، بل وجد مكانه مهيأ له من قبل ؛ كأن خاتمة حكم الإيلاء كانت بمثابة عروة مفتوحة ، تستشرف إلى عروة أخرى تشتبك معها ؛ فلما جاءت فتيا الطلاق في إبانها كانت هي تلك العروة المنتظرة . وما هو إلا أن التقت العروتان حتى اعتنقتا وكانت منهما حلقة مفرغة لا يدري أين طرفاها . وهكذا أصبح الحديثان حديثاً واحداً .

ترى مَنْ عَلَّم محمداً - لو كان القرآن من عنده - أنه سوف يُستفتى يوماً ما في تلك التفاصيل الدقيقة لأحكام الطلاق ؟ ومَنْ علَّمه أنه سيجد لهذا السؤال

جواباً ، وأن هذا الجواب سيوضع في نسق مع حكم الايلاء ، وأنه ينبغي لاستقامة النسق كله أن يساق حكم الإيلاء ، الذي وقع الاستفتاء فيه الآن ، على وجه يجعل آخر شقيه هو أدناهما إلى حديث الطلاق الذي سوف يُسئل عنه بعد حين ؛ لكي ينضم الشكل إلى شكله متى جاء وقت بيانه ؟ .. هيهات أن يحوم علم البشر حول هذا الأفق الأعلى ؛ فإنما ذلك شأن عالم الغيب والشهادة ، الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ...

وتمضي السورة في هذا النمط الجديد ، مفصلة آثار الطلاق وتوابعه كلها : عدةً ، ورجعةً ، وخلعاً ، ورضاعاً ، واسترضاعاً ، وخطبةً ، وصداقاً ، ومتعةً ... إلى تمام هذه الحلقة الثانية [٢٣٧] .

وهناك تبدأ ***الحلقة الثالثة*** ﴿ **حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى ...** ﴾ [٢٣٨ - ٢٧٤] .

فلننظر : كيف تمت النقلة بين هاتين الحلقتين ؟

إننا بمقدار ما رأينا من التلبث والتمكث ، والاستجمام والتنفس بين الحلقة الأولى والثانية ، سنرى على عكس ذلك بين الحلقة الثانية والثالثة ، نقلة شبه خاطفة بل لفتة جِدّ مباغتة ، قد يحسبها الناظر اقتضاباً ؛ وما هي باقتضاب إلا في حكم النظر السطحي .. أما من تابع معنا سير قافلة المعاني منذ بدايتها ، وقطع معنا ثلثي الطريق الذي رسمته آية البر : من الوفاء بالعهود ، والصبر في البأساء والضراء وحين البأس ، فإنه لا ريب سوف يستشرف معنا إلى ثلثه الباقي : إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وبذل المال على حبه في سبيل الله ؛ وسوف يرى أن هذه الحلقة الثالثة قد جاءت هنا في رتبتها وفي موضعها المقدر لها ، وفق ترتيبها في الآية الجامعة .

سيقول قائل : نعم ، لقد جاءت في موضعها ورتبتها ؛ ولكن الانتقال إليها قد تم دون إعداد نفسي ، ولا تمهيد بياني .

نقول : بل كان هذا الإعداد والتمهيد ، في الآية الكريمة التي ختمت بها الحلقة السابقة : ﴿ **وأن تعفوا أقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم إن الله بما تعملون بصير** ﴾ [٢٣٧] .. فهذه لو تدبرت مَعبرةٌ ذهبيةٌ وضعت في وقت الحاجة إليها بعد أن استطال الحديث في تفصيل الحقوق والواجبات المنزلية ؛ مَعبرةٌ جيء بها لتنقلنا من ضوضاء المحاسبة والمخاصمة ، إلى سكون المسامحة والمكارمة ؛ فكانت معراجاً وسطاً صعد بنا إلى أفق أعلى ، تمهيداً للعروج بنا فيما يلي إلى الأفق الأعلى .. ألا تسمع إلى هذه الكلمات : ﴿ **ولا تنسوا الفضل بينكم** ﴾ لا تنسوا .. الفضل .. بينكم . إن كل حرفٍ في هذه الكلمات ينادي بأنها كلمات حبيب مودع ، كان قد أقام بيننا فترةً ما ، ليفصل في شئوننا ؛ ثم أخذ الآن يطوي صحيفة أحكامه ، ليتحول بنا عنها إلى ما هو أهم منها ؛ فقال لنا وهو يطويها : دعوا المُشادَّة في هذه الشئون الجزئية الصغرى ؛ سووها فيما بينكم بقانون البر والفضل ، الذي هو أسمى من قانون الحق والعدل ؛ وحولوا أبصاركم معي إلى الشئون الكلية الكبرى ، التي هي أحق بأن يتوفر عليها العزم والقصد ، وأحرى أن يشتغل بها العقل والقلب ... نعم ، نعم . لقد كفاكم هذا حديثاً عن حقوق الزوج والولد ، فاستمعوا الآن إلى الحديث عن حقوق الله والوطن[١] :

---

(١) لا شك أن المؤلف – رحمه الله – يقصد حق الوطن بمفهومه الإسلامي الصحيح ، ألا وهو حب الوطن الإسلامي وواجب حمايته والنصح لأهله . فالحق أن وطن المسلم هو عقيدته .. فكل مكان تعلو فيه راية الإسلام هو وطن المسلم .

ولكن هذا المفهوم الطيب المتزن غاب عن كثير ممن لم يهتدوا بهدي الإسلام ، فأصبحت الوطنية عندهم عقيدة جديدة تتمثل في الفناء في حب الوطن ، وتقديس ترابه ، والولاء له ، والحب فيه ، والبغض لأجله ، والتعصب له ، وطرح كل عوامل الافتراق الأخرى من الأديان والأجناس والمناهج إذا تعارضت مع وحدة الأرض ، فمثلاً إذا كانت العقائد الإيمانية أو المباديء الأخلاقية أو مناهج السلوك من أسباب الافتراق ... فيجب عندهم نبذ كل سوابق العقائد والمباديء وغيرها حتى يكون التقاء الوطنيين خالياً من المتناقضات وعوامل التفرق =

= ولو تأمل المنصف هذه الدعوة الوطنية لرأى أنها قد تجمع قوميات مختلفة متصارعة أو متعادية ، وقد تجمع أدياناً ومذاهباً متنافسة ، والاقتصار على الوطنية لا يكفي لإقامة رباط حقيقي دائم وفعال .. فإنه سينفصم عند حدوث تنافر عقائدي أو تضاد منهجي أو مصلحي أو قومي أو جنسي .. وهذا ما نراه في الواقع والأخبار اليومية من حولنا . فليس من الممكن أن يتجرد الناس من عقولهم وأفكارهم ومفاهيمهم في الحياة وعقائدهم حول النشأة والواجب والمصير ، وأن يلغوا حاجاتهم إلى مباديء ومناهج سلوك أخلاقية ، ليتفقوا على منهاج واحد (الوطنية) وأن يتجردوا من أهوائهم ونزعاتهم ومصالحهم ليقدموا الولاء الوطني على كل هذه الروابط ... هذا إلى صعوبة تحديد الوطن ورسم حدوده بصورة ثابتة .. فما هو اليوم وطن ليس كذلك بالأمس .. وهو خاضع باستمرار للتبدل والتغير بتبدل القوى والأحداث السياسية والعسكرية بل وحتى المشاعر النفسية .

وللأسف الشديد قد آتت هذه الدعوة الوطنية بهذا المعنى الباطل ثمارها المرَّة ، فظهرت في الثقافة الخاصة والعامة في آثارٍ عديدة وصور مختلفة أخطرها ولا شك اتخاذ الوطن إلهاً يُعْبدُ من دون الله ..

فاسمع قول شوقي (في حب مصر) :

ولو أني دُعيتُ لكنتَ ديني ... عليه أقابلُ الحَتمَ المُجَابا
أديرُ إليك قبل البيتِ وجهي ... إذا فُهتُ الشهادةَ والمتابا

[الاتجاهات الوطنية : ٢ / ١٤٥]

أو حين يقول :

وجه الكِنانة ليس يُغْضِبُ ربَّكم ... أنْ تَجعَلوه كوجهِهِ معبوداً
وَلُّوا إليهِ في الدروس وجوهَكم ... وإذا فرغتم فاعْبُدُوه هُجوداً

[الاتجاهات الوطنية : ٢ / ١٤٥]

ثم انظر إلى مصطفى كامل يهتف :

بلادي ! .. بلادي ! .. لك حبي وفؤادي .. لك حياتي ووجودي .. لك دمي ونفسي .. لك عقلي ولساني .. لك لُبي وجَناني .. فأنتِ أنتِ الحياة ، ولا حياة إلا بك يا مصر .

[الاتجاهات الوطنية : ١ / ٨٤]

ثم أنصِت إلى محرم ينادي :

فإن يسألوا : ما حب مصر ؟ فإنه ... دمي وفؤادي والجوانح والصدر
هي العيش والموت المُبَغَّض والغنى ... لأبنائها والفقر والأمن والذعر =

= هي القدر الجاري ، هي السخط والرضا   هي الدين والدنيا ، هي الناس والدهر

[الاتجاهات الوطنية : ١ / ٨٩]

أما ما يُسمع ليلاً ونهاراً في وسائل الإعلام من أمثال : نعيش لمصر ونموت لمصر ... أو : يا أحلى اسم في الوجود ... يا مصر ... إلى آخر هذا الغثاء والسخف فأكثر من أن يحيط به الحصر ... وبالطبع ليست مصر إلا أنموذجاً لما يحدث في كل العالم الإسلامي . وقل لي بربك إن لم يكن هذا هو اتخاذ الوطن إلهاً يُعبد من دونَ الله .. فماذا يمكن أن يكون ؟

وللإنصاف فإن عاطفة حب الوطن هي عاطفة إنسانية عامة يشترك فيها الناس جميعاً ، وقد قال رسول الله ﷺ عندما خرج مهاجراً من مكة « **ما أطيبك من بلدٍ وأحبّك إليّ ، ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك** » رواه الترمذي وصححه الألباني في صحيح الترمذي ٣٠٨٣ .

فالإسلام لا يلغي أصول الارتباطات القومية والوطنية ونحوه – فقد حَثَّ الإسلام على صلة الرحم ورحمة الناس جميعاً وحماية أوطان المسلمين ... ولكن كل هذا بشرط ألا تتصادم هذه الارتباطات ولا تتعارض مع عقائد الإسلام وشرائعه وأخلاقه ومقاصده العامة . فأما إن جَرَّت هذه الارتباطات إلى شيء من ذلك ... فلتنقطع هذه الارتباطات جميعاً ويبقى الارتباط الإسلامي على قوته ومتانته .

فاسمع قول الله تعالى ﴿ **قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها *ومساكن ترضونها* أحبَّ إليكم من الله ورسوله وجهادٍ في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين** ﴾ [سورة التوبة الآية : ٢٤] فهنا تبين الآية في وضوحٍ وحسمٍ أن المسلم الحق يجب عليه تقديم حب الله ورسوله والجهاد في سبيل الله على كل محبوب من قريب وعشيرة وتجارة ووطن . وقد فعل هذا أبو الأنبياء إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، ثم فعله أيضاً موسى عليه الصلاة والسلام ، ثم رسول الله ﷺ عندما هاجر من مكة إلى المدينة . فوطن المسلم هو عقيدته . أما الحديث المعروف « حب الوطن من الإيمان » فهو حديث لا أصل له أي لم يُروَ حتى بسندٍ مكذوبٍ عن رسول الله ﷺ .

وقد ظهرت الدعوة الوطنية بهذا المعنى الباطل في العالم الإسلامي في القرن الماضي لعدة أسباب منها :

١ – كتقليد أعمى للغرب الذي تحول إلى فكرة الوطنية بعد أن مزقته الحروب =

= الدينية والطائفية لعدة قرون سابقة وما صاحبها من مذابح دموية .

٢ – ولع المغلوب بتقليد الغالب – كما يقول ابن خلدون – فعندما تغلب الغرب على الدول الإسلامية الكبرى في القرن الماضي ، ظن كثير من المسلمين أن الوطنية هي سبب تقدم الغرب وبالتالي ستكون الدواء الناجع لأمراض الأمة الإسلامية .

٣ – انخداع كثير من ذوي النيات الطيبة ، وظنهم أن الوطنية فرصة عظيمة لتجميع عناصر الأمة بما فيها مسلمين ونصارى ويهود وملحدين وغيرهم للتكاتف وبذل الجهود لطرد المستعمر الغربي وتحقيق الاستقلال .

٤ – تشجيع العناصر غير الإسلامية لهذه الدعوة الوطنية ، نتيجة لشعورهم بالضعف والغربة في وسط المحيط الإسلامي المتميز ، ولرغبتهم في تمييع الإسلام في نفوس أبنائه حتى تنمحي الشخصية الإسلامية .

٥ – العون الغربي لهذه التعصبات الوطنية في بلاد الإسلام ودعمها بطرق مباشرة وغير مباشرة منها :

ـــ تشجيع التنقيب عن الآثار والضجة المبالغ فيها لإحياء التعصب للأجداد الوثنيين القدماء وتعميق الانتماء لهم ، فيتعصب المصريون للفراعنة والعراقيون للبابليين والشاميون للفينيقيين والأتراك لعشائرهم الوثنية وهكذا تتفتت الأُخوة الإسلامية ويحل محلها الفرقة والتعصب وتصير الأمة الواحدة مائة دويلة ... شراذم ضائعة لا تنفع إلا آكليها .

ـــ إعادة كتابة التاريخ : فيُمجد التاريخ الوثني القديم ويُملأ بالفخر بالأمجاد والأجداد ، وتُلحق كل النقائص بالتاريخ الإسلامي ، ويُصوَّر المسلمون كهمجٍ غزاةٍ وحشيين في أقبح صورة .

ـــ إظهار بعض زعماء الوطنية وتلميعهم كي ينخدع الناس بهم وتلتف الشعوب حولهم . ولا بأس من اضطهادهم بعض الشيء ، أو حتى نفيهم لإحداث الأثر المطلوب من تعلق الشعوب بهم .

ويلاحظ أن التعصب الوطني كان في بدايته تعصباً للوطن الإسلامي كله ، ثم تقلص للوطن العربي الكبير أثناء تحلل الخلافة العثمانية ، ثم انتهى أخيراً إلى الوطن الضيق بالحدود التي رسمتها الدول الغربية للمنطقة ، وهذه الحدود تضيق الآن شيئاً فشيئاً وانظر إلى لبنان والسودان والعراق وغيرها وهذا مما لا يخفى على أحدٍ .

والنتيجة النهائية لهذه الدعاوى هي ما نراه أمامنا من التفرق – الذلة – الهوان – العداء =

حافظوا على الصلاة ... أنفقوا في سبيل الله ... جاهدوا في سبيل الله .. (وبعد) فهل حديث الصلاة هنا يعتبر مقصداً أصلياً مستقلاً ، أم هو جزء من مقصد آخر .

لكي نحسن الجواب عن هذا السؤال ، يجمل بنا أن نرجع البصر كرَّةً أخرى ، لننظر في جملة الخصال التي جُمِعت في آية البر ، والتي فُصِّلت في الآيات من بعدها إلى قرب آخر السورة ، ولنقارن بين حظوظها من عناية الذكر الحكيم ، فماذا نرى ؟ .

نرى التنويه بفضيلتي الإنفاق والجهاد في سبيل الله ، لا يزال يعاد ويردد

= الشديد بين بلاد الإسلام ، مقابل السلام والوئام بينها وبين أعدائها التاريخيين ... ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وكل هذا إنما هو حيلة مرحلية لسلخ الناس من إسلامهم وأخلاقهم ومناهجهم ... فإذا انسلخ المرء من ولائه لدينه وارتبط بوطنه فقط تفككت الروابط الإيمانية والاجتماعية ... فالقصد النهائي من هذه الدعوة الوطنية في بلاد الإسلام هو : اتخاذ أي مبدأ آخر غير الإسلام محوراً للحياة ومحركاً للشعور .

وحقيقة تشجيع الغرب للحركات الوطنية في بلاد المسلمين لا تنبع من حبه أو تعاطفه مع هذه الحركات ، بل من هلعه من البديل الآخر المرعب للغرب ، ألا وهو الوحدة الإسلامية وترابط هذه الدول المسلمة معاً في بنيان واحد كدولة عالمية ، تسيطر على أهم طرق المواصلات العالمية وتكاد تحتكر ثروة العالم النفطية – وهي شريان الحياة المعاصرة – غنية بزراعتها ومواردها وخاماتها وبنيها . وهذه السياسة الاستعمارية رمت إلى تقطيع أواصر الصلة بين بلاد الإسلام حتى يُقضى عليها واحدة إثر الأخرى .. ويلخصها مبدأ بريطانيا الشهير (فَرِّقْ تَسُدْ) .

ومن المفارقات الطريفة – لمن يفهم ويتدبر – أنه بينما يشجع الغرب هذا التعصب الوطني في كل بلدٍ من بلدان المسلمين المشتركة في الدين والتاريخ واللغة والحضارة ، نرى هذا الغرب نفسه يدفن هذا التعصب الوطني في أوربا ذاتها .. فانظر إلى السوق الأوربية المشتركة وتحولها إلى الاتحاد الأوربي وتوحيد قوانينه وعملته وتجارته واقتصاده ، والبرلمان الأوربي الموحد ، ومؤتمر الدول الصناعية الكبرى .. وخلافه .. يحدث هذا كله على الرغم من اختلاف الأوربيين لغةً وديناً وتاريخاً وأصولاً وجنساً .. ولكن من يعي ومن يفيق !! .

في مطالع الحديث ومقاطعه ، في إجماله وفي تفصيله ، ترديداً ينادي بأنه هو المقصود الأهم ، والهدف الأعظم ، من التشريع في هذه السورة .. فلو أننا – في ضوء هذا الإسلوب – تمثلنا تلك البيئة وأحداثها وتمثلنا القوم وهم تتلى عليهم شرائع هذه السورة وأحكامها ، لتمثلنا معسكراً ثابتاً للجهاد المزدوج ، المالي والبدني ، ولتمثلنا على رأس هذا المعسكر قائداً يقظاً حريصاً ، لا يعزب عنه شأن من شئون جنوده ، خاصّها وعامّها ، ولا يفتأ يلقي عليهم أوامره وإرشاداته في مختلف تلك الشئون، كلما فرغ من إفتائهم في نوازلهم العارضة الوقتية ، رجع بالحديث إلى مجراه العتيد ، في شأن مهمتهم الرئيسية ..

ضع هذه اللوحة الجندية أمام عينيك ... فلن يكون عندك عجباً أن ترى الحديث في شأن الجهاد يبرز الآن على إثر تلك الشئون ؛ ذلك أن بساطه كان أبداً منشوراً ، وأن داعيته كانت دائماً قائمة ؛ فإذا عاد ذكره بعد أن زال ما حوله من الشواغل الوقتية ، فإنما يجيء على أصله وسجيته ، فلا يُسئل عن عِلّته ...

ماذا نقول ؟ .. شأن الجهاد !! أليس الحديث سيفتتح الآن بشأن الصلاة ، وعدة الوفاة ، لا بشأن الجهاد ؟ .

بل نقول ، ونحن نعني ما نقول : إن الحديث يعود الآن إلى شأن الجهاد ، وإن الخطاب هنا بالصلاة وغيرها يتوجه إلى المجاهدين من حيث هم مجاهدون ، ليحل المشاكل التي يثيرها موقف الجهاد نفسه ، قبل أن يوجه إليهم الأمر الصريح بالقتال ..

فأول هذه المشاكل مشكلة الصلاة في الحرب : ألا يكون الجهاد رخصة في إسقاط هذا الواجب أو في تأجيله ؟

يجيبنا الكتاب العزيز : لا رخصة في ترك الصلاة ولا في تأجيلها ، لا في سلم ولا في حرب ، لا في أمن ولا في خوف : ﴿ **حافظوا على الصلوات** ﴾ [٢٣٨]

وإنما الرخصة عند الخوف في شيء واحد : في صفات الصلاة وهيئتها : ﴿ **فإن خفتم فرجالاً أو ركباناً فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علَّمكم ما لم تكونوا تعلمون** ﴾ [٢٣٩] . والصلاة كما نعلم قوة معنوية على العدو ، وعُدَّة من عدد النصر[١] . لا جرم كان من الحكمة أن تزود بها أرواح المجاهدين ، قبل أن يؤمروا بالقتال أمراً صريحاً . والصلاة في الوقت نفسه طهرة للنفس من مساويء الأخلاق ، تنقيها من دنس الشح والحرص على حطام الدنيا[٢] . لا جرم كان من الحكمة كذلك جعلها دعامة للوصية الآنفة ، التي أمرتنا بالتسامح والتكارم في المعاملات .. هكذا كان وضع حديث الصلاة مزدوج الفائدة : دواء وغذاء معاً ، ينظر إلى الأمام وإلى الوراء جميعاً . بل قل إنه مثلث الفائدة ؛ لأنه في نظره إلى الخلف لا ينظر إلى الآية الآنفة وحدها ، بل ينظر كذلك إلى الآية الجامعة ، ليفصل إجمالها في هذا الجانب[٣] ..

---

(١) هكذا قال الله : ﴿ **واستعينوا بالصبر والصلاة** ﴾ [دراز] .

(٢) وهكذا قال الله في وصف الإنسان : ﴿ **وإذا مسه الخير منوعاً إلا المصلين ..** ﴾ [دراز] .

(٣) إذا فهمت حسن هذا التلطف ، في الانتقال من المعنى القديم إلى المعنى الجديد ، وأدركت جمال هذه الأوضاع الهندسية ، التي تناسقت بها المعاني السابقة واللاحقة ، فقد زالت عنك شبهة الاقتضاب هنا في الانتقال إلى حديث الصلاة .. غير أننا إذا قِسْنا هذه النقلة إلى النقلة السابقة بين الحلقتين الأولى والثانية ، ألسنا نرى هذا التمهيد قصيراً ، وهذا التحول سريعاً ؟ أليست النفس في سيرها هنا تدركها رجَّة خفيفة لهذا التحول السريع الذي تفرضه عليها حركة قائدها ؟ .

ألا فاعلم – علَّمك الله – أن هذه سرعة مقصودة ، وأن من الخير لنا أن نحس بهذه الرجة الخفيفة من أثر ذلك التحول السريع ؛ فإن لذلك مغزى عميقاً في تربية النفوس المؤمنة ... إن هذه النقلة تصور لنا ما يجب أن يكون عليه المؤمن ، إذا سمع نداء الواجب الروحي وهو منهمك في معركة الحياة . فكأننا بهذا الأسلوب الحكيم ينادينا : إنه ليس شأن المؤمن أن يحتاج إلى كبير معالجة للتسامي بروحه فوق مشاغل الأهل والولد ، وإنما شأنه أن ينتشل نفسه من غمرتها انتشالا فورياً ، ليسرع إلى تلبية ذلك النداء الأقدس ، قائلاً للدنيا كلها : (دعيني أتعبد لربي !) . نعم هذا شأن المؤمنين : ﴿ **تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ..** ﴾ [سورة السجدة الآية : ١٦] [دراز] .

والجندي في الحرب تشغله على الأقل مخافتان : مخافة على نفسه وعلى المجاهدين معه ، من أخطار الموت أو الهزيمة ؛ ومخافة على أهله من الضياع والعَيْلَة[1] لو قُتل ... لذلك انساق البيان الكريم يطرد عن قلبه كلتا المخافتين : أما أهله فقد وصى الله للزوجة ، إذا مات زوجها ، بأن تُمَتَّعْ حَولاً[2] كاملاً في بيته ، وكذلك مطلقته سيتقرر لها حق في المتعة لا يُنسى . فليقر عيناً من هذه الناحية [٢٤٠ - ٢٤٢] وأما خوف الموت فليعلم أن الذي يطلب الموت قد تُوهب له الحياة : ﴿ **ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم** ﴾ [٢٤٣] . وأما خوف الهزيمة ، فإن النصر بيد الله : ﴿ **كم مِن فئةٍ قليلةٍ غلبت فئةً كثيرةً بإذن الله** ﴾ [٢٤٩] وتلك سنة الله في المرسلين [٢٤٦ - ٢٥٣] .

هكذا أبعدت المخاوف كلها عن قلوب المجاهدين ، بعد أن زودت أرواحهم بزاد التقوى ، وهكذا أصبحوا على استعداد نفسي كامل ، لتلقي الأوامر العليا ، فليصدر إليهم الأمر صريحاً بالجهاد في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم [٢٤٤ - ٢٤٥][3] . ولتصل لهم العِبَر التاريخية ، التي تثبت أقدامهم حين

---

(١) العَيْلَة : الفقر .

(٢) للمفسرين في هَذه الآية قولان مشهوران :

* أحدهما أنها وصية مندوبة لا واجبة .

* الثاني أنها كانت واجبة في صدر الإسلام ثم نسخت بالآية السابقة [٢٣٤] التي توجب تربص أربعة أشهر وعشر لا أكثر ... وواضح أن كلا القولين مبني على أن آية الحول يسري حكمها على الأزواج عامة ... ولكن السياق الحكيم أوحى إلينا هذا المعنى الجديد : وهو أن تربص الحول الكامل كان خصوصية فضلت بها زوجات المجاهدين على زوجات القاعدين . والله أعلم [**دراز**] .

(٣) من الطرائف البيانية في أسلوب القرآن هنا أن النتيجة فيه تقع من المقدمات موقع المركز من الدائرة ، لا موقع الطرف من الخط كما هو شأن الأسلوب التعليمي المشهور . ألا ترى هذا الأمر بالقتال في سبيل الله [٢٤٤] قد أحيط من جانبيه كليهما بدعائمه وبواعثه : إجمالاً قبل ، وتفصيلاً بعد ؟ .. على أن هذا المنهج الطريف لا يخص هذا الموضع =

البأس ، والتي تزيدهم أملاً في النصر [٢٤٦ - ٢٥٣] .

والجهاد كما قلنا جهادان : جهاد بالنفس ، وجهاد بالمال ، وليس الجهاد بالمال وقفاً على شئون الحرب ، بل هو بذله في كل ما يرفه عن الأمة ، ويقوي شوكة الدولة ، ويحمي حمى الملة ..

ولقد أخذ الجهاد بالنفس حظه من الدعوة في آية قصيرة [٢٤٤] ثم في آيات كثيرة [٢٤٦ - ٢٥٣] . وأخذ الجهاد بالمال بعض حظه في آية قصيرة [٢٥٥] فمن العدل أن يأخذ تمام حظه في آيات كثيرة كذلك . وهكذا نرى الدعوة إليه تأخذ الآن قسطها ، مطبوعاً بطابع الشدة تارة [٢٥٤ - ٢٦٠][1] وطابع اللين تارة [٢٦١] وطابع التعليم المفصل لآداب البذل تارة أخرى [٢٦٢ - ٢٧٤] .

ثم ينساق الحديث من فضيلة التضحية والإيثار ، التي هي أسمى الفضائل

= من القرآن ؛ فإنك ستجد شواهده مبثوثة في مواضع كثيرة من الكتاب العزيز .. تدبر قوله تعالى في سورة المائدة : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم** ﴾ [سورة المائدة ، الآية : ٣] فإن كمال الدين الإسلامي باشتماله مادياً وروحياً على كل النظم الكفيلة بإصلاح الفرد ، والأسرة ، والجماعة ، والدولة ، والإنسانية العامة ، لم يذكر من دلائله قبل إلا طرف يسير . أما بقية البرهان فقد نثرت حباته على إثر ذلك إلى تمام الآية العاشرة من السورة المذكورة ... وانظر قوله تعالى في سورة النحل : ﴿ **لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد** ﴾ [سورة النحل الآية : ٥١] فقد جاء وسطاً بين دلائل الوحدانية في التدبير ، ودلائل الوحدانية في الإنعام والإحسان ... وتأمل قوله في السورة نفسها ﴿ **ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء** ﴾ [سورة النحل الآية : ٨٩] فقد جاء بعد تبيين أصول العقيدة ، وقبل تبيين أصول الفضيلة العملية . ومن جملة السابق واللاحق ، يتألف البرهان على صدق هذه القضية ، وهي أن الكتاب تبيان لكل شيء ... [**دراز**] .

(١) ففي هذه الآيات السبع تحذير شديد للبخلاء من يوم لا يُبذل فيه فداء ، ولا يغني فيه خليل عن خليله ، ولا تنفع فيه شفاعة الشافعين ؛ ثم تأكيد لهذا المعنى بمحو كل شبهة يتعلق بها من يعتمد على الشفعاء ، ونفي كل سلطان ونفوذ لغير الله ، ورفع كل ريبة عن حقيقة يوم الدين ... وذلك كله ليكون البذل عن إيمان وعقيدة سليمة ، لا رياء ولا زلفى لأحد ، ولكن ابتغاء لوجه الله الواحد الأحد [**دراز**] .

الاجتماعية ، إلى رذيلة الجشع والاستئثار ، التي هي في الطرف المقابل ، أحط أنواع المعاملات البشرية (أعني رذيلة الربا ، التي تُستغل فيها حاجة الضعيف ، ويتقاضى فيها المحسن ثمن المعروف الذي يبذله) [٢٧٥ - ٢٧٩] وكان هذا الاقتران بينهما في البيان إبرازاً لمدى الافتراق بين قيمتهما في حكم الضمائر الحية .

وبين هذين الطرفين المتباعدين ، يقيم القرآن ميزان القسط في الحد الأوسط ، جاعلاً لصاحب الحق سلطاناً في المطالبة برأس ماله كله لا ينتقص منه شيء ﴿ **لا تَظْلِمون ولا تُظْلَمون** ﴾ [٢٧٩] . غير أنه يحذرنا من سوء استعمال هذا الحق بإزاء المعسرين ؛ فيأمرنا أن نتخذ فيهم إحدى الحسنيين : إما الانتظار إلى الميسرة ، وإما التنازل لهم نهائياً عن الدَّين . وهذه أكرم وأفضل ﴿ **وأن تَصَدَّقوا خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون** ﴾ [٢٨٠ - ٢٨١] .

ولما كان الطابع البارز في هذا التشريع القرآني ، وهو طابع القناعة والسماحة ، قد يوحي إلى النفوس شيئاً من التهاون في أمر المال ، وربما مال بها إلى التفريط في حفظه وتثميره ، جاءت آيتا الدَّين والرِّهان[1] [٢٨٢ - ٢٨٣] تدفعان عن نفوسنا هذا التوهم ، وتصوغان للمؤمنين دستوراً هو أدق الدساتير المدنية ، في حفظ الحقوق وضبطها وتوثيقها بمختلف الوسائل ، تمهيداً لإنفاقها في أحسن الوجوه .. فمن لم يجد سبيلاً إلى التوثق بوثيقة ما ، ولم يبق أمامه إلا أن يَكِلَ عميله إلى ذمته وأمانته ﴿ **فليؤد الذي اؤتمِن أمانته** ﴾ [٢٨٣] .

وهكذا ختم الشطر العملي من السورة ، بهذه القاعدة المثلى ، التي هي أساس كل معاملة شريفة ، أعني قاعدة الصدق والأمانة ، جعلنا الله من أهل الصدق والأمانة ... آمين .

* * *

---

(١) وآية الدَّين هي أطول آية في القرآن [**دراز**] .

المقصد الرابع من مقاصد السورة
[ذكر الوازع والنازع الديني الذي يبعث على ملازمة تلك الشرائع ويعصم عن مخالفتها] .

في آية واحدة [٢٨٤]

في الآية السابقة ، انتهت مهمة الأحكام التفصيلية ، عند الحد الذي أراد الله بيانه في هذه السورة ؛ وبها ختم الشطر الثاني من الحقيقة الدينية ، وهو شطرها العملي ؛ بعد أن أرسى شطرها الاعتقادي في الآي [١٢٢ وما بعدها] .

وهكذا تناول البيان حتى الآن :

١ - حقائق الإيمان .

٢ - شرائع الإسلام .

هل بقي في بنيان الدين شيء فوق هذه الأركان ؟

- نعم ؛ لقد بقيت ذروته العليا ، وحليته الكبرى ..

بعد الإيمان .. والإسلام .. بقي الإحسان ؛ وهو كما فسره صاحب الرسالة صلوات الله وسلامه عليه ، أن تراقب الله في كل شأنك[1] ، وأن تستشعر

---

(١) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : « **بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم ، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر . لا يُرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه . وقال : يا محمد ! أخبرني عن الإسلام فقال رسول الله ﷺ : الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً . قال : صدقت ... قال فأخبرني عن الإيمان . قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكُتُبِه ورُسُلِه واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر** =

مشاهدته لك في سرك وإعلانك ، وأن تستعد لمحاسبته لك ، حتى على ذات صدرك ، ودخيلة نفسك .. مطلب عزيز لا يطيق الوفاء به كل مؤمن ، ولا كل مسلم ؛ وإنما يحوم حول حماه صفوة الصفوة من المتقين .. وكأنه لعزة هذا المطلب ونفاسته صان اللهُ دُرَّتَه اليتيمة في هذه الآية الواحدة ، التي توج بها هامة السورة ﴿ **وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله**﴾ [٢٨٤] .

* * *

الخاتمـــة

[في التعريف بالذين استجابوا لهذه الدعوة الشاملة لتلك المقاصد ، وبيان ما يُرجى لهم في آجلهم وعاجلهم]

في آيتين اثنتين [٢٨٥ - ٢٨٦]

والآن وقد تناول البيان أركان الدين كلها ، وألَّم بعناصره جميعها : الإيمان ، والإسلام ، والإحسان ؛ لم يبق بعد تمام الحديث إلا طي صحيفته ، وإعلان ختامه ؟ .

فهل تعرف كيف طويت صحيفة هذه السورة ، وكيف أعلن ختامها ؟

لنعد بذاكرتنا إلى الآيات الخمس التي افتتحت بها سورة البقرة ؛ لنرى كيف تتجاوب تلك المقدمة مع هذه الخاتمة ؛ ثم كيف يتعانق الطرفان هكذا ليلتحم من قوسيهما سور محكم يحيط بهذه السورة ، فإذا هي سورة حقاً ،

= **خَيْرِه وشَرِّه . قال : صدقت .. فأخبرني عن الإحسان . قال : أن تَعْبُدَ اللهَ كأنكَ تراه ؛ فإن لم تكن تراه ، فإنه يراك ..** » . وفي نهاية الحديث قال رسول الله ﷺ : « **إنه جبريل . أتاكم يعلّمكم دينكم** » .

رواه مسلم في الإيمان ١ ، ورواه البخاري عن أبي هريرة في الإيمان ٥٠ ، وفي التفسير ٤٧٧٧ .

أي بنية محبوكة مُسَوَّرة ..

ألم يكن مطلع السورة وعداً كريماً لمن سيؤمن بها ويطيع أمرها بأنهم أهل الهدى وأهل الفلاح ؟

ألسنا نترقب الآن صدى هذا الوعد ؟ بلى ؛ إننا ننتظر الآن أن تحدثنا السورة : هل آمن بها أحد ، وهل اتبع هداها أحد ، ثم ننتظر منها إن كان ذلك قد وقع ، أن تحدثنا عن جزاء من استمع واتبع ..

وهكذا سيكون مقطع السورة :

(١) بلاغاً عن نجاح دعوتها : ﴿ **آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون .. وقالوا سمعنا وأطعنا** ﴾ [٢٨٥] .

(٢) وفاءً بوعدها لكل نفسٍ بذلت وسعها في اتباعها : ﴿ **لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت** ﴾ [٢٨٦] .

(٣) فتحاً لباب الأمل على مصراعيه أمام هؤلاء المهتدين . فليبسطوا إذن أَكُفَّهم مبتهلين : ﴿ **ربنا .. ربنا .. ربنا .. أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين** ﴾ [٢٨٦] .

* * *

تلك هي سورة البقرة .. أرأيت وحدتها في كثرتها : أعرفت اتجاه خطوطها في لوحتها ؟ أرأيت كيف التحمت لبناتها من غير ملاطٍ يمسكها ، وارتفعت سماؤها بغير عمدٍ تسندها؟ أرأيت كيف انتظم من رأسها وصدرها وأحشائها وأطرافها ، لا أقول أحسن دُمْية ... بل أجمل صورة حية . كل ذرة في خليتها ، وكل خلية في عضوها ، وكل عضو في جهازه ، وكل جهاز في جسمه ، ينادي بأنه قد أخذ مكانه المقسوم ، وفقاً لخطٍ جامع مرسوم ، رسمه مُرَبِّي النفوس ومزكيها ، ومُنَوِّر العقول وهاديها ، ومرشد الأرواح وحاديها .. فتالله لو أن

هذه السورة رُتِّبت بعد تمام نزولها ، لكان جمع أشتاتها على هذه الصورة معجزة ، فكيف وكل نجم منها - كسائر النجوم في سائر السور - كان يوضع في رتبته من فور نزوله ، وكان يَحْفظ لغيره مكانه انتظاراً لحلوله ؛ وهكذا كان ما لم ينزل منها معروف الرتبة محدد الموقع قبل أن ينزل ؟ . ثم كيف وقد اختُصت من بين السور المنجمة بأنها حددت مواقع نجومها لا قبل نزولها بعام أو بعض عام ، بل بتسعة أعوام ؟

لعمري لئن كانت للقرآن في بلاغة تعبيره معجزات ، وفي أساليب تربيته معجزات ، وفي نبوءاته الصادقة معجزات ، وفي تشريعاته الخالدة معجزات ، وفي كل ما استخدمه من حقائق العلوم النفسية والكونية معجزات ومعجزات ، لعمري إنه في ترتيب آيِّه على هذا الوجه لهو معجزة المعجزات ! .

* * *

○ تم بحمد الله تعالى الجزء الأول من كتاب النبأ العظيم لمؤلفه الشيخ محمد عبد الله دراز رحمه الله .

○ ويليه إن شاء الله الجزء الثاني وهو مخطوطات مكملة للجزء الأول عُثِر عليها في مكتبة الشيخ رحمه الله .

ويجري إعدادها للطبع بمشيئة الله وتوفيقه .

المصادر والمراجع

أولاً : القرآن الكريم .

* * *

ثانياً التفاسير :

* **الأساس في التفسير : سعيد حوى .**
دار السلام ، الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ ــ ١٩٨٥ م .

* **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن : محمد الأمين الشنقيطي .**
مطبعة المدني ــ مصر ، طبعة ١٣٨٦ هـ ــ ١٩٦٧ م .

* **التحرير والتنوير من التفسير : محمد الطاهر بن عاشور .**
الدار التونسية للنشر ــ الدار الجماهيرية للنشر .

* **تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) : الطبري .**
مكتبة ومطبعة مصطفي البابي الحلبي ــ مصر ، الطبعة الثالثة ١٣٨٨ هـ ــ ١٩٦٨ م .

* **تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) : الطبري .**
تحقيق وتخريج : محمود وأحمد محمد شاكر .
دار المعارف ــ مصر ، الطبعة الثانية ١٩٦٩ م .

* **تفسير القرآن العظيم : ابن كثير .**
تحقيق : عبد العزيز غنيم ــ محمد أحمد عاشور ــ محمد إبراهيم البنا .
دار الشعب ــ مصر .

* **تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) : القرطبي .**
تصحيح : أحمد عبد العليم البردوني .
دار إحياء التراث العربي ــ بيروت ، الطبعة الثانية .

* التفسير الكبير : الرازي .
دار الكتب العلمية ــ بيروت ، طبعة ١٤١١ هـ ــ ١٩٩٠ م .
* تفسير المنار : محمد رشيد رضا .
دار المعرفة ــ بيروت ، الطبعة الثانية .
* الدر المنثور في التفسير بالمأثور : السيوطي .
دار الكتب العلمية ــ بيروت ، طبعة ١٤١١ هـ ــ ١٩٩٠ م .
* روح المعاني وتفسير السبع المثاني : الألوسي .
دار إحياء التراث العربي ــ بيروت .
* زاد المسير في علم التفسير : ابن الجوزي .
المكتب الإسلامي ، الطبعة الثالثة ١٤٠٤ هـ ــ ١٩٨٤ م .
* عمدة التفسير : أحمد محمد شاكر .
دار المعارف ــ مصر ، طبعة ١٣٧٧ هـ ــ ١٩٥٧ م .
* في ظلال القرآن : سيد قطب .
دار الشروق ، الطبعة الشرعية التاسعة ١٤٠٠ هـ ــ ١٩٨٠ م .
* الكشاف عن حقائق التنزيل : الزمخشري .
ترتيب وضبط : مصطفى حسين أحمد .
دار الريان للتراث ــ القاهرة ، الطبعة الثالثة ١٤٠٧ هـ ــ ١٩٨٧ م .
* محاسن التأويل : القاسمي .
تخريج وعناية : محمد فؤاد عبد الباقي .
دار إحياء الكتب العربية (عيسى البابي الحلبي) ــ مصر ، الطبعة الأولى ١٣٧٦ هـ ــ ١٩٥٧ م .
* مفردات ألفاظ القرآن : الراغب الأصفهاني .
تحقيق : صفوان عدنان داودي .
دار القلم- دمشق، مع الدار الشامية- بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ- ١٩٩٢ م.

ثالثاً : علوم قرآنية :

* **الإتقان في علوم القرآن : السيوطي .**
تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم .
الهيئة المصرية العامة للكتاب ــ مصر ، طبعة ١٩٧٤ م .

* **أسباب النزول : السيوطي .**
دار إحياء الكتب العربية (فيصل عيسى البابي الحلبي) ــ مصر ، طبعة ١٩٨٦ م .

* **أسباب النزول : الواحدي .**
تخريج وتدقيق : عصام بن عبد المحسن الحميدان .
مؤسسة الريان ــ بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١١ هـ ــ ١٩٩١ م .

* **إعجاز القرآن : الباقلاني .**
تحقيق : السيد أحمد صقر .
دار المعارف ــ مصر ، الطبعة الخامسة .

* **الصحيح المسند من أسباب النزول : مقبل بن سادي الوادعي .**
توزيع : (المكتب السلفي) دار أهل السنة ــ مصر .

* **فضائل القرآن : ابن كثير .**
مكتبة الصحابة ــ طنطا .

* **فضائل القرآن : النسائي .**
تحقيق : د . فاروق حماده .
دار الثقافة ، الدار البيضاء ــ المغرب ، الطبعة الأولى ١٤٠٠ هـ ــ ١٩٨٠ م .

* **الناسخ والمنسوخ : هبة الله بن سلامة المقري .**
تحقيق : زهير الشاويش ومحمد كنعان .
المكتب الإسلامي ، الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ ــ ١٩٨٤ م .

رابعاً : الحديث :

* **الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان : ابن بلبان .**
تحقيق وتخريج : شعيب الأرناءوط .
مؤسسة الرسالة ــ بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ ــ ١٩٨٨ م .

* **جامع الأصول في أحاديث الرسول : ابن الأثير (أبو السعادات المبارك) .**
تحقيق : عبد القادر الأرناءوط .
دار الملاح للطباعة والنشر ــ سوريا ، الطبعة الأولى ١٣٨٩ هـ ــ ١٩٦٩ م .

* **سنن الترمذي .**
تحقيق وشرح : أحمد محمد شاكر ، ثم آخرين من بعده .
دار الحديث ــ مصر .

* **سنن أبي داود .**
تحقيق : عزت عبيد الدعاس وعادل السيد .
دار الحديث ــ حمص ، الطبعة الأولى ١٣٨٩ هـ ــ ١٩٦٩ م .

* **سنن ابن ماجة .**
تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي .
المكتبة العلمية ــ بيروت .

* **سنن النسائي [المجتبى] (مع شرح السيوطي) .**
دار الكتب العلمية ــ بيروت .

* **صحيح البخاري (مع فتح الباري لابن حجر) .**
إعداد : محمد فؤاد عبد الباقي ، وآخرين .
المطبعة السلفية ومكتبتها ــ مصر ، الطبعة الثانية ١٤٠١ هـ .

* **صحيح مسلم .**
إعداد وتعليق : محمد فؤاد عبد الباقي .
دار إحياء الكتب العربية (عيسى البابي الحلبي)، الطبعة الأولى ١٣٧٤ هـ- ١٩٥٥ م.

* **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد : الهيثمي .**
دار الريان للتراث ـــ القاهرة ، مع دار الكتاب العربي ـــ بيروت
طبعة ١٤٠٧ هـ ـــ ١٩٨٧ م .
* **المستدرك على الصحيحين : الحاكم .**
دار الكتب العلمية - بيروت . طبعة ١٤١١هـ - ١٩٩٠ م
* **مسند أحمد .**
المكتب الإسلامي ، الطبعة الخامسة ١٤٠٥ هـ ـــ ١٩٨٥ م .
* **مسند أحمد .**
تحقيق وإعداد : أحمد محمد شاكر .
دار المعارف ـــ مصر ، الطبعة الثالثة ١٣٦٨ هـ ـــ ١٩٤٩ م .
* **موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان : الهيثمي .**
تحقيق : محمد عبد الرزاق حمزة .
المطبعة السلفية ومكتبتها ـــ مصر .
* **موطأ مالك .**
إعداد : محمد فؤاد عبد الباقي .
دار إحياء الكتب العربية (عيسى البابي الحلبي) ـــ مصر .

● **مؤلفات وتصحيحات الألباني ـــ حفظه الله ـــ وخاصةً :**

* **إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل .**
المكتب الإسلامي ، الطبعة الثانية ١٤٠٥ هـ ـــ ١٩٨٥ م .
* **تخريج أحاديث فقه السيرة لمحمد الغزالي .**
دار الكتب الإسلامية- القاهرة، الطبعة الثامنة ١٤٠٢ هـ- ١٩٨٢ م.
* **السلسلة الصحيحة :**
المجلد الأول والثاني: المكتب الإسلامي، الطبعة الرابعة ١٤٠٥ هـ- ١٩٨٥ م.
المجلد الثالث: الدار السلفية- الكويت، الطبعة الأولى ١٣٩٩ هـ- ١٩٧٩ م.

المجلد الرابع: المكتبة الإسلامية ــ عمان ، مع الدار السلفية ــ الكويت ، الطبعة الثانية ١٤٠٤ هـ .
المجلد الخامس : دار المعارف – الرياض ، الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ – ١٩٩١ م.

* **السلسلة الضعيفة :**
المجلد الأول : المكتب الإسلامي ، الطبعة الخامسة ١٤٠٥ هـ – ١٩٨٥ م .
المجلد الثاني : المكتبة الإسلامية ــ الأردن ، مع مكتبة المعارف ــ الرياض ، الطبعة الثالثة ١٤٠٦ هـ .
المجلد الثالث والرابع: مكتبة المعارف– الرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ.

* **صحيح الجامع الصغير .**
المكتب الإسلامي ، الطبعة الثانية ١٤٠٦ هـ ــ ١٩٨٦ م .

* **صحيح سنن الترمذي .**
مكتب التربية العربي لدول الخليج ، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ–١٩٨٨ م.

* **صحيح سنن أبي داود .**
مكتب التربية العربي لدول الخليج ، الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ–١٩٨٩ م.

* **صحيح سنن ابن ماجة .**
مكتب التربية العربي لدول الخليج ، الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ–١٩٨٦ م.

* **صحيح سنن النسائي .**
مكتب التربية العربي لدول الخليج، الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ–١٩٨٩ م.

* **ضعيف الجامع الصغير .**
المكتب الإسلامي ، الطبعة الثانية ١٤٠٨ هـ ــ ١٩٨٨ م .

* **ضعيف سنن الترمذي .**
المكتب الإسلامي ، الطبعة الأولى ١٤١١ هـ ــ ١٩٩١ م .

* **ضعيف سنن ابن ماجة .**
المكتب الإسلامي ، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ ــ ١٩٨٨ م .

* * *

خامساً : كتب العقيدة .

* **إن الحكم إلا لله : محمد شاكر الشريف .**
دار الوطن ــ الرياض ، الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ .
* **الإيمان : ابن تيمية .**
المكتب الإسلامي ، الطبعة الثالثة ١٣٩٩ هـ ــ ١٩٧٩ م .
* **تحذير أهل الإيمان عن الحكم بغير ما أنزل الرحمن: إسماعيل بن إبراهيم الخطيب الأسعردي .**
مكتبة التوعية الإسلامية ــ مصر .
* **تحكيم القوانين : محمد بن إبراهيم آل الشيخ .**
* **شرح العقيدة الطحاوية : ابن أبي العز الحنفي .**
المكتب الإسلامي ، الطبعة الثامنة ١٤٠٤ هـ ــ ١٩٨٤ م .
* **الشريعة الإلهية لا القوانين الجاهلية : عمر سليمان الأشقر .**
دار النفائس ــ الأردن ، مع مكتبة الفلاح ــ الكويت ، الطبعة الثالثة ١٤١٢ هـ ــ ١٩٩١ م .
* **فتح المجيد شرح كتاب التوحيد : عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ**
مؤسسة قرطبة ــ مصر .
* **فضل الغني الحميد : ياسر برهامي .**
مكتبة الإيمان ــ الإسكندرية ، الطبعة الأولى ١٩٩٠ م .
* **كلمة حق : عمر عبد الرحمن .**
دار الاعتصام ــ مصر .

* **وجوب تحكيم شرع الله ونبذ ما خالفه : عبد العزيز بن باز .**
رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ــ الرياض .
الطبعة الرابعة ١٤٠١ هـ .

* * *

سادساً : السيرة والتاريخ والتراجم .

* **الإصابة في تمييز الصحابة : ابن حجر .**
دار الكتب العلمية ــ بيروت .

* **البداية والنهاية : ابن كثير .**
دار الكتب العلمية ــ بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ ــ ١٩٨٥ م .

* **تاريخ الطبري .**
تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم .
دار المعارف ــ مصر ، الطبعة الرابعة .

* **أبو حامد الغزالي والتصوف : عبد الرحمن دمشقية .**
دار طيبة ــ الرياض ، الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ ــ ١٩٨٦ م .

* **الخصائص الكبرى : السيوطي .**
دار الكتب العلمية ــ بيروت ، ١٤٠٥ هـ ــ ١٩٨٥ م .

* **الرحيق المختوم : صفي الرحمن المباركفوري .**
دار وليد الكعبة ، الطبعة الأولى ١٤٠٠ هـ ــ ١٩٨٠ م .

* **الروض الأُنُف : السهيلي .**
تحقيق : طه عبد الرءوف سعد .
مكتبة الكليات الأزهرية ، ١٤٠٢ هـ ــ ١٩٧٣ م .

* **سير أعلام النبلاء : الذهبي .**
تحقيق : شعيب الأرناءوط ، وآخرين .
مؤسسة الرسالة ، الطبعة الثامنة ١٤١٢ هـ ـــ ١٩٩٢ م .

* **السيرة النبوية : ابن هشام .**
تحقيق : عمر عبد السلام تدمري .
دار الريان للتراث ـــ مصر ، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ ـــ ١٩٨٧ م .

* **مناقب الشافعي : البيهقي .**
تحقيق : السيد أحمد صقر .
دار التراث ـــ القاهرة ، الطبعة الأولى ١٣٩١ هـ ـــ ١٩٧١ م .

* * *

سابعاً : اللغة والأدب والمعاجم :

* **أساس البلاغة : الزمخشري .**
دار ومطابع الشعب ، ١٩٦١ م .

* **ديوان البوصيري .**
تحقيق : محمد سيد كيلاني .
مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، الطبعة الثانية ١٣٩٣ هـ- ١٩٧٣ م

* **طبقات فحول الشعراء : ابن سلام .**
تحقيق وشرح : محمود محمد شاكر .
مطبعة المدني ـــ مصر .

* **فقه اللغة : الثعالبي .**
تحقيق : مصطفى السقا ـــ إبراهيم الأبياري ـــ عبد الحفيظ شلبي .
مصورة عن طبعة ١٩٧٢ م . دون ذكر الناشر .

* **القاموس المحيط : الفيروزآبادي .**
تحقيق : مكتب تحقيق التراث بمؤسسة الرسالة .
مؤسسة الرسالة ، الطبعة الثانية ١٤٠٧ هـ ــ ١٩٨٧ م .

* **لسان العرب : ابن منظور .**
تحقيق: عبد الله علي الكبير- محمد أحمد حسب الله- هاشم محمد الشاذلي.
دار المعارف ــ مصر .

* **مختار الصِحاح : محمد بن أبي بكر الرازي .**
ترتيب : محمود خاطر بك .
المطبعة الأميرية ببولاق- مصر، الطبعة الخامسة ١٣٥٨ هـ- ١٩٣٩ م.

* **مفتاح العلوم : السكاكي .**
ضبط وتعليق : نعيم زرزور .
دار الكتب العلمية ــ بيروت ، الطبعة الثانية ١٤٠٧ هـ ــ ١٩٨٧ م .

* * *

ثامناً : الفقه وأصول الفقه :

* **الإحكام في أصول الأحكام : ابن حزم .**
مكتبة عاطف ــ مصر ، طبعة ١٣٩٨ هـ ــ ١٩٧٨ م .

* **أعلام الموقعين عن رب العالمين : ابن القيم .**
عناية : طه عبد الرءوف سعد .
مكتبة الكليات الأزهرية ، طبعة ١٣٨٨ هـ ــ ١٩٦٨ م .

* **الرسالة : الشافعي .**
تحقيق : أحمد محمد شاكر .
دار التراث ــ مصر ، الطبعة الثانية ١٣٩٩ هـ ــ ١٩٧٩ م .

* **الفقه الإسلامي وأدلته : وهبة الزحيلي .**
دار الفكر ــ سوريا ، الطبعة الثالثة ١٤٠٩ هـ ــ ١٩٧٩ م .

* المستصفى : الغزالي .
مكتبة الجندي ــ مصر .

* * *

تاسعاً : كتب متنوعة :

* الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر : محمد محمد حسين .
مؤسسة الرسالة ــ بيروت ، الطبعة السادسة ١٤٠٣ هـ ــ ١٩٨٣ م .

* إحياء علوم الدين : أبو حامد الغزالي .
دار الشعب ــ مصر .

* التبشير والاستعمار في البلاد العربية : مصطفى خالدي وعمر فروخ .
المكتبة العصرية ــ بيروت ــ صيدا . الطبعة الخامسة ١٩٧٣ م .

* الجماعات الإسلامية : سليم الهلالي وزياد الدبيج .
الطبعة الثانية ١٤٠١ هـ ــ ١٩٨١ م . دون ذكر الناشر .

* الحكومة الإسلامية : المودودي .
المختار الإسلامي ــ مصر .

* صون المنطق والكلام عن فنّي المنطق والكلام : السيوطي .
تحقيق : علي سامي النشار ، سعاد علي عبد الرازق .
مجمع البحوث الإسلامية ــ الأزهر .

* قادة الغرب يقولون : دمِّروا الإسلام، أبيدوا أهله : جلال العالم .
المختار الإسلامي ، ١٩٨٥ م .

* كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة: عبد الرحمن حسن حَبَنَّكَة الميداني.
دار القلم ــ دمشق ، الطبعة الثانية ١٤١٢ هـ ــ ١٩٩١ م .

* مجموع فتاوي ابن تيمية .
جمع وترتيب : عبد الرحمن بن محمد بن قاسم ، وابنه محمد .

* مدارج السالكين : ابن القيم .
دار الحديث ـــ مصر ، ١٩٨٣ م .
* نقض المنطق : ابن تيمية .
تحقيق : محمد عبد الرزاق حمزة ـــ سليمان بن عبد الرحمن الصنيع ـــ محمد حامد الفقي .
مكتبة السنة المحمدية ـــ مصر .

* * *

فهرس

الموضوع	الصفحة

(١) هـ تعني هامش .

المرحلة الرابعة من البحث